

مصطفى لطفي المنفلوطي

الشاعر



سيرانو دي برجراك

للشاعر الفرنسي العظيم
إدمون روستان



دار الشرق العربي

بيروت - شارع سورية - بقية درويش

أبو علاء سيف الدين

مقدمة

أطلعني حضرة الصديق الكريم الدكتور محمد عبد السلام الجهندي على هذه الرواية التي عربها عن اللغة الفرنسية تعريباً حريفاً حافظ فيه على الأصل بحافظة دقيقة ، وطلب إليّ أن أهدب عبارتها ليقدمها إلى فرقة تمثيلية تقوم بتمثيلها ففعلت ، واستطعت في أثناء ذلك أن أقرأ الرواية قراءة دقيقة ، وأن أستشف أغراضها ومغازيها التي أراد المؤلف أن يضمّنها إليها فأعجبني منها الشيء الكثير ، وأفضل ما أعجبني منها أنها صوّرت التضحية تصويراً بديعاً وهي الفضيلة التي أعتقد أنها مصدر جميع الفضائل الإنسانية ونقطة دائرتها ، فرأيت أن أحولها من قالب التمثيل إلى قالب القصصي ، ليستطيع القارئ أن يراها على صفحات القرطاس كما يستطيع المشاهد أن يراها على مسرح التمثيل . وقد حافظت على روح الأصل بتمامه وقيدت نفسي به تقييداً شديداً ، فلم أتجاوز إلا في حذف جمل لا أهمية لها وزيادة بعض عبارات اضطررت إليها ضرورة النقل والتحويل واتساق الأغراض والمقاصد ، بدون إخلال بالأصل و الخروج عن دائرته ، فمن قرأ التعريب قرأ الأصل الفرنسي أبعينه ، إلا ما كان من التفرق بين بلاغة القلمين ومقلوبة الكاتبين وما لا بد من عروضه على كل متقول من لغة إلى أخرى وخاصة إذا قيدت المغرب نفسه وحبس قلمه عن التصرف والافتتان .

سيفه أو ملقباً قنازة على وجه خصمه ، شأن الفوارس الأبطال
في ذلك العصر .

وكانت بليته السطى في حياته ومنع شفاؤه وبلاله أنه كان
دمع الوجه كبير الأنف جداً إلى درجة تلت النظر وتستثير الدهشة ،
وكان يعلم ذلك من نفسه حق العلم ويتألم بسببه تألماً كثيراً لأنه
كان عاشقاً لآية عمه «روكان» الشهيرة بمساحها النادر وذكائها
الحارق ، وكان يعتقد أن المرأة مهما سمت أخلاقها وجلت صفاتها
لا يمكن أن تقع في أحولة غرامية غير أحولة الجمال ولا تعي
بحسن إلا بحسن الوجوه والصور ، فكان وهو أشجع الناس وأجودهم
وأعظمهم عاطفة وإقداماً لا يحسر أن يفتح حياته هذه في شأن
حبه حياة من نفسه وعجللاً .

فكان أنه سبب شفاؤه من جهتين : أنه وقف عقبة بينه وبين
غرامه ، وأنه كان المخذ العظيم الذي ينحدر منه أعداؤه وخصومه
إلى السخرية به والتهكم عليه ، وهو لا يطيق ذلك ولا يحتمله ،
فكان النزاع بينه وبينهم دائماً لا ينقطع ، وكان لا ينتهي غالباً
إلا بمبارزة يخرج منها في الغالب فائزاً متصراً ولكن كثير الخسوم
والأعداء .

وكان جندياً في فصيلة شبان الحرس من الجيش الفرنسي وكان
أفراد تلك الفصيلة جميعهم من أهل سكوتيين مثله ، وهم قوم
معروفون بمشونة الأخلاق ووجوريتها وكثرة التجمع والادعاء
والغرور والكذب . ولهم مع ذلك فضيلة الشجاعة والصبر والقدرة
والشرف وعزة النفس ، وكان سيرانو متصفاً بخصائصهم موزعاً
عن سيئاتهم فكان له في نفوسهم أسى منزلة من الإجلال والإعظام ،

أشخاص الرواية

سيرانو دي برجرال

شاعر فرنسي من شعراء القرن السابع عشر نشأ غريباً في أطواره
وأخلاقه مضطرباً بصفات قل أن تجتمع لأحد من معاصريه ، فكان
جامعاً بين الشجاعة إلى درجة الثور ، والنجيل إلى درجة الضعف ،
وبين القسوة إلى معاقبة أعدائه على أصغر المخطات ، والرفقة إلى
اليكاء على يؤس البائسين من أصدقائه وأبناء حرفته ، وكان كريماً
متلافياً لا يبغي غسل شيء مما في يده ، وحقيقاً لا يمدّ يده
إلى غلوق كائنات من كان ، وصريحاً لا يتردد لحظة واحدة في مجابهة
صاحب العيب بعبه كيفما كانت النتيجة المترتبة على ذلك . فكان
عدو الكاذبين والمرايين والمغرورين والسفلة والمتعصبين ، أي أنه
كان عدواً للهيئة الاجتماعية التي يعيش فيها تقريباً ، كما كانت
عدوة له كذلك ، لا تبدأ عن مشاكلته ومناوئته واجتهاد الفرائد به .

ولم يكن له من الأصدقاء إلا أفراد قليل جداً هم الذين يفهمون
حقيقة نفسه وجوهرها ويقدرونه قدره وتقدر صفاته الكريمة التي
كان ينصف بها .

وكان الخلق الغالب عليه من بين جميع أخلاقه خلق العزة
والأنفة فكان شديد الاحتفاظ بكرامته والضمير بعرضه أن ينال
منهما نازل أو يعيش بهما عايب ، وكان لا يرى في أكثر أوقاته
لا مبارزاً أو مناصلاً أو ثائراً أو مهتاباً واضحاً يده على مقبض

متعلقة بحياتها ، وهذا كل حظه في الحياة .

ولم يزل هذا شأنه طول حياته حتى خرج من دنياه ولم تعلم
روكسان سريرة نفسه إلا في الساعة الأخيرة التي لا يفي عندها
العلم شيئاً .

روكسان

ابنة عم سيرانو دي برجرارك ، وهي فتاة شريفة متعلمة وافرقة
الفصل والذكاء عالية الهمة عفيفة الذليل مولدة بالشعر والأدب ،
إلا أنها كانت تنحدر في ذوقها الأدبي مذهب النساء المتحذلقات
في ذلك العصر ، أي أنها كانت كثيرة التكلف في أحاديثها وإشاراتها ،
وكان لا يمجيبها من الكلام إلا ذلك النوع الذي يسمونه بالصناعة
القفظية ، ولا من المعالي إلا تلك الخيالات الطائفة المائمة على وجهها
التي لا أساس لها في الحياة ولا وجود لها في فطرة النفس وطبيعتها .

وقد نشأت ببيئة منقطعة لا أهل لها ولا أقرباء إلا ابن عمها
سيرانو ، إلا أنها كانت تعيش عيشاً وغداً هنيئاً يفضل الثروة
الواسعة التي ورثتها عن أبويها .

فأحبها كثير من النبلاء والأشراف وعرضوا عليها الزواج
فلم تحفل بهم وأحبها « الكونت دي جيش » وهو أحد قواد
الجيش الفرنسي وكان متزوجاً بابنة أخت الكاردينال دي ريشليه ،
فأراد أن يستخدم نفوذه وجاهه في حملهم على الزواج من قبي
من أشياعه اسمه الفيكوت غافير على الطريقة المعروفة في ذلك
العهد عند الملوك والنبلاء ، فدفعته عنها برفق وحكمة خوفاً على
نفسها منه ، وظلّت تماطله زمناً طويلاً حتى أحبها البارون كروستيان

وكانوا يحبونه حباً شديداً ويذنون لرأيه ويستطرون أحاديثه
ودعاباته ويفخرون به ويتبوه وشجاعته وجراته وصراحته ،
كما كان يفخر بهم ويعصيتهم ، وكان من أسوأ الشعراء حظاً
في حياته فقد قضى عمره كله خاملاً مضوراً ، يجهل اللهاء
فقره لأنهم لا يفهمونه ، وينكر الأدياء فضله لأنهم يفضونه
ويحذون عليه وينقمون منه خشونة وشدة في مواضعهم وتقدهم ،
فلم يكن يحفل بذلك كثيراً لأنه كان مخلصاً لا بهم إلا أن يكون
عظيماً في عين نفسه ثم لا يبالى بعد ذلك بما يكون .

وكثيراً ما كان ينظم الرواية الجلييلة ذات المخرى العظيم والأسلوب
الرائق فلا يفكر في إهدائها إلى أحد من الأعضاء ليتوسل بذلك
إلى نشرها وترويجها وحمل الفرق التمثيلية على تمثيلها كما كان
يفعل الشعراء في عصره ، أنفة وإباء وخساً بنفسه أن يقف موقف
الذل والضرعة على أي باب من الأبواب كييعا كان شأنه ، وربما
سرق بعض الروائيين قطعاً من رواياته فقصتها رواياتهم وانتعوا
بها فلا يفضيه ذلك ولا يزعجه ، وكل ما كان يفكر فيه أو يال
عنه في هذا الموقف : ماذا كان وقع تلك القطعة في نفوس الجماهير
حينما سمعوها ؟

ولقد أخلص في حبه لابنة عمه ، روكسان ، إخلاصاً لم يسع
مثله في تاريخ الحب ، فأحبها وهي لا تعلم بحبه ، وتالم في سبيل
ذلك الحب ألماً شديداً وهي لا نشر بألمه وأحب غيرهم فلم يحقد
ولم ينتقم بل كان أكبر عون لها في غرامها الذي اختارته لنفسها ،
ولم يلبث أن اتخذ حببها الذي أثرت صديقاً له وأخلص في مودته
إخلاصاً عظيماً وأعان على استمرار صلته بها وبقائه حبه في قلبها ،
لأنه ما كان يهمه شيء في العالم سوى أن يراها سعيدة في حياتها

دي نوفيت فاجبه وأخلصت له إخلاصاً عظيماً ، ولم يكن في الحقيقة متصفاً بصفات القسطة والذكاء والتبوع التي كانت تظنها مجتمعة فيه ، لولا الحيلة القوية التي احتالها عليها سيرانو حتى أوهمها ذلك ، وهنا نكتة الرواية وبيت قصيدها ، ثم تزوجت منه بعد ذلك زواجاً سرياً ، ولكنها لم تكذب تصح شفتها على الكأس حتى انتزعت منها ، وكان هذا آخر عهدا بسعادة الحياة وهاتها .

كروسيان دي نوفيت

نيلاً من نبله الريف وفد إلى باريس ليشتق بفرقة الحرس من الجيش الفرنسي كما كانت عادة الأشراف في ذلك العهد وهي الفرقة التي كان يعمل فيها سيرانو ، وكان في جميل الصورة شريف النفس طيب القلب إلا أنه كان أقرب إلى البلادة منه إلى الذكاء ، فوقع نظره على روكسان في ساحة بورجونيا فأحبها وأحبته على البعد ، وكان قد علم من أمرها أنها فتاة فقيرة متفوقة ذكية الفؤاد غزيرة العلم قوية الإرادة ، لا يحبها من الرجال إلا الأذكىاء المتفوقون ، فهاب الدولتها ومفاجئتها في شأن حبه ، وعشي أن يسقط من عينها سقطه لا قيام له من بعدها ولم يزل هذا شأنه حتى أدركه سيرانو واحتال له تلك الحيلة القوية للدمعة التي جعلت روكسان تمسك أنها قد أحبت أذكى الناس وأسامهم حقلاً وأبعدهم غوراً وأملقهم لساناً وأبلغهم قللاً ، لا يريد بذلك إلا سعادتها وهناها وهو يتهالك بينه وبين نفسه غماً وكيداً ، لأنه وهو ظالم هبان يقدم الكأس بيده قشاريين ولا يلق منها قطرة واحدة .

الكونت دي جيش

أحد قواد الجيش الفرنسي وهو من أصل جاسكوني كسيرانو وروكسان ، إلا أنه كان يذهب في حياته مذهباً غير مذهب أبناة جدته الجاسكونيين في قناعتهم وعشوتهم وبساطة عيشهم ، بل كان رجلاً واسع الطامع شغوفاً بالعالي منطلقاً إلى المناصب العليا والمراتب الكبرى ، وقد تم له ما أراد من ذلك بمجده واجتهاده فأصبح قائداً من قواد الجيش الفرنسي وصهرراً للكردينال دي ريشليه .

وقد رأى روكسان في طريقه مرة فشفت بها شغفاً عظيماً ، وأراد أن يفسها إليه من طريق تزويجها من أحد صناعته فاحتالت للخروج من ذلك المأزق بحيلة لطيفة جداً ، وتزوجت من الرجل الذي أحبه بمعونة ابن عمها سيرانو ، فهاذا الكونت من أجل ذلك وانضم منها ومن زوجها ومن سيرانو انضماماً هائلاً .

لينير

شاعر مسكين من أصدقاء سيرانو نظم قصيدة طويلة هجا بها الكونت دي جيش وعرض فيها بقصته مع روكسان وفضح جريته التي أراد أن يقرئها معها ، فحقد عليه الكونت حقداً شديداً ، وحس له كميئاً مؤلفاً من مائة رجل ليقتلوه عند رجوعه إلى منزله ليلاً ، لولا أن أدركه سيرانو وأعانه على أعدائه قنجا .

ليري

أحد أصدقاء سيرانو المخلصين ، ينصحه دائماً بالهدوء والسكينة

وينتس عليه شدته وصرامته في أخلاقه وطباعه ، وينصح له بالتحاف
 بخطة في الحياة تناسب البيئة التي يعيش فيها رحمة نفسه وإبقاء
 على راحته وسكونه ، فلا يحفل بنصحه لأن له رأياً في الحياة غير
 رأيه ومذهباً غير مذهبه ، ولم يكن اختلافهما هذا في المشرب
 والمطعة مانعاً لهما من الصداقة والإخلاص ووفاء كل منهما لصاحبه
 حتى ما كانا يستطيعان الافتراق ساعة واحدة .

مونتفوري

أحد الممثلين في حانة بورجونيا ، وكان مشهوراً بحسن إلقاءه
 لرواية «كلوريز» وتأليف «الوأي الشهير» «بارو» .

وكان سيرانو يفضيه ويستقل حركاته التمثيلية وينظم عليه
 إعجابه بنفسه على قبحه ودعائه ، ويأخذ عليه كثرة تردد نظره
 أثناء التمثيل في محاذع السيدات يحاول افتتاحهن واجتذاب قلوبهن
 وقد رآه مرة ينظر إلى روكسان نظرة مريبة فتمثل عليه بعض العلى
 وأمره أن ينقطع عن التمثيل شهراً كاملاً ، فحاول الامتناع عليه
 وعصيان أمره فأنزله من المسرح بالقوة وعرده رغم دفاع الكبريين
 من الأشراف والنبلاء عنه وخاصة الكونت دي جيش .

راجنو

طباخ مشهور يبيع في حانوته الكثير أفضل أنواع المطاعم من
 شواء وفطائر ، وحلوى ، وكان عبقاً للشعر والأدب والتمثيل
 عطوفاً على البرساء من الثمراء والممثلين ، وكان يستقبلهم في
 حانوته استقبالاً حافلاً ، ويقدم لهم على حساب ما يقترحون
 من طعام وشراب ، وكان كل حظه منهم أن يجلس إليهم ويسمع

محاوراتهم الأدبية ويلتقط ما يتناثر حولهم من مسودات أشعارهم
 وفصولهم ويسمعهم ما ينظمه من الشعر الضعيف التائه فينتظرون
 باستحيائه والإعجاب إلقاء على مودته ، حتى أدركته حرقة الأدب
 فأفلس ، وأغلق حانوته ، فأعانه ميراثه على شؤون حياته وكان
 من أكبر أنصاره ولتشيئين له . ولكن الخط كان قد فارقه فلم
 يتجس في عمل من الأعمال التي اشتغل بها وظل اليأس ملازماً له
 طول حياته .

ليز

زوجة راجنو وهي امرأة فاسدة الأخلاق خبيثة النفس ،
 كانت تترأى زوجها وتسخر منه وتنتس عليه اشتغاله بالشعر والأدب
 واعتناؤه بالثمراء والأدباء وعنايته بهم ، وكانت تفضل أن تقدم
 هي نفسها الحانوت كله لضابط من ضباط الجيش تعجب به ،
 على أن يقدم زوجها راجنو لقمة واحدة منه لأديب من الأدباء ،
 ولما رأت تضعف حاله وانتكاس أمره فرت مع أحد ضباط الجيش
 بعد ذلك .

كاربون دي كاسفل

قاله فضيلة شيان الحرس وكان كل أفرادها من الجاسكونيين
 وهو جاسكوني مثلهم فكان يجهل حياً شديداً وبطلف عليهم ،
 وكان يجتهد في أعماله على سيرانو ويعلمه خير جنوده ، والتاريخ
 يذكر له دفاعه العظيم بفضيلته في ميدان أراس عن الموقع الذي
 اختار جيش العدو مهاجمته حتى تم النصر للراية الفرنسية على
 الراية الأسبانية .

الفصل الأول

حانة بوروجونيا

في ليلة من ليالي سنة ١٦٤٠ بدأ الناس يقدون إلى حانة بوروجونيا في باريس لمشاهدة رواية «كلوديز» ، وهي إحدى روايات الشاعر المشهور «يلتازار بارو» ، ولم يكن التمثيل في ذلك العصر دور خاصة به ، وإنما كانوا يمثلون في الحانات أو المطاعم الكبيرة على منابر خاصة يعلونها لذلك .

وكان جمهور المشاهدين في تلك الليلة كما هو شأنهم في جميع الليالي خليطاً من العمال والجنود والصوفى والخدم والأشراف والعلماء والكتاب وأعضاء الجميع الفرنسي . وقد اعتلط بعضهم ببعض وجلس أنصارهم بجانب أشرارهم ، قينا العلماء يتناقشون في مباحثهم العلمية والأدباء يتحدثون في شؤونهم الأدبية ، إذا فريق من الخدم قد ألبسوا شمعاً بالأرض واستندوا من حولها حلقة واسعة وأخذوا يقامرون بالمال الذي سرقوه من أسيادهم في ساعات لومهم واستهائهم ، وآخرون من أبناء الأشراف قد تماسكوا بأيديهم وظلوا يدورون حول أنفسهم راقبين مترجمين ، وآخرون من الفرواغ يأكلون ويقصفون^(١) ويتسايون ويتلاكمون ويحارون بأصوات عالية متنوعة كأنهم في سوق من أسواق الزينة وجماعة من الجند يتلهون بالمبارزة والملاكمة لا يبالون من يطأون

(١) القصف : الإثارة في الشرب والتهور .

بأقدامهم ، أو يصيرون بشفقات سيوفهم . وفئة من الصبايل قد اصطفوا صفاً واحداً بين يدي لمن من دهاة الصوفى ومناكيرهم يطلمهم كيف يسرقون الساعات من الصلور ، ويكزقون الجيوب عن الأكياس ، وكيف يتخلون صاحب المظف عن مظفه ، والقيمة عن قيمته والمصا عن عصاه ، كأنه قائد يدرج جنوده على الحركات العسكرية . وفي من المتأقين المتطرفين يتطارد فتاة المقصف^(١) من ركن إلى ركن يحاول إمساكها والعبث بها وهي تمتنع عليه وتأتي تأبياً أشبه بالإغراء منه بالامتناع . وجندي من جنود الحرس قد تنقل البواب عند دخوله وأمس من يده دون أن يدعح إليه شيئاً والبواب بطارده ويلاحقه ويأخذ يتلایيه فيجادل عن نفسه بأنه حارس الملك وحراس الملك أحرار يدخلون من الأمكنة ما يشاؤون . وزمرة من المتأدين قد انتبلوا ناحية من القاعة وأخذوا يندبون الأدب وحظه وشقاء أهليه وبلاءهم ويقول بعضهم لبعض : أليس من مصائب الدهر ورزاياه أن يقف موقف الممثل بين هذا الجمهور الساقط أمثال «متفوري» و«بلروز» و«بويريه» و«جودليه» وأن تمثل على مثل هذا المسرح الصغير التذلل روايات أكابر الشعراء الروائيين أمثال «رونرو» و«كورفي» و«بارو» ؟ .

ولم يكن بقي تلك القاعة على كبرها واتساعها إلا بضعة مصابيح ضئيلة تترامى تلك الإحماير على نورها كأنها الأشباح المتحركة ، أو الأرواح المائعة . وقد يسمع السامع فيها من حين إلى حين في وسط هذه الضوضاء صوت فتاة المقصف ، وهي تصيح خلف مقصفها بصوتها اللين الرنان «اللين» «الخلوى»

(١) مكان المقصف .

«عصير البرتقال»، «عصير الرمان»، «الشواء»، «القطير»،
«النبيذ»، أو صوت شيخ هرم يسب ويحتدم ويضرب الأرض
بقدميه، وهو عاري الرأس مثقل السحنة لأن أحد الجالسين
في الطبة العليا من الملب قد أرسل على رأسه المستعار شصاً^(١)
فاجتذبه به وظل معلقاً في الفضاء على مرأى من الجماهير الضاحكين،
أو صارخاً متألماً قد وضع يده على عينه وظل يصيح واخوتاه واويثاه
لأن بعض المترجمين صوّب إليها حصاة صغيرة أو نواة فأصابها
جاء، إلى أمثال ذلك من صراخ الصارخين وهتاف الحافقين من
جميع جوانب القاعة: أشعلوا الأنوار وارفعوا الستار.

ولم يزل هذا شأنهم حتى دقت الساعة المباشرة من الليل وقرب
ميعاد التمثيل فدخل جماعة من الاشراف المتأقنين يمررون أذيالهم
ويشمخون بأنوفهم، ويتأقنون لضفت الأنوار وضوءه الجماهير،
ويصبحون: الطريق الطريق، أبها الصالحيك، فتخرج الصفوف
لهم انفراداً، حتى بلغوا مكان المسرح فصعدوا عليه وجلسوا
فيه على مقاعد متفرقة في أعماله جللة باردة وقصة لا أدب فيها
ولا احتشام، وكانت المقاصير في ذلك التاريخ خاصة بالنساء لا
يجلس فيها غيرهن إلا مقصورة واحدة بجانب المسرح كان يجلس
فيها الكرديبال إذا حضر أو من يزل منزله من عظماء المملكة
ووجودها.

طاهي الشعراء

جلس في ركن من أركان القاعة في تلك الساعة شخصان مفردان

(١) القمص: حذبة مثقلة يصاد بها السمك تنبيه السادة.

أحدهما الشاعر «لينير»، وهو رجل يائس مسكين مفرم بالشراب
ومعاقرته لا تكاد تفارق يده الكأس ليله ونهاره، وثانيهما البارون
«كرستيان دي توفيت»، وهو فني من اشراف الريف، جميل
الطعمة حسن الزي والثياب. إلا أن هندامه على الطراز القديم،
حضر من «تورين» إلى باريس منذ عشرين يوماً ليتلقى بفرقة
الحرس من الجيش الفرنسي فلم يدخلها إلا صباح اليوم، فقال
الشاعر للبارون: إن صاحبك لم تحضر حتى الساعة، وما هي
مقصورتها التي أشرت لي إليها لا تزال خالية، وقد اشتد ظمئي
فأذن لي بالدخول إلى إحدى الحانات القريبة لأتناول قليلاً من
الشراب، ثم أعود إليك، فاضطرب كرسيتيان وتشتت بثوبه،
وقال له: ذلك إن ذهبت لن تعود يا لينير، وأنا في أشد الحاجة
إليك، فإني أريد أن أعرف من هي؟ وما سبب دوحته، وربما
بدا لي أن أزورها القليلة في مقصورتها وأعترف إليها، وليس
في استطاعتي أن أقدم على ذلك وحدي، فأنت تعلم أنني رجل
جندي ساذج حديث عهد بهذا البلد وأدابه ومصطلحاته،
ويجئ لي، وإن لم أكن قد سادتها أو جلست
إليها، أنها فتاة ذكية متوقدة بارعة في أساليب الحديث ومناهجه
وأخاف إن أنا لقيتها وحدي أن أضغط أمامها وأضطرب أو
أوليك في حركة من الحركات بين يديها فأسقط من عينيها سقطة
لا مقيل لي منها أبد للسر، فابقي معي وكن حوثاً لي عليها لثم
بلدك يذك حنلي.

وحنا مرت فتاة المقصف حاملة على يديها صينية يضاء،
وهي تنقش بصورتها الرقيق الشجي، فتدأها لينير فدنثت منه ضاملاً
عما عندها فظلت تسرد عليه أسماء فطائرهما وقنائلهما وأشرتها
وحلواها، وهو لا يابه لشيء من ذلك حتى ذكرت له نبيذ

و بورمو ، فتهلل وجهه وتغلب غره ، وطلب إليها أن تأتيه بالجد
 منه ، فأنت له بما أراد ، فملا كأسه وبدأ يشرب ويتغنى ، وما
 هي إلا لحظة حتى قال لكروستيان : الآن أستطيع أن أبلى معك
 قليلاً أيها الصديق الكريم .

وفي تلك اللحظة دخل القاعة رجل قصير ضخم الجثة غريب
 الهيئة في ملابس الطهارة وشمالهم فصرخ الجماهير حين رأوه :
 راجنو ! راجنو ! فلم يأبه لهم ، ولم يلتفت إليهم ، واندفع مسرعاً
 إلى لينير ، وقال له بصوت متهدج مضطرب دون أن يحيه أو
 يحى جلوسه : ألم تر صديقنا سيرانو يا لينير ؟ قال : لا ، وعالمى
 أراك مضطرباً هكذا كأنك هارب من معركة أو مأخوذ بحريمة ،
 قال : ما أحسب إلا أنه سيحدث الليلة في هذه القاعة حادث عظيم
 لا يعلم إلا الله كيف تكون عاقبته ، فانزعج لينير ، وقال : أي
 حادث تريد ؟ قال : قد علمت الساعة أن سيرانو كان وجد على
 المثل مونفلوري منذ أيام في شأن من الشؤون لا أعلمه فحكم
 عليه بأن يقطع عن التمثيل شهراً كاملاً وعده بالموت إن خالف
 أمره ، وكنت أظن أن الرجل قد أذعن لهذا الحكم ضناً بنفسه
 وبحياته ، ولكن رأيت الساعة في حجرة الممثلين يتم بقطعة تمثيلية
 وأظن أنه سيقوم بتمثيل دور الذي اعتاد أن يمثله في رواية
 «كلوريز» ، وهو دور «فيدن» فإن فعل فقد وقعت الكارثة
 العظمى التي لا حيلة لنا ولا لأحد من الناس في دفعها ، وسيرانو
 كما تعلم رجل مخاطر جريء لا يبالي بعواقب الأمور ، ولا يفكر
 في نتائجها ، فحققه لينير ضاحكاً وقال : يا له من قاص غريب
 وبأله من حكم عجيب ، هدى روعك يا صديقي ، فالأمر
 آمن مما نظن فربما لا يحضر سيرانو أو لا يمثل مونفلوري فلا يقع
 شيء من المذكور الذي نتوقعه .

فهم التفت إلى كروستيان وقال له : أقدم إليك المسير راجنو
 طامي الشعراء والممثلين ، وهو القلب الذي اختاره لنفسه وعرف
 به بين الناس جميعاً ، لأنه صديقهم المخلص الذي يحبهم ويكرمهم
 ويلود عنهم ويفتح لهم باب مطعمه على مصراعيه يأكلون منه
 ما يشتهون ، ويشربون ما يترحون لا يتقاضاهم على ذلك أجراً
 سوى قصيدة من الشعر يملونها عليه ، أو قطعة غنائية يثقلونها بين
 يديه ، أي أنه يملأ لهم ألواحهم طعاماً ، فيملأون له أذنيه كلاماً ،
 والأذن كما تعلم ليس طريقاً إلى المعدة كالقم ، وهو فوق ذلك
 شاعر متفنن مطبوع ينظم أكثر شعره في وصف ظواهره وحلواه ،
 فأنحى راجنو بين يدي كروستيان وقال : نعم يا سيدي إنني صديق
 الشعراء والممثلين بل عبدهم ومولاهم ، وصنعة فضلهم وإحسانهم
 وإن ساعة أفضيها في حضرتهم أسمع طرائف أشعارهم ، ويدافع
 فصولهم ، هي عندي ساعة الحياة التي لا أعدل بها ساعة غيرها ،
 فشكر له كروستيان فضله وأدبه وأنى غيراً على شرف عواطفه
 واكتمال مروءته ، وما هي إلا كرة الطرف حتى عاد إلى راجنو
 قلقة واضطرابه وأشد يبور بعينه في الجماهير يفتش عن سيرانو ،
 فقال له لينير : إنه لم يحضر حتى الآن ، وها هو الوقاد قد بدأ
 في إشعال المصابيح ، وها هو النار قد أوشك أن يرتفع ، وما
 أظنه حاضراً بعد ذلك .

سيرانو

وكان رجل من الأشراف اسمه المركيز دني جيبي جالساً على
 مقربة منهم يسمع حديثهم وينصت لحوارهم فوضع يده على كتف
 راجنو فالتفت راجنو إليه فقال له : أستطيع أن أخبرني من هو

سيرافو هذا الذي تتحدثون عنه ؟ فهز راجنو رأسه كالمتغرب وقال له : إني لأعجب لأمرك يا سيدي فهي أول مرة سمعت فيها إنساناً في العالم لا يعرف السيد سيرافو ! قال إني أعرف عنه شيئاً قليلاً ، وأريد أن أعلم أنيل هو أم صعلوك ؟ قال إن كنت تريد من النيل شيئاً غير الشرائط والأوسمة والذهب والفضة والحرير والديباغ فهو أنبل النبلاء وأشرفهم ؛ لأنه جندي شجاع ، جريء في موقفه ومشاهدته صادق في قوله وفعله . لا يحابي ولا يحامل . ولا يتذلل ولا يتزلف ، ولا يخضع في شأن من شؤون حياته إلا للحق الذي يعبد ويدن له ، ولو عرفته يا سيدي لعرفت أفضل الناس خلقاً وأشرفهم نفساً ، وأطيبهم قلباً وأشدهم عطفاً على البؤساء والمنكوبين . وهو فوق ذلك شاعر مجيد ، وعالم فاضل . وناقد بارع ، وأما شكله فمن أغرب الأشكال وأعجبها ؛ حتى لو أراد مصورنا العظيم « فيليب دي شاميني » أن يرسمه كما هو لعجز عن ذلك أو كاد ، فإن الناظر إليه ليعجب كل العجب لمنظر قبعة المحلاة بالريشات الثلاث ، وردائه الملون الجميل . وقبائه الواسع المسدس الأطراف الذي يرفع مؤخره بطرف سيفه . ثم بمشي به مختالاً كأنه طاووس يمر ذنبه وراءه وله أنف هائل جداً لا يراه الرائي حتى يذعر ويرتاع ويقف أمامه مدهوشاً مندهلاً . يعجب لصاحبه كيف استطاع أن يحمل في رقعة وجهه وكيف لا يلتصق السيل إلى الخلاص منه ، أما هو فراض عنه كل الرضا ، لا يشعر بثقله ، ولا يفكر في الخلاص منه بحال من الأحوال ، والويل كل الويل لمن يرفع نظره إليه أو تختلج شفتاه بابتسامة العجب منه أو السخرية به ، فإن رأسه يطير بضربة واحدة من حد سيفه ، فقال له المركيز : كيفما كان الأمر فلإني أستطيع أن أقول لك ، وأنا على ثقة مما أقوم ، إنه أعجز من أن يمنع مونفلوري

عن التمثيل بل هو لا يحضر الحفلة الليلة فراراً من وعيده الكاذب ، فقال راجنو : وأنا أراهن على حضوره بدجاجة مشوية من مطعم « راجنو » الشهير ، ولا أرزوك دانقاً واحداً إن أنا ربحت الرهان ! ثم أدار ظهره إليه وجلس يتحدث إلى لينير وكريستيان .

وإنه لكذلك إذ لمح رجلاً مقبلاً على البعد فقال لصاحبه : ها هو المسيو « لبريه » صديق المسيو سيرافو الحليم ، فأذنا لي بالذهاب إليه علي أستطيع أن أعلم من شأنه شيئاً ، ثم تركهما وذهب إليه فرآه يقلب نظره في الجماهير ويلتفت بئمة ويسرة فقال له : لعلك تفتش عن سيرافو أيها الصديق ؟ قال : نعم وإني قلق من أجله جداً ، قال قد فتشت عنه قبلك فلم أجده ، ثم انتحى به ناحية من القاعة وجلسا معاً يتحدثان .

روكسان

وهنا ظهرت روكسان في مقصورتها فضج الجمهور حين رآها ضجيج السرور والابتهاج وصاح أحد الأشراف الجالسين على المسرح : آه يا إلهي ، إن جمالها فوق ما يتصور العقل البشري ، وقال آخر : إنها زهرة تبسم في أشعة الشمس ؛ وقال آخر : إنها روضة يانعة يحمل النسيم رباها العطر إلى القلوب فينعشها ، وكان كريستيان مشغولاً بأداء ثمن الشراب الذي شربه لينير فلم يتبه إليها ، ثم التفت فرآها فارتعد واصفر وجهه وأخذ بيد لينير وقال له : ها هي ذي فقل لي من هي ! إني خائف جداً يا صديقي فضح يدك على قلبي فما أحسب إلا أنه يحاول الفرار من مكانه رهبة وجزعاً ، حدثني عنها واذكر لي كل ما تعلم من أمرها وارفق

في حديثك ، حتى لا تقضي على الأمل الوحيد الباقي لي من حياتي ، فتهفه ليغير صاحبك وقال له : يبع يبع لك يا كرميان ، لقد أحسست الاحتياج بمسك كل الإنسان وما أحيت إلا أجل فتاة في قبر ، فإن كان صحيحاً ما تقوى من أنها تمسك من ودها مثل ما تمسكها ، وأب تنظر إليك بمثل العين التي تنظر بها إليها فأنت أحسن الناس حظاً وأصدقهم طالعاً ، وب السيدة مادلين دي روبان الشهيرة بروكسان ، وهي فتاة عذراء يتيم لا أهل لها ولا أقرباء سوى ابن عمها سيريو دي برجرانك الذي كانوا يتحدثون عنه الآن . وهي على فرط جمالها وكثرة محاسنها عبيقة طاهرة الدليل عاقلة ورصة تجلس إلى أدبيات الرجال وتحادثهم وتفتش منصروانهم وأفكارهم ، وتختص معهم في كل شأن من شؤون الحياة حتى شأن الحب ولكنها لا تأذن لأحد أن يجيها أو يمسك قلبها ، فإن حاول ذلك منهم محاولة دفعت به برقة ورفق وحكمة فسلم لها شرفها وكرامتها ، ولا عيب فيها إلا أنها من فريق الأدبيات المتحدلات القوي أمه لأبناء المتحدلقون أدولفوس الأدبية ضدب التكلف والتعمل في أحاديثهم وحوارهم فلا ينطق بكلمة صريحة حالية من التشبيه والمجازة والإشارات والكلمات ، ولا يوجهون المعاني التي يردون الانقضاء بها إلى السامعين مواجهة بل يبدون حورفاً دورات كثيرة حتى يصل إليها ، فإذا أراد أن يقبل في أحاديثهم العادية أشرقت الشمس قبل أن تشرق الفزاة ، أو أقبل الليل قبل أن يهجم جيش الظلام ، أو طلعت النجوم قبل أن تجلج عروس الريح لي علائدها الندية ، أو هو ذا الكرسي فاجلس عنه قبل أن هو الكرسي تمتع فدعاه لاستيائك فتعصل بإلقاء بصوت بين أحصانه ، أي أبس لا يبعجهن من الألفاظ إلا المتكلف المنسوع ولا من المعاني إلا لمطلوب المختصر ولا من الشعراء والكثبات

إلا المتكثفون المتشققون في أماليهم وتصوراتهم ، وهي سيملة في جيشها منقطة عجاتها لا ينقص عليها صمود غير هذا الرجل لطيفي المتوحش الذي نراه واقعاً بجانبه الآن ، فالتفت كرميان فرأى رجلاً رقيقاً متأنقاً حسن الزي والمندام متشعباً يوشاح حريري أزرق مطلقاً سبجاً عسكرياً مرمصاً قد أسند ذراعه إلى ظهر كرميسا كأنه يحبسها وظل يحادثها بصوت محض كأنه يسارها ويناجيها فقال له وهو يرتجف خيطاً وحققاً من هذا الرجل ؟ وكان ليبيير قد قتل وبدأ يتنم ويتلطم بضمة الغافلة (١)

إنه الكونت دي جيش أسد قواد الجيش الفرنسي وصهر الكردينال دي ريشيليه وزير فرنسا العظيم وقد أحب بروكسان وأعظم بها غراماً شديداً ولما رأى أن لا سبيل له إليها من طريق المخالطة (٢) لأب شريفة مرمضة ، ولا من طريق الزواج لأنه متزوج بائنة أنعت الكردينال أراد أن يزوجها من رجل ساقط من أسياسه لا تحبه ولا تأبه (٣) له اسمه الفيكوت ، فالتفت طمعا في أن ينال منها من طريقه ما لم ينل من طريق آخر فهاها الأمر وتعاظمها وأب أن تدع لزياره أو تدل على حكمه ، ولكنه لا يزال يلع عليها ويمساقها وهي تدافعه عنها بطلب وأدب وحذر واحتياط ، وأخاف أن استمرت هذه الحال أن ينتهي بها الأمر إلى المصروع والإدعاء ، لأن الرجل لوي جريه مدلل بمكانه من قيادة الجيش ومحبوته عند الكردينال وبس في أعناء الملكية كلها حبسها من يجرؤ على التصكبر في مشادته أو لخلاف عليه ، ولقد أثرت هذه الحادثة في صفي تأثيراً شديداً وأسفقت على تلك الفتاة المسكينة

(١) دائماً أكثره في كلامه وظل يرمضها فهو لذلك

(٢) المخالطة : المساحة ، من أخلة بالكرسي هي المساحة .

(٣) أي بالقي ، احتفل به

أن يستبد بها وتستقيدها رجل جائز موحش كهذه الرجل مظلمت
قصيدة ردة شرحت فيها قصته معها وهجوته فيها هجده مرأ
لا أحب أنه يصرفه لي متى الدهر ، وإن شئت أن تسمح هذه
القصيدة فيها كها ، وكان الشراب قد داس منه أقصى مائة مهن
قائماً على قدميه وأحد يصرب إلى الكؤوف نظره هائلة عجيبة ورمع
الكأس بيده وحاول أن يتحى بقبعه فأسكته كرسيتون وفان له
لا تعمل فإني ذهب ، قال : أي ؟ قال : أسس عن صغير ،
قال : ماد تريد منه ؟ قال : أغتله ، قال : أي أحب عيشك منه
لأنه أغرى منك ورعى فضلك ، قال : لا أمالي لحوب في سبيلها ،
قال : نظر ها هي دي نظرك عليك ويحذق فيك عديداً شديداً
فلا يشعشك شغل عها ، أما أن فوي ذهب ثلثي يوم أسعدتني
ينظروني في محاب ولا خير لي في الكأس من دوسم فادن في
بيدهاب ، فادن به وعسرف ومن هو شاعراً في مصورة
روكباب يادها نظرت أحب والشفع ، وبعضها إليها من صديق
الصمت والسكوت في عمر عن الإقصاء به من طرس الكلام ،
وكان الكؤوف دي حشش قد برس من مصورة ، ومضى في لسانه
يحث إلى جميع عظيم من حاشيته وأصدقائه يستلونه ويخدونه ،
وحساده ومنافسه من بلاء القوم وأشرفهم بعمرو عه بيم
بهم ويومونه بنظرات الخقد واحرد ويسمونه الباس خرد
مرة والجاسكري الكذاب أخرى ، حتى إذا مر بين أسهم فخر
به عديداً ، خللاً وهو من سنده ودرواه به نعره ، ويسمونه
حتى تلح مكن لسرح قصيد به هو ، أسعه وحلس على كرسية
امعنه به ثم نصب حوله وفان " أن اليكوب بعد ، فحانه
هذه ساسدي فاد تعاد محبي لأحدثك فسلأ ، وكان كرسيتان
وهو مكانه يحتر إلى عن الممد نظره الحقد والمحنة ، هما

سمع اسم الفأخير حتى فاز ثأثره وعلى دمه في رأسه ، وعلم أنه
قد وجد خصمه ، فوثب من مكانه وثمة عظمى وصاح ما قد
عرفته وسأطلمه بقفازي على وجهه لطمة هائلة ، وصبح يده في
حبه ليحرج ففازه منه فدهش حين عثرت يده فيه بيد أخرى
لهزية ففصر عليها بشدة والتفت وراعه فإذا لص قبيح المنظر
وروي اهتة يحاول سرقة ، فصاح فيه : من أنت وماذا تريد ؟
فخصمهم الرجل واستحذى واستطير عقله خوفاً ورعباً ، ثم ما
لبث أن عاد إلى دمه واستجمع قواه وقال له عفواً يا سيدي
فلاني ما أردت سرقتك ، وإنما هو تخويف بسيط فقد تفتت الساعة
أول درس من دروس التوصية على أستاذي ، بوار ، وقد
يشي لبث كما يث غيري إلى غيرك لا تسرقكم أو عوون بكم
وبين أموالكم بل لستوتن من أعضا أنا قد حذف دروسا
واستظهرها فاعف عني واختر لي هذه الزنة واعلم أن في صدوي
مرأ هائلة جداً يتبعك دعماً عظيماً أن أفضي به إليك ، وهو خير
لك مني ألف مرة ، فصاحت كرسيتون طويلاً وقال أي سر
تريد ؟ قال : إن صدقتك الذي كان جالساً معك منذ هبة وقد
سبت اسمه الآن هو في الساعة الأخيرة من ساعات حياته إن لم
تسرع إلى نجسته ، قال أنريد ليبيير ؟ قال : نعم ، فدهش
كرسيتون وقال لم أفهم ما تريد ، قال إنه كان قد هجا منذ أيام
عظيماً من عظماء هذا البلد بقصيدة مقددة (١) فحقد عليه
حقداً شديداً ورأى أن يستع لمنه منه فأعاد له مائة رجل يكسبون
له لسه في جميع الصلح عند باب " نيل " في طريقه إلى منزله
ليقتلوه وأن أحد أولئك الرجال ، فاجرح الأكد وأطلبه في القنات
التي يجلس فيها وهي المصعد الذهبي والتماسحه الخشبية واخرم

المزق والمشاغل والأفهام الثلاثة ، وأترك له بطاقة في كل واحدة منها لتنتدبه هذا الخطر الناعم ، قال - ومن هو ذلك العظيم الذي دبر له هذه المكيدة ؟ قال - ذلك سر المهنة لا أستطيع أن أشرح به ، فضحك كرسيان وقال - لا حاجة بي إليك فقد عرفته ، ثم نخل سيله مذهب لثأته ، وانصرفت هو إلى مقصورة روكسان فرأها ملتصقة إليه لا تكاد ترفع نظرها عنه ، فألقى عليها نظرة حزينة وقال في نفسه : والأسماء لا بد لي أن أتركها الآن ، ثم ألقى حل القيكونت نظرة ملتصقة وقال - وأن أتركها أيضاً ، لأنني أريد إنقاذ ليبيز ، ثم ترك اللعب وانصرف ليعتشل عن صديقه في تلك اللحظات الخمس .

البطل

بدأ الموسيقيون يؤتمرون على الآتهم بضائهم الرقيقة الشعبية وسكنت الجماهير تنتظر رفع الستار ، همس لوريه في أذن راجو : ترى هل يظهر مغلوري على المسرح الآن ؟ قال - نعم ما من ذلك بدا ، لأنه صاحب النور الأول في الرواية ، ولأنه قد علم أن سيرانو لا يحضر بعد الآن ، وأظن أنني قد غسرت الزهال ، قال فليكن فقد كنت أتوقع من حضوره شراً عظيماً

وهنا دق الحرس ثلاث دقائق ثم ارتفع الستار فظهر مغلوري على المسرح لابساً ملابس راج وعلى رأسه قبعة حمراء بالورود مائلة إلى أدنه وفي يده أرجول طويل يمسح فيه ، فصعق له الجمهور تصفيقاً كثيراً مشكرهم بإعادة رأسه ، ثم أنشأ يمثل دور صيدني ويفضي هذه القطعة هيباً للذين يتعلمون عن قصور الملوك جهنهم ،

بل يتعلموا العالم بأسره ويعبرون منه إلى مكان ناه في منقطع المسرح لا يرون فيه غير وجه الطيبة الحميل ، وهنا رن صوت عظيم في جدران القاعة يقول : « ألم أحرم عليك التمثيل شهراً كاملاً » يا مغلوري ، فدهش الجمهور وحشد مغلوري في مكانه وانصرفت الناس بجمعة ويسره يعشرون من صاحب الصوت أين مكانه ، ووقفت النساء في المقاصير يظنون مد حري ، وهمس راجو في أذن لوريه مد رحمت الزهال ، صديقي فيها هو سيرانو قد حصر ، فقال لوريه لئنه م - صر وبتك غسرت كل شيء ، وما هي إلا لحظة حتى ظهر سيرانو تحضى الرقب ويدفع لمقدم بين يديه دهنًا ويرجرج رجمه رعد حتى وصل إلى كرسي أمام المسرح فاعتلاه وهر عصاه الطويلة في وجه الممثل وقب له ، ترك المسرح حالاً يا أحف مستبين ، وإلا فأنت أعلم بما يكون ، فسطح الجمهور من الناس مسطحاً شديداً وصحو من كل ناحية مثل يا مغلوري مثل ولا تحف فتشجع مغلوري وعاد إلى التني فقطعت هيباً للذين يتعلمون عن قصور الملوك ، جهنهم بل يتعلموا العالم بأسره ، فضامه سيرانو وصاح وهو يرأر راجر أليث كأنك تأتي أبها الذي ، لأخفق إلا أن أحصل صهرك مرعة لمصاي هذه فارك المسرح حالاً فقد أوشكت أن أعصب . فاحتدم الجمهور عيظاً وأحدو يصيحون صه أبها الجون مثل يا مغلوري إنه قصور عرسه ، هيب سماحة ناددة ، فعاد إلى الممثل هبوطه وسكوبه - وعاد إلى التني فقطعت هيباً للذين ، فما نطق بأول حرف منها حتى وثب سيرانو من كرسه الذي كان واقفاً عليه إلى أقرب كرسي إلى المسرح وهر عصاه في وجهه وصاح لا تحض أب الدب الممثل ولا نطق بحرف واحد . فإن فعلت صرنتك لمصاي هذه على وجهك صرنة لا تعرف من بعده أي مكان

أعنت منك ! قد أمرتك وليس في العلم قوة تستطيع أن تعمر
أمرى ، فعاش عقل مصوري وتخلج سانه واتت إلى الأشراف
الخالسين على المسرح من حوله وقال : النحلة ما مدني ، فطر
أحدهم إلى سيرانو نظرة عظيمة وكبرياء وقال له كهي هديان
أيها الصوفي الزنبر فقد أزعجت مصوصاتك وكثرت صنوما ،
والثمت آخر إلى مدلل وقال له مثل يا رجل ولا تفعل شيء
فأذ أحبيث ، وقال آخر لقد تجاوز أحد هذا الوقع حتى كاد
يعرج صرنا ، فأنه إليهم سيرانو وأشأ يحاطهم ويقول يحك
على حصرات السادة الأشراف أن يلزموا أمانكم ويحفظوا على
حديثهم ، فلي أشعر أن عصاي تنهل خوفاً إلى التهام شراقتهم
وأوسمتهم ! فانضم الأشراف خيطاً وتاجهوا قدام وهاج
المجهر هباحاً شديداً وأحاط جميع عظيم منهم بكرسي سيرانو
وأخذوا يصيحون في وجهه ويوبلون ويقلدون أصوات الخيون
كالديك والخر والكلب والحمار ، فاستدار حوهم سيرانو وألقى
عليهم نظره هلله بمعة ذر جمع قليلاً إلا أنهم ظلوا مستمرين
في هياجهم وصوصاتهم وأخذوا يصوب بصوت واحد أنشودة
هزلة يقولون فيها : برعمك يا سيرانو سسل رواية كنوز ،
برعمك يا سيرانو ميتل مصوري ، كرو يا مراراً ، فاستدار
إليهم ثانية ورجرج في وجوههم وصرخ فيهم صرخة هائلة وقال :
ألا تستطيعون أن الهلة الأوغاد أن تتركوا سعي هذا في عمده
ساعة واحدة ؟ لا أحب أن أسعكم عدد لانشوده مرة أخرى
ولا حفظكم جميعاً ، فعد به أحدكم . ثم لست نتمشون
أخبار أي صرب حمماً عظيماً من سعيك كعب فضهم ،
فانتم إليهم وقال : أستطيع أن أكون مثله . ثم أعزوني فكنت
هـ هـ ثم التفت في مصوري مرة لا ير ، أنما مكانه هـ

يا العجب ، إنه لم يمد أمرى حتى الآن به بأى إلا أن جعل هذا
المسرح رائدة أشرح عليها لحمه تشريحاً ، فعد مصوري إلى استعداده
واستراحه وضل يقول النحلة النحلة ، الموت الموت ، فإزداد
غضب الجمهور وهياجهم وأحاطوا بكرسي سيرانو من كل ناحية
وأحاطوا يهدونه ويندونه بالويل والثبور ، وعادوا إلى الترم
بأنشودتهم الأولى وقصيد أصوات الحيوان ، فاستدار إليهم فجاءه
ثم وثب من كرسيه إلى الأرض وتقدم نحوهم بمعدة ففقهروا
بين يديه حتى اتحت الدائرة من حوله اتساعاً عظيماً فصاح بهم
إني أترككم جميعاً أن تكموا ، لا يطلق أحد منكم عروفاً واحداً
بعد الآن ، إني أعرف صور وجوهكم جميعاً فليس لي
استطاعة واحد منكم أن يفت من يدي ، من ذا الذي يريد أن
يكون أول مطلق ليكون أول فتن ؟ ثم مرهم يشمخ وجوههم
واحداً واحداً ويقول من ذا الذي يريد ؟ أنت أيها الفتي ؟ أم
أنت أيها الكهل ؟ أم أنت أيها الشيخ الهرم ؟ من منكم يجب أن
يكون اسمه أول اسم في حريدة الأموات ؟ أم يجبي أحد عروفاً
واحداً ؟ ما سكرتكم ؟ أجسم ؟ فأنكم تغربون من وجهي ؟ فقلوا
أصوات الحيوان ، عود الأنشودة باردة ! أرى صمناً عبقاً
وسكوناً سائداً لا حركة ولا إشارة ، أظهم قد ماتوا من شدة
الحوف الآن أستطيع أن أستر في عملي ، ثم نعه إلى المسرح وأشأ
يقول بصوت حش أجش أيها الأشراف ، أيها العوغاء ، أيها
الرجال ، أيتها النساء ، لا أريد أن أرى على جسم هذا المسرح
هذا القمل القذر الخبيث فإن لم يفرج من نفسه فجزته بهذا المصع
للقاتل ولا أحب أن يعترض أحد منكم يذقني أو أعنت الثريه
بدب المجرم والحد بدب الحد ، ثم وضع يده على مقدس سيمه
وقد استحالته صورته إلى صورة وحش هائل كثر عن أنيانه

لصنك بكل ما يبدو منه ، فسكن الجمهور سكناً عبقاً لا تأمة
فيه ولا حركة ، فصر صغوري بصوت حاد متقطع ، بك يهتفك
إني يا سيدي قد أمت الإله ، وبك لا شأن لك بملك
الإله أيا الأحق بالموت ، لأب منه التمثيل لا يلفه السحابت
ولو بها شهدت موثقت هذا ، واث تثل هذا الجسم الصمم
العيط وهذه الحركات الباردة الثبيلة لتناوت من عصي هذه
وصرتك يا على أحقر عمرو في حسنت وهذا أنا د أصغر ثلاث
مرات ، وبعد التصيفة الثالثة لا بد أن تتلائم من المسرح يا
رأس الثور ، أسمع ؟ فحاول ، فمحموري أن يكلم لفصق سيرنو
التصيفة الأولى فصار قلب الممثل قرناً ورعياً ، وظل يقلب بصره
في الحضور فلم يجد بينهم معباً ولا ناصر ، فأبشأ بفول بصوت
موتعد : سادتي سادتي . . أيرضيكم أن أمان في حضرتكم وأن
بد الص على مرأى منكم ومسح ؟ فصفت سيرنو التصيفة الثانية ،
فشدد منتهم المدهير وتناولت أحدهم وتناولوا من أبيض
والصعب إلى الاهتمام معرفة النتيجة وأحد بعضهم بهمس في أذن
بعض بأمثال هذه الكلمات سيبي ، سيجرح ، سيقاوم ،
لا يستطيع البقاء ، لا يبيق به الفرد ، فحاول متغوري أن يقول
شيئاً آخر ولكنه سمع التصيفة الثالثة فاحتل من المسرح كأنما
قد غاص في موهبي عميق .

فهذه الجمهور سيرانو هناك عظيماً إلا بضعة أفراد فلائيل ،
لا بل أحد الكثير منهم يسك الممثل ويشتمه ويسحر منه ، وحلس
سيرانو على كترية حسة القاذر المتصر ، فتقدم نحوه فبق من
متعرجين وفان به أذنان في ي سيدي أن أسألت ، هو السب
في بعض صغوري ، فصفت سيرنو عظة ثم ألقى عليه نظرة
بأسه هادئة وقال له عدي ذلك سيان أولهما قريح تمثيلة ورددة

حركاته وأنه يعي الشعر بعد الزهيق بصوت مأجود محتو عبيده
على صاحبه وسمعته على الناس . وأما السب الثاني فهو سري
الخاص الذي لا يمكن أن أروح به لأحد ، فتقدم نحوه فبق آخر
وقال له ولكنك حرم على كل حال مشاهدة روه ، كنورير ،
وما كنت بوتر دنت ولا رعه . قال ألس أي لم أحرمك شيئاً
نفساً أما الفى فلو نظم ، برو ، كنزه كلاهما بارد عث لا
سوي شيئاً وبذلك قد تكيفكم وكبت نفسي مؤزبه سماع رواته
السحيفة غير آسب عليها ، فصاحت لفظاً في الخواصير : من ذا
الذي سب شاعراً بارو ؟ أيستطيع أحد أن يجرؤ على ذلك ؟
وتكبت فتبأ أحريات مثل كلامها فرفع سيرنو بصره إلى لفظاير
وأبشأ بحاطين ، بوق لكن يا سيدي أن تكسر جميلات والعات
كم تشاء ، ولكن أن تحتل الألبات ونستلن القفون عسكن
وونكن . ولكن أن تينس الاتسمات اللامعة البديعة التي تصيه
بورها ضمام هذه حياة ، ولكن أن تبش السعادة والغظة
والسرور والبهجة في نفوس الناس جميعاً فيجوز بفصلكن في
هذا العالم حياة مسخرة والحناء ، ولكن أن توحى روح الشعر في
الشعراء ، وتغيبها عليهم بسحركن وفنتكن فيستطيعون أن يظفروا
بأجمنهم في أجوء السموت العلاء وبشرفوا منها على الدنيا ومن
عيا شمساً وأقماراً كن كل هذا ، ولكن ليس لكن أن تجلس
في محكمة الشعر لتحكمن في قضية الشما

وكان ضرور ، صاحب إحان وقها على معرفة منه ففان به
وما وأبك يا سيدي في لسان الذي حترته المائلة بسيلك ؟ قال
هذه هي الكلمة الوحيدة المفقولة التي سمعتها لك في هذا المكان ،
ثم صر يده في جيبه وأخرج منه كياً مخلوفاً عصه ورمى به إليه ،
فتهلل بلرور فرحاً وانتهجاً وقال له مثل هذا الشئ أدن لك

يا سيدي وبصور كل منه وتعتيل ما شاء من الروايات . ثم
نعت إلى المتعرجين . وقال لهم قد انتهى التمثيل ما سادني فهايت
جمعنا إلى الباب فاستردوا تفوقكم .

الآلهيات

وهو تميم رجل ردي أهية قدر مظهر تلوح على وجهه سمات
جهانه والصحة ثروحة بانوقحه والسمحة وقال له بصوب حش
أجش لا نصف موهك هذا يا سيدي . ولا يجرؤ على مثل ما
جرؤت عليه إلا أحد رجلين : إما عظيم أو صيحة رجل عظيم .
فهل نك أن تخبرني من هو مولك الذي أنت حسنة ؟ صعب
سيرانو لأمره وظل يردد نظره فيه ساعة . ثم قال له : ما أنا بصيحة
أحد أيها الرجل . قد أليس لك سيد يحميك ويرعاك ؟ قال : لا ،
قال : ألا تلجأ في سعاد شدة تلك وحركك إلى سبل من يلا هذا البلد
أو أمير من أمرته يسر عندك ستر حمايته ؟ قال : قلت لك ولا ،
مرتين فهل مري حسناً لارماً أن أكون بك مائة مرة لصاحبها ؟
ثم وضع يده على مخص سيفه وقال : ليس في حمام ولا سيد غير
هذا . عدل . إذن لا تطلع عليك شمس المد حتى تكون قد شددت
رحمتك وتزودت رادك وعادرت يدي إلى بلد ناء لا رحمة
لك من أيد الدهر ، فسر . لماذا ؟ قال : لأن موهطوري الذي
أهته الينة صبيحه رجل عظيم هو . الذي دي كمال .
ودرع هذا الرجل طويفة جداً تتناول أمد الأشياء ولو كانت في
قرن الشمس . قال : ولكنه ليس أطول من دراعي حين أصلها
بسيهي . قال : إنك لا تستطيع أن ترع في عسك أنك . خاططه
سيرو وصاح : أستطيع أن أزعم كل شيء . أيها الفصولي الثرثار
فاعرب من وحيي وأعدت لثمتك طريق لخلاص مي ، فقل

للرجل جامداً مكانه علق فيه تحديداً شديداً لا ينظر ولا يحرك .
فاصغر سيرو عبطاً وانقص عنه وأخذ يتلأه وهب له حرج
من هنا حالاً أو حدثي مالي أراك تنصر إلى نهي هذه العظرة لمربة ؟
فصنق الرجل في مكانه وحمل يرتعد بين يديه ، وكان يعلم كم
يعلم الناس جميعاً أن سيرو لا يعصب شيء من الأشياء عصبه
لأنه ولا يتقم لشيء ابتاعه له وقال : أن يا سيدي ؟ قال : نعم
أنف هذا الذي تراه عرباً فيه ؟ قال : إنك وهم يا سيدي فإني
أقسم لك ما فكرت قط في شيء مما تقول . قال : أتره رخواً
متهدلاً كحطوط العين ؟ قال : لا يا سيدي . قال : أو عهودياً
كسفار اليوم ؟ قال : لا يا سيدي . قال : أو يحبل وليث أن أركنه
دمل كبير برعجك مظهر ؟ قال : أبدأ يا سيدي . ما فكرت في
ذلك قط . قال : أو يترامى نك أن الدياب بحثي مرتقياً فوق تصديسه ؟
قال : لا يا سيدي لم يحطر بهائي شيء من ذلك وأقسم لك ، قال :
أتره أعجوبة من أعاجيب الدهر أو علنة من فلتات الطبيعة ؟ قال :
لا يا سيدي لا هذا ولا ذلك ، قال : أترى لونه مضرباً بالنظر أو
وصفه خارجاً عن أحد أو شكله مخالفاً للأدب العامة ؟ قال :
آه يا الهي ، نبي لم أسمع لمشي بالنظر إليه مطلقاً ، قال : ولم
لا تسمح لنفسك بالنظر إليه ؟ . انشمز منه ؟ قال : أبدأ يا سيدي
سيدي وأقسم لك . !! قال : أهو في نظرك كبير جداً إلى هذا
الحد ؟ قال : لا بل صغير جداً لا أكاد أشعر به ، قال : أثير ؟
في أيها الرجل ؟ قال : عموماً يا سيدي فإني لا أدري ما أقول ،
قال : وهل تقش أيها النبي الأحمق أن الأنف الصغير مصفرة
من المفاخر التي يعتز بها صاحبها ؟ نعم إن أنفي كبير جداً لا
يكره أنف في هذا البلد ، وذلك ما أصغر به كل الفخر ، لأن
الأنف الكبير عنوان الكرم والشرف والشجاعة والشمس ، وأنا

ذلك الذي اجتمعت به هذه الصفات جميعها ، وفي الوجه الكروي
الأمس المجرد من هذا نمود الشريف كوجهك هذا بلا يسحق
غير اللطم ، ولطمه على وجهه لطمه هائلة ، ثم وكزه برجحه همر
الجل هرباً من يديه ، وهو يصيح البجدة البجدة بعدد سيره
لأن مكانه وحسن على كرسية مفرحاً وظل يقول هذا إنذار مني
لجميع القصوليين الثرثري الذين يماثلون أن يروا هذا الموضع
الثاني في وجهي أن لا يفعلوا ، فإن حدثهم فوسمهم بشيء من
ذلك سواء أكانوا من القواعد أم من البلاء فليعلموا أنني لا أسحق
لهم بالفرار من يدي كما سمعت هذا الحبيب الرهيد قبل أن
أغرس ذهاب سيدي في سويداء قلوبهم .

فانتفض الأشراف غيظاً وثاروا من أماكنهم ، وقال الكونت
دي جيش بخيل وفي أن الرجل قد بدأ يضايقنا ، ثم عدو من
المسرح تبعه حاشيته حتى دنا من سيرانو والتفت إلى أصحابه
وقال لهم ألا يوجد بينكم من يصبح لفردة هذا الرجل ؟ فقال
الكونت فافهم أن صاحبه يا سيدي فانتظر قليلاً فلاني سأقول
إليه شيئاً لا قبل له بالخدمة منه ، ثم تقدم نحو سيرانو ، وهو
جالس على كرسية جنة العظمة والكبرياء وظل يرد النظر في وجهه
طويلاً ، ثم قال له إن أنك أيها الرجل قبيح جداً ، فرفع سيرانو
نظره إليه بهوء وسكون ، ثم هفقه هفقه صويبه وقال : ثم ماذا ؟
قال لا شيء سوى أن أقول لك مرة أخرى إن أنك أصوبة
من أعجب الزمان ، فهذه سيرانو عن كرسية متناقلاً وتقدم
نحو خطوة وألقى عليه نظرة من تلكم النظرات المائلة التي اعتاد
أن يصير بها خصومه حين يلتقيها عليهم وقال له : ثم ماذا ؟
فاضطرب التيكوت وشعر بديت خوف في قلبه وقال لا
في . قال أهلاً هو السهم القاتل الذي أردت أن ترمي به .

لقد كنت أظن أنك أدركي من ذلك ، فارداد اضطراب التيكوت
وقال : وهذا يريد ؟ قال أريد أن أقول لك يد مجاب القول
في لأتاف ذو سعة ، وبوتاب عليك ذرة واحدة من القطن والدكاء
أو أن لك بعض العلم بسبب خصاب ومهارة لاستصت أن
عوب في في حد موضوع شئ كثير ، كأل نمود في مثلاً بهجة
والصفتين ، بوك : في أي الرجل أنف مثل أنت هذا لأحب
نصبي والعالم من بصرية واحدة من حد سيدي ، ويلهجة ، المستصين " .
هذا هو صعب يا سيدي لأنك دائماً حصة به لوني زه سر
معت من كأنت التي بشرت منها وبأسوب ، الوصيف ،
يا أرى أنك إلا مسخرة مدته ، أو مضمه مسرفة أو روش
مطلأ أو رأساً دناً ، أو بساً ممد ، وبعده ، المستصين ،
يا هذا الشيء الذي في وجهك يا سيدي أحمره مستطيه أم
دواء للكنة ، أم صبيو بلأموس ، أم عنه للمعارض ؟ وبعده
، الدجيب ، أبلغ بك غرامت بالبطور يا سيدي أن تبني هذا
وجهك برحاً خاصاً بها لتقع عليه كلما غطت شوقاً من أشوقها ،
وبأسوب ، المدهج ، شيئاً بك يا سيدي هذا لعصر الفهم
الذي بينه لتصت عن هذه الزبوة البدعة ، ويلهجة الشعرية
أنفك الفيثارة التي توقع عليها به الشعر أنعمها بشجيه " وبروح
السدج في أي ساعة نصح أوب هذا هيك يا سيدي حارس ؟
وبأسوبه الزيف ، يا هذا يا سيدي أنف صخيم ، أم لفنة كبيرة
أم شذمة صيرة ؟ وباللهجة العسكرية ، صوب هذا المفتح نحو
فرقة القربان أيها الخدي ودلله لانه أريد أن نصنع أنفك
هذا في واليدصيص ، به يكون دلاً شئ البقرة الكبرى ، ودلله
التجنية " هذا هو لأنف يدي أنف غصيد وحه صاحبه هذا ؟
عظيماً به له من مجرم أنتم ومعد ربح

وعملك أن تكون في مسجراً ، ألا يخاف أنها الرحل
وأنت تمت حدثاً لمعت من هذه السحرة الصالحة أن يصح
الناس حين يرونك . لطريق الخريف ، وحادياً : لقد أحل
هذا التوفه البار في وجهك يا سيدي ترون جيسك فاحرم
من السعد ، و«مناً» ألا يحمل بك يا سيدي أن تصح
لأنت هذا مظهر خاصة به حتى لا يتغير بوه من تأثير حرارة
الشمس ؟ و«متحدلاً» إن الخيول الصمغ الذي ساء الغلاف
أرستوقا وتتلخر تصبوا حموسه ' هو الحيوان الوحيد
الذي يمكنه أن يحمل كفيه من اللحم تورد الكمية التي تحمها
في وجهك . و«مارحاً» ما أحسنه مشجراً لتتبع الخيول
والطباشير . و«مناً» بس في استطاعه أي ربيع مهمل أشد
هبوب أن تجلب لأنت الزكام عبر ربيع السموم و«تهكماً»
ما أحسنه علاناً لو وضع على وجهه حبوب من حوايت الروائح
المطرية 1 و«منصجماً» ما البحر الأحمر إلا الدم الذي قصد
من أمك ذلك ما كان يجب أن يهوله لو كان في رأيت مرة
واحدة من القطة والدكاء ، هل أنك لو استطعت لحاد يمت
وبس ذلك الحرف وربع ، لأنك تعلم أنني إن سمحت لمسي
بالحرية من نفسي شيئاً فإني لا أسمح لأحد بالسحره مني
مطلقاً . فلقد جئت في بحث بين العادة والمهل ، والمحل
والخير . حتى لا أحب أنك لا أحس معاء كلمة في الله خير
كلمة الصفاء ، ولا عمل في رأسك سوى عبر معاهها ، حتى
الكونت دي جيش عبطاً وقد لفكوت من رأبي أن تترك
هذا المحبوب وشأنه فإن محتجون لليلة برحل لا بد أن يكون قد

(1) جيران عبادي صمغ ، والكلمة مسخرة من بيت : حريت ، حين . حل .
لقد جهم هذه الألوام من الحيوان .

أنت تسعه من يد حازم فذو صبا جدار الفكوت ين
التي يصفي وتأتي أن تفسر أشد هذه الكليات المصنوعة كبراً
وعظمة من حنجر مفعول لا حنك من صناع الدنيا شيئاً
حتى قد . في يده ولا يحمل على ثوبه أي علامة من علامات
الشرف : فارتعش سحرانو عيطاً ولكنه لم يلد واستسك وأنشأ
يقول بصوت هادي رزير

بما أنف لك ر سدي دي رجل فخر مفعول لا ملك
من صناع الدنيا شيئاً ودي لا تحمل على صدرتي أي هبة من يد
حدا لي تسوها شارب الشرف ، ولكن تدب في أن أنس
لك كلمة واحدة ثم أنت وشأنك بعد ذلك .

دي لا أحمل يا سيدي بصور والوسوم والألوان .
ولا يعني حمار المصنوع وحسبها ولا برقة الثياب وعندها .
وحسب من الحساب أنني رجل شرف مستقيم ولا أكذب ، ولا
أنكر . ولا أدهن ولا ألق وأل مسي بعبه بيضاء غير مموثة
مذرب الرمال والفساد . فليس فاني الوجه لحمل والثوب
المصنوع والوسم اللامع والوشح المصنع ، فهم يعني شرف
أنت ولا عزة نفس ولا يده الصمغ ولا سقاء الصمغ

إن أعبه العلية يا سيدي لا أعزح من بيت بريدي ودي الصنير
مملوء بالشرف والفضة ، صناع من وسام بدلاً بوه فمصر
الخجرون ما شامو من فصتهم وذوهم وألقاهم ومناصبهم
ما من محسني من الصخر أنني «منصنع» أنشي من الدس رأس
عبد . وحيه مرفعه . وليس مظهره . وثوب نصي أبيص .
لم يعلق به ذرة من عار . ولم ثوبه شئ من ثوب العدالة ، الدعاة ،
لا أهدب شيئاً . ولا أعطي شيء . ولا أحقق من شيء

نعم إنني لا أملك قماراً في يدي كما تقول ، ولكن أتدري ما السب في ذلك ؟ السب فيه أنني قطعت جميع قدراتي على وجوه السقاء والفصوليين الذين يتصرفون طرفي مثل عقالاً على وقاحتهم وقصورهم ، ولم يكن ببقياً لي منها حتى ليله أمس إلا روح عتيق جداً احتجت إليه في موقف كموقعي هذا معك فميت به في وجه أحد السقاء ففصل عنده فتركته مكانه وصرخت ،

فجس الفيكوت غيباً واحداً يهذي ويقول صعلوك ، بالسر ، وقع ، حصر ، سفل ، دبحي سبرو بن يديه دفعا فبعته عن رأسه وفاد له تشرفت عمرة سمك يا ميني ، أما أنا فأسسى مير و سافيين هركين دي برجرث حاكوكي ، فصاح الفيكوت صه أبها الدل السعد ، فجمد سبرو غظه ثم انحنى على نفسه وأخذ يتلوى ويصيح كأنما أصيب بألم شديد في بعض أعضائه ، فصاح الفيكوت أنه قد عرص به عرص عجب ، فدحا عليه وفاد به مدياً أصيب ؟ فم عجب ، وعمل يصيح ويأوه ، فذل له ما شكانت أبها المسكن ؟ فاد خنث شديد يؤمعي جداً ، فل في فمك ؟ فاد لا ، قال في فمك لا عاب لا ، قال راد في دراعك ؟ فاد بيته كان كدست ، فاد هل في أي مكان هو ؟ فاد في سيني ، فدعش الفيكوت راد ومدا مرياً لا قال لقد كان ليته في عنده رماً طويلاً فأصابه هذا التمثيل الشديد ولا علاج له غير الامتناعي

امبارزة الشعرية

فصل الفيكوت ما أريد وعمم أنها لمبارزة ما من ذلك به مشجع وقال فيكي ما مريد ، فاد أنعم أي سأصعد صرية

خيرية لم ير الراؤوب مثلاً ؟ قال حيان شعر ككاد ، قال دن الشاعر لا يكذب ولكنه يقرب ما لا يفهمه الأعيان فيظنوه كادياً ، ولما استطاعني أن أرحل في أثناء القتال الذي يدور بيني وبينك موشحاً لا أقرب فيه شيئاً إلا فاعته ، وسيكون هركياً من خمس قطع يتلوه أولك بدعاء امبروزة وينتهي آخرها بانتهاه حياتك يا فيكوت ، فصاح الفيكوت كدبت وإنت لأعجز من ذلك ، قال : لم أكذب في حياتي قط ، وما هو ذا عنوان موشحي الجديد وأخذ يلقي العنوان مدياً به صوته كأنما يمثل على مسرح ويقول : موشع القتال الذي در بين السيد سبرانو دي برجرث وبين صعلوك من الصعاليك المتلبليل اسمه الفيكوت هالير في حانة بورجونيا ، ثم جرد سبعة وبدأ يقاتل وينقي موشحه ويوقع صراته على بطنائه ويقول

• • •

هي أرمي هدوء قبعتي ، وألحج عن مكبي ردائي ، ثم أجرد من عضده سيمي ، ثم أتمدع عموك رشيقاً كسيلا دون وشجاعاً كاسكاربوس ، ولا بد أني في المقطع الأخير أصيب

• • •

وكان صديراً بنت أن تصب بفسط على لوت ، إن لوت لا يد أت إليك ، لا أدري أين أصعب ديات سيمي من جسمك أني جئت تحت لدبيث ؟ أم في قلب سمث على كل حال ففي المقطع الأخير أصيب .

مرست يود تحت صردت سيمي ، دياب سيمي بلتف انتهاها ، قلبك يحقق من الرعب والخوف ، فزلزلت ترتعد وتضطرب

فلا بد أن في المقطع الأخير أصيب .

...

ها أنت ذا قد بدأت تتعهر لأنني أفسدت عليك الضربة الوحيدة
التي تعرفها ، أوسعت لك المجال فاغررت وهجمت فلم تلبث
أن فشلت وغذلت ، وبلى لك من المستقبل المظلم ، فإني في المقطع
الأخير أصيب .

...

اسأل الله رحمته وإحسانه ، فها هو ذا الموت يرغرف فوق
رأسك قد سددت عليك جميع الأبواب ولم تبق لك حيلة في دفع
القضاء ، قد وعدت ولا بد أن أفى بوعدني أنني في الكلمة الأخيرة
من المقطع الأخير أصيب .

وهنا ضربه ضربة هائلة اخترقت صدره فسقط يترنح من
وقع الضربة وضجت القاعة بالتصفيق والتهليل وأحاط القوم
بسيرانو يباركونه ويمسحونه ، وأخذت النساء تنثر عليه الورود
والأزهار . وكانت روكان أكثر من اهتماماً بالمبارزة وأشدهن
سروراً بتبجحها ، وظل الجماهير يصيحون بأصوات مختلفة :
ما أشجع ! ما أشعر ! إنه بطل عظيم ، حادث بديع . منظر
جميل . شاعر وبطل معاً . لا يقول إلا ما يفعل قد أصابه في
الكلمة الأخيرة من المقطع الأخير كما قال ، وتقدم نحوه السيد
دارتنيان رئيس حراس الملك ومد إليه يده وقال له : ائذن لي
يا سيدي أن أشكرك وأصافحك وأقول لك إنك أفضل مبارر
رأيت في حياتي . فلم يزد سيرانو على أن ألقى عليه نظرة هادئة
ساكنة ومد يده إليه فصفحه بسكون ثم أخذ الناس ينصرفون

من القاعة تبعاً وكان الممثل منفلوري لا يزال واقفاً في الطريق
العام فظلوا يسبون ويستمونهم كلما مروا به ويعيرونه بالبلين والقرار ،
حتى إذا لم يبق في الحانة أحد قال لبريه ليرانو : هل لك أن
تتخلف هنا قليلاً أيها الصديق لأنني أريد أن أتحدث إليك في بعض
الشؤون ؟ فقال سيرانو لصاحب الحانة : أأذن لنا أن نبقى هنا
ههنا أنا وصديقي لبريه ؟ قال : نعم كما تشاء يا سيدي وسأخرج
أنا وجماعة الممثلين لتناول طعم العشاء وننتزه قليلاً ثم نعود
بعد ساعة لتهية الرواية المقبلة وصاح بالخدم : أغلقوا الأبواب
وأبقوا الأنوار كما هي حتى نعود ، ثم انصرف هو وسائر الممثلين .

سيرة سيرانو

قال لبريه ليرانو : وأنت ألا تريد أن تتعشى أيضاً قال :
لا ، قال : لماذا ؟ قال : لأنني لا أملك نقوداً ، فقهقه لبريه ضاحكاً ،
فدهش سيرانو والتفت إليه وقال له : مم تضحك ؟ قال : تذكرت
ذلك الموقف الجميل وأنت تخرج كيسك من جيبيك وترمي به
بكل قواك الى بلروز وتقول له : خذ هذا أيها الرجل فهو لك ،
قال : ألا ترى أنها كانت حركة بديعة ، قال : نعم ، ولكنها
لا تغني عن العشاء شيئاً ولا أدري ماذا نصنع بعد اليوم وأنت لا
ترال في الأسبوع الأول من الشهر ، ولا أحسب أن أبالك يرسل
إليك التفقة الشهرية مرة أخرى ، وكانت فتاة المقصف واقفة
على مقربة منهما تسمع حديثهما دون أن ينتها لما فتحركت حركة
مسموعة فالتفت إليها سيرانو فمشت نحوه ووضعت يدها على
كتفه وألقت عليه نظرة عطف وحنو لو أنها ألقتها على وجه غير
وجهه لظننها الناس بحماها ورقتها نظرة حب وغرام وقالت له :
أنت ضيفي الليلة يا سيدي ، وها هو ذا الطعام بين يديك فادن

الرواية ، المثلثون ، أعضاء المجمع العلمي قال كفى كفى ،
فقد فهمت ، إنها نتيجة جميلة جداً ، كنت أظن أن أصدقائي
أصغر شأنًا من ذلك ، فسيب ليريه لأمره وقال له أتعرف
لك يا سيروانو أنني قد عييت بأمرك إعياء شديداً وأصبحت لا
أدري إلى أين تصل بك هذه الحالة الغريبة وتنتك الأساليب الشاذة
ولا أفهم ما هي حقيقة رأيك في الحياة ولا ما هي خطتك التي
انتهجتها لتصلك إليها ! فاطرق سيروانو خطته ثم رفع رأسه وقال
له : اسمع يا ليريه :

إن الخطط في الحياة كثيرة جداً ومتشعبة تشعباً يحار فيه العقل ،
وقد صلت في مسالكها برعة من الزمن لا أعرف ماذا آتت
منها وماذا أدع ، حتى انتهيت أخيراً إلى أبسطها وأسهلها ،
قال : وما هو ؟ قال : هو أن أكون موضع الإعجاب في كل
شيء ، ومن كل إنسان ، قال : فليكن ما تريد ، ولكن على شرط
أن تكون أفعالك أشبه بأفعال العقلاء منها بأفعال المجانين ، قال :
لا أستطيع أن أعرف الحد الفاصل بين العقل والجنون ، قال :
هل لك أن تخبرني لم تصبر في هذا البص الشديد للمثوري ،
وما أذكر أن الرجل إساء إليك في حياته قط ؟ قال : أبغضه
لأنه وجوه ذلك الغل الطيور الذي لا تستطيع يده أن تصل إلى
سرتة يظن أنه رقيقاً حليلاً يستطيع أن يفتح قلوب النساء
ويتهوي إليهن بالأسى بجمته ورشاقته ، فإذا وقف على مسرح لتفتيش
ألقى عليها في مقاصيرهن بعذرت كنظرات الصمادع بصورة
تأفها الأنفس وتندى لها الوجوه ولقد أصمرت له في بعضي
تلك الموجودة عند القيلة التي رأته يجترىء على أن يوجه إليها
نظرانه المخصائية الشعة ، فلقط عين إلي في تلك الساعة أن دودة
سوداء قد دبت من مكانها إلى وردة بسرعة دفعة فصصت بها

من المائدة وتناول منها ما تشاء ، قد - شكرًا لك يا صديقي ،
وإنعزم من أن عطشي الحساكوبية لا تسمح لي أن أمد يدي
لتناول أي شيء من أي إنسان فإني ألتقي دعوتك بقاء على صلاتك
وودك ، ثم تقدم نحو المائدة وتناول ثلاث حبات من الصب وقرصاً
صغيراً وكأساً من الماء وقال هذا يكفي ، قالت له حد شيئاً
آخر ، قال لا حاجة لي إلى شيء بعد ذلك إلا إلى قلة من ينك
الجميلة دسحني في ساء ، وتناول يدها صلبها ووجهها ينهب
حياء وحجلاً ، ثم وضع الطعام بين يديه وهو يتم بصوت ضعيف
ويقول : لقمة صغيرة لا تملأ معدة طين وثلاث حبات من
الصب لا تملأ الصم - أه ما أشد جوعي ، ثم انصت إلى ليريه وقال
له : ماذا كنت تريد أن تقول لي يا ليريه ؟ تكلم في مصح إليك ،
قال كنت أريد أن أقول لك إن هؤلاء الظالمين المجرورين الذين
لا يحدث لهم بينهم وبهذههم إلا حديث الطعن والصرب والمعاذلة
والمصارعة سيهدمون عليك عقبك ، وهدمون نظام حياتك ، ولو
أنك حررت معهم في هذا المصير طويلاً - لكنت عاقبت أوحش
العواقب وأردت أن سل بقاء أصعب تقول الرحمة والآراء
المخصصة مد كان وقع حدث تلك في عوسهم وخاصة في
نفس رجل عقل كس كسفة الكدس - قد له وكان قد انتهى
من طعامه أكاب الكدس - ها - قال نعم ، ولا بد أن يكون
رأيه إليك شيئاً جديداً ، هو لا ين بالعمك ، لأنه شاعر ، والشاعر
يحمه دائماً أن يرى بعينه منظر سقوط روائه نظمها شعر آخر
قد - ولكنك قد تحدث لك ليلة أعد - كثير لا أدري ماذا
يكون شأنك معهم عداً ، ها - كم مضى على وجه التعرب ؟
قال أربعين عبر ساء ، ها - أذكر لي بعضهم مثلاً ، قال
منعوري - ذي جيش ، ذي جيبي ، فالقير ، بارو موكتف

فأرعبني هذا الخطر لولم رجلاً شديداً ولم أر ساء من مصاقبه
على جهنم وعادته فصكرت عنه دلانقطاع عن تشييل شهرأ
كاملأ - هذا بربه - ومن هي نيك التي نريد؟ يخيل إلي
أنت عشق و سيرتو ، فسم سمع مدغم شام ثم نفس
تصمة صوبه كاذب تسقطه حوب لعمه وفان نعم يا
لبريه بني أحب حباً ودا لا بد أن سوفي في القمر . فان
و هل يمكن أن أعرف من هي تلك التي عبا ؟ فقلت لم تحدثي
عنها هل اليوم قد أتت فائدة في من ذكرها وهي لا أعني ؟
قال وكيف صرحت بذلك ؟ هل فانتخها في شيء ؟ قال - وكيف
يمكن أن أفاتها وأنا أعلم أن هذا الأنف يشع انصح الذي
أحمد بتقديم حشما ذهب وأنى ملكك ولا سمح لي فيطرح
في قلب امرأة قبيحة شوهاء فصلا عن حيلة حساء . فان
ألا يمكن أن أعرف من هي ؟ فان د عرف أن سيرتو
لا يمكن أن عبا إلا حمل امرأة في الدام أمكنت أن تعرف
من هي ؟ فصمت بربه فيبه وهو يفكر حتى عجز فقال لم
أستطع أن أفهم شيئاً فهو لك أن عصبها في ؟ قال أما هذه
فمعم ، هي الحفر العظيم الذي عطف المزمع من جميع بوجه
فلا يعرف له سلا إلى خلاص منه . هي لمناجيس الحجاب
الذي يشبهوي فبا اسحر إليه وعنه وجميع حواسه ومثعره .
هي العودة القصره الناعمة التي تكس حبه حب السامة بين أوراها .
من رأى سماسه رأى الكدر - لإنساني كله . ومن رأى نظارها
رأى الدعة واللطف والرقة والعنونة وجميع معاني الحياة اللديده .
وفي كل حركة من حركاتها ، وإشاره من إشارتها ، ولقطة من
لناتها شمس نصي الكون ونير صلته . ليس في استطاعة
الزهرة زرة الخمد وهي حائلة فوق عليها عرشها العظيم

أن تقصارعها في سهاها وجلالها ولا في استطاعة ديانة . إلهة
الحب حين سير حجة ورسالة وسط الرديس الدصرة أن تحكيها
في مشيتها وهي صائرة على قدمها الصعيرتين في عمتي بستها .
فقال لبريه حيث يد سيرتو فإنت تحب ابنة عمت روكان ،
ولكن لا تدري لم لا تعصي إليها بدأت نفسك ما دمت تحت
إليها بصلة القرين التي بيث وبها ؟ قال ذلك ما أعجز عنه
يا صديقي ، فبني رجل ناس مسكين قصي الله علي أن أعيش
في هذا العالم بلا أمل ولا رجاء . تأمل في وحس قليلا . وظهر
هل يستطيع صاحب مثل هذا الوجه الشح الدرم - عيني في العالم
حياة الحب والفرح ؟ أو أن يكون له أمل في خلاف الأعداء
واحتذاب القلوب ؟ لقد تمر في في بعض أيامي ساعات أشعر
فيها بحاجة فلي في تنت الحياة الخطوة اللذيذة التي يحياها الناس
جميعاً حياة الحب والفرح فأدخل إحدى الحدائق العامة وأمشي
بين رباعها وأزهارها . وأنسم روائحها وأفاسها ، فأنسى
نصي ويخيل إلي أني أسبح في حور رائق صاف من المواضع
والوحدان فإذ رأيت في صوه أشبه القصر الفضية امرأة حيلة
تخفي وحدها جل إلي أني أستطع أن أكون رفيقها لأحد يدرعها .
وإذا رأيت في وهاء سائر في على مهل يهسان وشاحين ونسوج
أزوار الحب فيها خيل إلي أن عداي رفيقة حساء تعرف علي
وعليها هدد لأحبة البصاء التي تعرف عبيها ، ثم أستسلم
هذه التصورات وأفكار وأستغرق فيها ساعة طويلة حتى إذا
وقع نظري عفاة على خياب وجهي في حائط احديقه في صوه
القمر صعدت من صولي وقفت من عيونتي ورجعت أدرجي
في ممرتي وفي من الحزن . الله له عديم - ثم تكس رأسه ملأ وعصب
صنأ عبقراً كأنما بانج في صه المأ محصاً عينا عليه بربه . وقال

له رحمه يسكن يا صديقي . فرفع رأسه وقال : نعم يا الأحمي
عظمتك جداً لا أعجبك بشيء . فبقيت فيه يد حلق في هذه الصورة
الدمية الشعم من عيني في فناء حلقاً . أو ته يد حلق في هذا القلب
حلق في حلقه يستطع أن يغيره في حلقه أحب كـ
تطير القلوب المودع ؟ أما الآن عيني شعر أبي وحيد في هذه
البيت لا سدي فيه ولا عصبه . ولا أسس ولا عير . ولا روعة
ولا ولد . ثم عاد إلى مرقعه مرة أخرى وأخذ يكتي فقال له
أنتك يا سريو ؟ فبقيت ورع رأسه وقال : لا يا
بريه . وبك الكهك صبح عيني ولا يوجد في العالم صبح أفتح
ولا أصح من صبح النعمة خمسة . وهي سائلة على مثل حد
لأنه أصبح يهوس . لا شيء في العالم أصبح ولا أرى ولا
تحت من النموع . وفي أخص يا أن شبي وأجيد وأكسر
صهيد . وأشود حصاد . فثأثر بريه صوره ثأثر أشدداً وكاد يكتي
بكانه . وبكته عند ريسك وقال له لا محرب يا صديقي
ولا يسلم هذه لأهم من حب في الدنيا لا حصره وحسود .
وقد يثبت حقاً ما نطق أنه أفض الأشياء مثلاً ملكك قال :
لا أنت عظمى يا بريه فله لا آخر . لي أن أطمع في حب . كليونته .
إلا بد كنت . فيصير . ولا في حب . برسر . إلا بد كنت
سوس . قال : يا عه عند وهدت من الفصل والذكاء
وبصفت الكبرفة نادرة . م موه لك مقدم حجاب . ألم بر تلك
الفتنة بانه عجبى . وهي سطر ريك نظراب لحب والشعب
على أنر ريك حذرة تخريبه التي انصرفت فيها على الفيكوت

(١) يريس أير . بر سريب من أسرة عيرج . سكان جوفيه بطنط . وأما نصيب
لأير جوف البرواني . أنه . فخر حاته هناك فليها وأجده فأنه جاء له دوراً وأراد أن
يبريه ثأثر شبي عليه ذلك إلهام شديداً فأنظر أن يبريه بالرغم منه وسها

أقبله ؟ كذلك كان شأن ووكسان . فقد شاهدت وهي تنبع حركاتك
أثناء المارورة باهتمام عظيم وقلقت عليك ظاهري في صطرب . أعصاها
واكفهر . وجهها حتى إذا انصرفت عن حصيلت كتاب هي
أعظم الناس سروراً فانصارك . فانتعش سريو . وهدأت به
قليلاً . وقال أصبح ما بقوله يا بريه ؟ قال نعم ولا بد
أن نكون بك . فحدثه قد تركت في قسها أنراً عنيماً . فانتعز
هذه الفرصة وفتحها في شأن حلق . قال شحاف أن تسحر
مي . وهو الأمر الذي أحشاه أكثر من كل شيء في العالم

وهنا ظهرت وصيفه ووكسان دحية من الباب الكبير . ولم
تزل سائرة حتى وقفت أمام سريو . فدهش لرؤيتها دهشة
عظمى وحق قلبه حقاً متدركاً وقال آه يا بني لب وعصيتي .
وحل برنمد وبضطرب . فانتعت الوصيفة بين يديه بحية وقالت
له إن سيلتي ووكسان تسأل أن عها البعل الشجاع سريو دي
برحرارك . متى يمكنها أن تراه جداً على الأفراد لتعادته في بعض
الاشؤون ؟ وأين يكون مكان الاجتماع ؟ فارداد اضطرابه ورتاده
وقال ترائي أدي ؟ قالت نعم في المكان الذي تريده . وفي الساعة
التي تراها . قال آه يا إلفي . كيف يمكنني أن أصدق ذلك ؟
قالت إنها ستعده عدداً عند فتتح زهرت الصباح لسناح خطية
الوسط في كيسة . سد روك . هي أي مكان تحب أن تقابلها
بعد خروجها من الكنيسة ؟ فارتج عليه وظل يهيم ويتنم ونشر
عليه رأيه فلم يعرف ماذا يقول . فقالت له مالي أراك مصطرباً
هكنا ؟ أسرع بالحواب فلها تنتظري . فقال بصوت خافت منقطع
إني أنتظرها في الساعة السابعة من صباح الغد في معظم راسبو .
قالت وأين مكان هذا المظم ؟ قال في رأس شاعر سان اثريه .
قالت سألتهم ذلك . وانحب ثانية بين يديه وانصرفت . فظل

شخصاً نصرته إلى السماء كالمجاهل المشوه ، وهو يردد بينه وبين نفسه آه يا ليلي : كيف يمكنني أن أصلق ذلك ، إنها أرسلت إليّ وصيمنتها تسأني أن أقبلها على امرأتك فليت شعري ماذا تريد أن تفعل ؟ فقال له بربيه : تريد أن تقول لك إنها تحبك ، في ذلك ريب ، وقد سألتك ذلك من قبل فلم تصدقي . قال كيف كان الأمر كذلك فحسني منها أني خطرت بها وأنها تعلم أن في العالم إنساناً اسمه سيرانو ، قال ما أصبحت إلا راضياً عن نصحتك لأن ولا بد أن يكون قد هدأت تلك الثورة التي كانت قائمة في نفسك ، قال لا ما هدأت ولا فزت ، بل أصبحت ثائراً جداً ، وأشعر أن قوتي قد ازدادت أضعافاً مضاعفة ، فلما نصبت الآن جيشاً كامل العدد والعدد لقهره وحسني ، ويجعل إليّ أن بين حسي عشرة قلوب ، وأن في منطقتي عشرة سيوف أستطيع أن أقاتل بها جميعاً في آن واحد ، ولا يكفي أن أحارب الأقرام والصابون وحده كذبت لسبح الذي حاربه اللبلة بل لا بد لي من جارية وعالمقة أحمر بفسهم والفلج عليهم

باب نيل

وكان يتكلم بصوت عال رداً وصرح صراحت هائلة مرعشة تدوي بها أرجاء القاعة كأنها جبل إليه أنه في ميدان حرب ، وأنه يقاتل في أولئك المعركة والمباراة الذين ذكرهم

وكان لمشهود قد عادوا من برهم وأحبوا ييلون على مسرح الرواية المقصدة فأزعجهم صوت سيرانو . وهو يصرح فصيح به أحلهم إلا نزل نائياً هادئاً حتى الآن يا سيرانو ؟ لقد أزعجت بصوتك وحدك هذا حيلاً نستطيع أن نأخذ في

سلكاً ، فاستمع سيرانو وقال عموماً ، سادتي هاترت لكم لكلمة مصروراً مختصاً ، وهذه مخرج ، فما راعه إلا جماعه من خود واللبط قد دخلوا حاشاه خصون برجل يربح مكراً فتأمله وقد هو ليبر ، فصرع إليه مذعوراً وقال ما كنت ، صديقي ؟ قال طهجة متفائلة أخذ هذه الورقة وأقرأها إنها تتنبأني بأن مائة رجل يكمنون في الليلة في طريقي في مربي عسة العسل بين ليستوي بسب تلك القصيدة التي تعلوها ، فأدب لي بالذهب إلى ممرتك لأدركه في سنة ، وأطرق سيرانو هنيهة ، وهو يهمهم قولاً مائة رجل على رجل واحد ، ما أجسم وأصل نفوسهم . ثم وضع رأسه وألقى على ليبر نظره عاليه مترفة وقال له بهوء وسكون ليبر ، أنت ستدرك اسمه في سنة . فلم يفهم عرصه وقال له وهو يربح ويتسلق ولكنك تصعب يا سيدي أنني رجل صعب مكبر لا أقوى على معاملة هر من لي بلقاء مائة رجل وحدي ؟ قال ليبي أن الذي أودهم ، وأن الذي سأقاتلهم . جدد المصباح من يد الباب وسر أمامي . وأقسم لك أنت ستنام الليلة في بيتك . وأني سأشهد بك مرثيتي ، لقد كنت أعني منذ هنيهة أن أقاتل جيشاً كامل العدد والعدد ، وهذا هو ذا جيش الذي كتب أنته قد ودي وحده . إنني في هذه الليلة بل في هذه الساعة على لأخص لا أحصل في أن أقاتل أقل من هذا العدد ، فعدم يحرم لربيه ووضح يده على كتفه وأسر في أدبه فلا يستطيع هذا الرجل أن سام القية في غير بيته ؟ وهل ترى من كلامي الختم أن تخاطر نصحت دعماً عن مثل هذا لأتبه المأفون . وكان امثالون قد نزلوا من مسرح وأقنوا يشهدون بحديثه فوضح سيرانو يده على كتف لربه ، وقال له وهو يشتم نفسه هادئة لطيفه إن هذا المكبر الذي لا يقبل من السر الذي لا يتعد هو أرق

الدم قماً واجعلهم حراً واشترهم شعوراً . رأيت مره . وقد خرج
من الكنيسة يوم الأحد فرأى المرأة التي يحبها تصادق يدها للضيعة
قليلاً من الماء للقدس فضل يرفعه حتى تصرف فهجم على
الحوص الذي وصعت يدها فيه . وما على وجه الأرض شيء
أبعس إليه من ماء الفروج . فما راى يكرخ منه حتى أتى عليه ،
فصاحت إحدى الممثلات يا أحمل هذه الحادثة . وما أرق
هذا الثمور ! فالتفت إليها سيرنو وقال ها ليس كذلك أنتي
الفتاة ؟ قالت وارضمتها لهذا الرجل المسكين كيف يسمح مائة
رجل لأنفسهم أن تصفوا عنه ؟ ألا تعلم يا هو السب في
ذلك يا سيدي ؟ فلم يحبها سيرنو والتفت إلى جماعة من الخدم
الذين دخلوا مع بيسير وقال هم ها أنذا ذهب إلى لمركه الليلة .
فإن شئت أن تكونوا معي فأنتم وشأنكم ، غير أن في عيكم شرطاً
واحداً فقط . هو أنكم مهما رأيتم من الخطر متحدث في فلا يتقدم
أحد منكم مساعدتي ولكن مكانكم معي مكان مرسي الصحف
ومسويها في المدرك . بشهدوب ولا يعزوب . فقامت المثلة ،
هن تأوي يا سيدي أن أذهب معكم حيث تذهبون ؟ قد نعم
آذن لك ولكن من أراد الذهاب معكم . فصاح الممثلون والموسيقون
جميعاً كل يذهب معك ، فابهج سيرنو وتهلل وجهه وقال
يا به من موكب شائق بلديع ، ثم حرد سيمه من عنده وصرب
به اخره وصاح صيحه القائد في جمده ليتقدم الضباط ثم الخدم
ثم الممثلون ثم الممثلات ثم الموسيقيون . وهم يعرفون بأحاسيسهم
معدسة وليأخذ كل منكم في يده شمعة أو مصباحاً ، أما أن
فإني قائدكم الدم وها هي الريشة التي ناوتني إيدي يد المجد والفرح
مرفوف فوق شعبي ، فأحذر مصطفون كما أمرهم . وهم يجوبون
ويصحبون كأهم دهبون إلى مرفص . وهذا التفت سيرنو إلى

المثلة التي أعجبتها قصة بيسير وقال ها : قد كنت سألتني أينها
الفتاة مثل هيبة : لم يفتق مائة رجل على رجل واحد مسكين ؟
فأقول لك جواً على ذلك إنهم ما فعلوا ذلك من أحسن بل
من أحلى ، لأنهم يسمون ألي صديقه الذي لا يحدنه . ثم أمر البوب
أن يفتح الباب الكبير على مصراعيه فدخل أمامه منظر باريس
العام في ضوء القمر الساطع موقف هيبة بتأمل هذا المنظر اللديع
ويقول آه فقد طلع البدر وللأفلاك أشعة فاحتفت باريس بظلمة
وحلت باريس الميرة . ها هي النجوم الالامعة تسطع في سمائها ،
وها هي أشعة القمر تسيل على مسطحات سطوحها . وها هو
سهر السور يرتجف تحت أعمرته البيضاء يرتجاف المراكاة الساحرة
إن الطبيعة تهني لنا مهدناً جميلاً للقتال الرهيب فهيا يا حميماً
إلى باب نيل .

ثم مشى فمشى الجميع وراهم يخلون خطراتهم على نعم الموسيقى

الفصل الثاني

المشاعرون

فتح راجو طاهي الشعره والمثلثي مطعنه ميكراً كعادته والعيور لا تزال حائمة في أوكارها مجلس بين يدي مصلته ينظم على صوه المصباح لقطعة شعرية في وصف « اللوريج »^(١) فكان بكب على أوزقه مرة يقيد ما حصره من الأبيات ويرفع صيحه إلى السماء أحد . لينشد من إله الشعر روحها ويستلهمها وحيا ، ولم يزل على ذلك ساعة حتى بدأت الشمس نزل أشعتها الأولى من حلال النوافذ والكوى ودوت في المظج جلة العمال وصوصاؤهم وصنصلة الآنية والقندور فألقى قلعه واعتدل في جديته وتأوه آهة طويلة ثم قال مخاطباً إله الشعر : وعاءاً أينها الإله القوية القادرة ، قد انقضى الليل وانقضى سكونه وهلوؤه ، وحده النهار يجذبه وصوصه لدعبي ودعي لتألك غير مقبلة ولا محتوفة وموعدا الليلة القابلة ، ثم مشى إلى المظج رأى في مدخنة يده من النحاس الأصفر قد ألفت الشمس عليه أشعتها الصمراء فاشتد وميصة ولأوه عوفف أمامه لحظة يتأمله ويقول هذه هي الشمس قد استطاعت أن تصبح ما لا يصبته الكيمياء الماهر ، فقد حولت النحاس لأصفر مشاع واحد من أشعتها إلى صجد وهاج ، ثم قال ما أحمل هذا المني وأبلعه ، لا بد لي من

(١) نوع من الخمر يقوم بمنع الخمر .

تقبيله حتى لا يمت من يدي إذا احتجت إليه ، وأخرج دقيقه من حبه قبيله . ثم وقف بأحد العبد وهو يشق عذبه في يده رعباً إلى شقين عاب له لقد أخطأت لحمة أبا العلام فأنصر عان غير متواريين . ورأى آخر يشوي في بصل واحد دنكاً كبيراً وعصفوراً صغيراً هذب إياها طريقه الشاعر « مارل » وهي لا تصحى ، ولما أن يكون سه ناماً كنه أو عجروء أكله ومر بطباخ بطبخ مرقاً في قدر تناول اللعنة وأدر ما فيه ثم قال له ما أرق هذا الحساء إلا كالثغر المنهول وأن لا يعجبني إلا لحزب المتين ، ووقف أحد العبد بين يديه وسأله كم قيرطاً نخب أن يكون ارتفاع قد القنودج اليوم ؟ قال ثلاثة قدييل ، وتقدم بين يديه آخر حاملاً على يديه صبيبه معطاء سبيح رقبتي وقال له لقد حفرعت اليوم هذا الشكل ب يدي فلعله يعجبك ثم رفع النسيج فإذا فبارة مصوغة من خيوى معشاء بدقيق السكر الأبيض متهدل وجهه فرحاً وصاح فكره شجرة جديدة م يسبت . وج أحد ، وقد أعينك اليوم من العمل بكفاه لك على حس بصورك وسمو حياتك ، فادهب شاك وحدهه لقطعة العصبه وشرب بها تحب الصوت الحبيبة

دواوين الشعراء

م يرب بطوف دالصلب ويصصهم بهد لأسلوب تصحك العرب . وهم يتعمرون عليه ويتصاحكون من ورائه حتى خرج عشى إلى قاعة التعمم رأى روحه « بير » تصعب على خالدة أنواع خلوى والتضطر والقائد والرشاوش والرقائق وقد تحدث أوعيتها وأكباسها من صحائف الكتب الأديبه ودواوين الشعراء

ولم يلبث أن تعزل روحه وعدا وراء العلام حتى أدركه في الطريق فصرع إليه أن يرد له الكيس فارغاً فأبى العلام إلا أن أحدى في مقدمه قرصاً آخر أو أحد القرص بلا ثم ؟ فرد إليه راجعاً الكيس وعاد بالصفيحة قرصاً معتطاً مسح عنها الدهن الذي غمرها ويصمها إلى صلوه ويترنم بأبياتها .

الموعود

وإنه لكذلك إذ فتح الباب فجاء ودخل سيرانو وهو مصر الوجه ، شاحب اللون على أثر تلك المفركة اللثة التي دارت بينه وبين أهداء ليبيير . فقال راجعاً لكم الساعة الآن ؟ قال السادسة يا سيدي ، وقدم به كرسيّاً فجلس عليه ثم وقف بين يديه متأدياً متخفياً وقال له أنتك يا سيدي بانتصارك العظيم الذي انتصرته ليلة أمس . فلقد كانت تلك المفركة أجمل معركة حصرتها في حياتي ، ويسير لي زمن طويل قبل أن أساه وأنسى حشوها وجملها ، فالتفت إليه سيرانو ، وقال أي معركة تريد ؟ قال معركة « بورجوب » قال لعليّ تريد مبارزة ؟ قال نعم أريد تلك المبارزة الغربية التي ألفت فيها بين يديك سيفك ولصمات شعرك تأليماً ديباً كأنس ما يصح الموسيقار الماهر ورثك فيها ذلك الموشح الجميل الذي لم يفسدك عليه شاعر من قبلت ، كأن إهة الشعر كاتب مرمره فوق رأسك تمدك برء حها « قوتها » فقلت لير وهي تشير إلى روجه . نعم يا سيدي إنه ما راى يلهم تلك الأحدة مدراً حتى الساعة لا يماري حيائها بفضله ولا مثامه . حتى ليحبل إليّ أنه قد أصابه من من الشيطان . فقال راجعاً نعم إنها لم تعاقب خيالي قط ، وما حدثت أحداً في حياتي على

التي كانت تتاعها من انوديق لهذا الغرض . فألقى على الأكياس بطره حرة مكتبة وقاب أكد تصحيح دواوين أصدقائي الشعراء حجبين ، لقد كنت أكنى أن أرى وجه الموت قبل أن أرى تلك الأعلاق التقيسة ويهلوهر المتشقة أوعا للفظنر والخلوى في حوبيت الظهور والخلويين مودرحمته للأدب وواسعاً عليه وعن عهده الزهر الصير . فألفت عليه بطره ردره واحتقار وفانت به زب ما أردت يدهه دواوين أصدقائك ولا الزر به ؟ ولكنك عمت أنها لم تمنح إلا لبعته والأرصه وث شعاع الشمس من يصل بك مكاتب أهد بدهر . فأردت أن عتاب على الناس في أمره مشرب من قبورها ودمعها إينهم يدلف للصدور والخلوى عنهم يلحومهم عرساً فيقرعونها . عيشك يا أصدقائك عمت عنيهم ويدد عدهم ، فاحمد راجو عيطاً وقاب قد أيتها السلة الصفيحة لا سيبي اللور نصم بصبرك نحره صرعة لا قيمة لك من بعده فقلت . نعة لك عمت وعلى جميع ثرائك من عهد هومير " إلى عهدك ، وثركتك ونصرفت

وهي إلا عنيها حتى دخل المنعم علام صغير عطب قرصاً من خلوى فتدوب راجو أحد الأكيس وأنامه قبل أن يعطه به موقع بطره على هذه الكلمة ، وقد فارق عونس بسلوب فأعاده إلى مكانه . وقال شعر بديع لا أستطيع أن أصبح به وتدوب كيباً آخر فقرأ عنه عد العراب « إلى أولوب » قد وأهد . ووضع مكانه وتدوب كيباً لأننا قرأ عنه « إلى فيس » قد ولا هد أيضاً ، وأراد أن يعيده إلى مكانه ففتت إليه زوجته فخافه وأعطاهها العلام فأخذته ونصرف

موقف من المواقف صدي ليالك على موقفك هذا ، ثم مد يده إلى المائدة وتناول مديبة طويلة وأخذ يوح بها في الهواء مقلداً مديراً متعاصراً متعاولاً كأنما يمثل تلك المبارزة ويترجم في أثناء تمثيله بهذا الشطر ، وفي المقطع الأخير أصيب ، وفي المقطع الأخير أصيب ، ثم يقول : ما أجمل هذه النعمة ! وما أبلغ هذا الشعر وما أمتن تلك القافية ، وسيرانو ينظر إليه مذهوشاً مستغرباً حتى فرغ من تحيله ، فقال له : كم الساعة الآن يا راجو : ست وعشرون دقيقة يا سيدي ، فقال في نفسه : لم يبق على الساعة إلا القليل ، ثم وقف وأخذ يتمشى في أرجاء القاعة دهائياً وجهته فمر بلير وهي واقفة بجانب المائدة فصمت في يده جرحاً دامياً ففالت له : ماذا أصابك يا سيدي ، وما هذا البلوح الذي في يدك ؟ قال غداش بسيط لا أهمية له ، فقالت : يحجل إليّ أنك كنت في معركة ، لال . لا ، فقالت : أعفان أن تكون كاذباً ، قال : هل رأيت أنني يضطرب ؟ تلك هي العلامة الوحيدة للكذب في مذهبي ، ثم انضمت لآلها وإلى راجو وقال لهما : إني أنتظر بعض الناس هنا وأحب أن أكون معهم على انفراد فانفكا القاعة الآن ، فلم يبق على حضوره إلا القليل ، قال راجو ولكن ماذا أصبح بشراي يا سيدي ، وهم على وشك الحضور الآن ، قال : لا بأس أن يحضروا على شرط أن تأخذهم بالانصراف أو بالتحويل إلى غرفة أخرى عندما تشير إليك ثم سأله كم الساعة الآن ؟ قال : ست وثلاثون دقيقة قال أعطني قلماً وكرطاساً فإني أريد أن أكتب شيئاً ، هجاءه عما أراد ، فجلس على منضدة راجو وأمسك بالقلم وأنشأ يقول بينه وبين نفسه ليس في استطاعتي أن أفاتها في شيء مما أحب أن أفاتها فيه ، فحير لي أن أكتب لها كتاباً أفعله إليها بنفسى عند حضورها ثم أنزعتها وأنصرفت

لثاني لتفرد وحده . وأشرق برأسه ثم نفض رأساً طويلاً . وقال : آه ، لقد كنت أظن أنني شجاع حريه لا أهاب . الإقدام على أي خطر من الأخطار مهما كان شأنه ، فإذا أنا بجان عاجز لا حول لي فيما يمرض لي من الخطوب ولا حيلة ويحجل إليّ أن الموت هو أهون عني من أن ألق أمانها وجهاً لوجه وأضفي إليها شيء مما يحش لي صدي . ثم كذب على المنصة وحاول أن يكتب شيئاً فاردحت الأفكار في رأسه وانتشرت عيه حيلاته وتصوراته فلم يستطع أن يكتب حرفاً واحداً ، فالتقى القوم من يده وقال : فح الله التكيف والتحمل لو لا أنها تلميذة المدرسة القديمة ، وأنهم من فريق المتأيقين لتشديد الملتصين بالصور والأساليب لا وجد قلبي في طريقه ما يعترضه ذوب الوصوب إلى الغيبة التي يريدونها ، فالكتاب مسطور في صدي بأكمله وليس بيني وبينه إن أردته إلا أن أصح قلبي بحاجتي وأستمع ما يشعر به فيسببه عني ببساطة ووضوح . ثم تناول القوم مرة أخرى وشرع في الكتابة فإذا هو صوب عبيد أحش يقنع بأحبة الدب : صاحب الحبر يا بر : فرجع سيرنو رأسه فإذا صبيد صمغ الحقة هائل الخلفة ذو شاربين كثيفين مستطيين . فسأل راجو من الرجل ؟ فقال : إنه صبيد من صبيد الجيش الفرنسي يسمى نفسه « الرجل الخائف » وهو كتب برعم بطل من لأبطال المعاورير الذين لم يسمح الله لهم في جيش من جيوش العالم . وهو صديق روجي لير ولا يأتيه هـ لا يريدها ، فالتى سيرنو على الصائط نظرة شديدة ثم عاد إلى شأنه وسمر يكتب كتبه ويهجم بينه وبين نفسه من حين إلى حين بأشياء هذه الكلمات : أحبك حاً يصغر القوم عن يانه لأن القوم مده من مواد تعال لأرضي وحب روح من أرواح الملائكة الأعلى . لا يرى الناس من عبيد الجميلتين

موى صاعقه وروقهها ، أم أن في أنشد من ورائها نصت
الحليلة العديه ، ملووه رقة وشعر ، فإذا ما
أجس عيسها وأحلاها ، فبما أن نصت نفسها لفرقة في
عيسها ، وما أصغى أذنها ، حتى عيش في حد علم عيش
اليأس القصد ، اليأس قبل فصل في العوس ونمها ، فحسي
أدمل وحلي في ، بسا حذت تحدي عدي في سدا عالم
جمع يد لا تساعدا في الدهر وفي عدي في سدا بيتي
وبس أن أكون بسا في الجمع ، بل نعمه على سدا أحسها
إلا أن تسبي على سدا حمايتك ورحمتك .

بعض الأدباء

وعلى مسترق في صورته وأفكاره التي كان يرسمها على
قردسه ، يرسم تصور مقتر بدعاً من ماهر نصه على لوحه
كأن يراد لا بحرف ولا يوشى ولا سدى ولا يسكر فم يشه
إلى حمده شعر ، حوى حبيب حنوت هديس هديس وهم
في ملاسهم لزيه عاره ، وعلم الله وفهمهم مبره لذي
أبير ، لرحمهم وأشره بينهم ، هم صبايتك ودهر
يا ربحو ، هم بعد ما قدم لاستخدم وتخرجهم هم قدوة
فحيوه ودعوة درمل والرصف ، حدى ويكنى ، حدى من
الأكتاب والفتوت وهو مخرج معصية هدى ، حبيبهم مست
وأش شمس دانه وسدا ، حدى ربحه دانه ، حدى
القدو والشكر ، حدى ربحه دانه ، حدى ربحه دانه ، حدى
أسعد حدى ، حدى ربحه دانه ، حدى ربحه دانه ، حدى
حدى ربحه دانه ، حدى ربحه دانه ، حدى ربحه دانه ، حدى

يأكلون ويفصون ويرحون ويعجون يقول أحدهم وهو يشير
إلى قطعة من الحلوى ذات رأس مسن : إن هذه القطة لم تنس
وصح قلستوها على رأسها فلا بد من مديتها ، يقول له الآخر
وم تعاقبها ؟ فيقول : هشم رأسها ، ثم يتناولها فيهشمها كلها
رأساً وجسداً ، وينظر آخر إلى قطعة أخرى عشوة بالقشة ويصعلها
فتبرز قشيتها البيضاء فيقول : ما أجملها ، كأنها نمر صاحبك
فلا بد في من قبيله ، ثم يذهبها من فمه ليقبلها ، ويقول آخر وهو
ينظر إلى قيثارة الحلوى التي صمها ذلك العاص في الصباح وأجازه
راجنو عليها ، كانت القيثارة قبل اليوم غداً ، الأرواح ، أما اليوم
فهي اليوم غداً الأجسام ، ثم ينقص عليها فيأكلها وراحو واقف
أمامهم يتسم وينهل ويقول في نفسه : ما أجمل هذه المعاني وأبدعها ،
بأبي الشاعر إلا أن يكون شاعراً في كل موقف وفي كل مقام

ثم قال : هل تادبون في أنها السادة أن أنشد بين أيديكم قصيدتي
الحليلة التي نظمها في وصف « للوربح » وصيتها دسسه ؟
صالحوا جيماً نعم نعم ، ولا بد أن تكون قصيدة حمية لأن
هناها جميل جداً فاعره مدحهم ونوهم فرح عقيته وأحد
ينشد قصيدته ويرجع في إنشاده ترجعاً مصحكاً وهم لاهو
بجه بشأنهم لا يملأون به ولا يلتفتون إليه ، لا في الفس بعد الفس ،
فقال له الرجل اذهل ألا نرحم يا راحو وهم يلتهمون حلواك
وأنت لاه عنهم بالحدث وأعابت عشى نوره رعى عليه وأنتى
في أدبه هذه الكلمات ، هي أرواح أبي العبي ذلك ويكنى أعص
الطرف عنهم رحمة بهم وشفاقاً عليهم ، هم قوم نساء معدود
قلما يرون وجه الطعام لشهي إلا في حنوتي وأنت لا جهم أن
صيري أولى بالتحلة والإكرام من صيوف ، حدى وكان على
مقربة من مكان سيرانو عاتته لكلماته لأخبره فرجع رأسه ودل

له اذن مني يا راجنو . فدنا منه فقال له إنك تعجبني أيها الرجل ،
 فالشعراء في هذا العالم كالشجرة الوارفة في المهمة القفر ، ينفي
 إلى ظلها الغادون والرائحون وهي وحدها التي تحتل حر الهجرة
 ولظاها فرحة الله ورضوانه على من يحسن إليهم ويتصدق عليهم ،
 ثم عاد إلى شأنه الذي هو فيه وظل الشعراء يأكلون ويقصفون
 ويتناغون ما شاءوا من فطائر راجنو وحلوا بطرفهم الأدبية
 وملحهم النادرة حتى فتح الباب ودخل عليهم أحد زملائهم وكان
 قد تحلف عنهم قليلاً فهللوا حين رأوه وصاحوا بصوت واحد :
 لقد تأخرت أيها الصديق ! قال : قد حال بيني وبين اللحاق بكم
 ازدحام الناس ازدحاماً شديداً عند باب نيل ، قال : وهل
 حدث شيء هناك ؟ قال : نعم ، كان ازدحامهم على ثمانية قتلى
 وجدوهم هناك مضرجين بدمائهم ، ولا يعلم أحد كيف قتلوا
 ولا من جنى عليهم هذه الجناية القبيحة ، فانتبه سيرانو للحديث
 واعتدل في جلسته وقال في نفسه : يا للعجب ، كنت أظنهم سبعة
 فقط ، إذا قد ربحنا واحداً آخر ، فقال راجنو للمتكلم : وما
 ظن الناس بهذه الحادثة ؟ قال : يقول بعضهم : إن رجلاً واحداً
 هو الذي قام بمفرده بمقاتلة هؤلاء اللصوص وكانوا مائة أو يزيدون
 فانتصر عليهم جميعاً وفرق شملهم وقتل منهم هذا العدد الكثير
 ولقد رأينا العصي والخناجر والمدى التي كانت مع أفراد تلك العصابة
 مبعثرة هنا وهناك وظل الناس يلتقطون القبعات التي طارت عن
 رؤوس المنهزمين من باب نيل إلى النهر ، فمشى راجنو إلى سيرانو
 وقال له : أسمع أنت هذا الحديث يا سيدي ! قال : نعم ،
 فما ظنك ببطل هذه الواقعة ! فرفع رأسه إليه وقال : لا أعرفه ،
 فهرعت ليز إلى صديقها الرجل الهائل ، تسأله : وأنت يا سيدي !
 فابتسم وقتل شادييه وغمز بعينه وقال : أظنني أعرفه .

وكان سيرانو قد أتم كتابه وأراد أن يوقع عليه ثم توقف وقال :
 لا لزوم للتوقيع لأنني سأقدمه إليها بنفسي ، ثم طواه
 ووضعها في صدره ونهض قائماً على قدميه وهتف براجنو فأسمع
 إليه فسأله : كم الساعة الآن ! قال ست وخمسون دقيقة ، فقال
 في نفسه : لم يبق إلا عشر دقائق . وأخذ ينمشي في القاعة ذهاباً
 وجيئة ، وكانت ليز وصديقها الضابط جالسين على أفراد في
 أحد أركان القاعة فخيل لسيرانو أنه رأى بينهما شيئاً مريباً . فدنا
 منهما ووضع يده على كتف المرأة وقال لها : بخيل إليّ أيتها السيدة
 أن هذا البطل الجالس بجانبك يدبر خطة للهجوم على حصنك ،
 فانتفضت وتظاهرت بالغضب ، وقالت له : ماذا تقول يا سيدي
 إن نظرة واحدة مني تكفي لهزيمة من يحاول ذلك . قال : ولكني
 أرى عينيك ذابلتين متضضعتين تلوح عليهما علامتان الانكسار ،
 فاضطربت وحاولت أن تقول شيئاً فحانها صوتها فصمتت ،
 فقال لها : أيتها الفتاة إن راجنو يعجبني جداً لذلك لا أسمح لأحد
 أن يعيب بشرفه أمامي . ثم التفت إلى الضابط فنظر إليه نظرة
 شرراء . وقال : ولقد سمع من كانت له أذنان : أليس كذلك
 أيها الرجل الهائل . ثم تركهما واستمر في سبيله فهمت
 ليز ، في أذن صديقها تقول له : إنك تدعشي جداً يا صديقي .
 ولا أعلم سبباً لسكونك وصمتك حتى ليحيل إنك تخافه وتخشاه !
 قل له كلمة تؤله ونكسر من شره أو اسخر من أنه على الأقل
 فإنه موضع الضعف منه ، فنظر إليها ذاهلاً مشلوحاً ، وقد سرت
 في جسمه رعدة شديدة ، وقال : أنه ! لا ، لا ، مالنا وللسخرية
 بمصائب الناس وأرزائهم ، ثم تسلل من مكانه وخرج من القاعة
 قد جاء الميعاد يا راجنو ، فهتف راجنو بشعراة : هيا بنا أيها
 الأصدقاء إلى الحجرة الثانية . وأغلق بابها عليهم . ووقف سيرانو

على مقربة من باب مطعم ينتظر قدوم روكسان ويحول في بعضه
لا أعطيها لكتاب إلا إذا رأيت في وجهها بركة أمل

اللقاء

وهذا سمع حفيف ثوب مقل حقيق فيه خفقاناً شديداً ،
ثم فتح الباب ودخلت روكسان وره وصيفتها ، وهي تحظر في
مشيتها تلك الخطوة البديعة التي عرف بها وافتش بها الناس من
أجدها ، وقد أسست قاعدتها على وجهها حينها فحيدها نحية ترحم
بين الأدب والكبرياء وأشار لها إلى كرسي قد أعد لها فجلست
عليه ، ثم تركها وذهب إلى الوضوء ، وكانت وقفة على عتبة
الباب تنقب بصرها في صفوف لأطعمته يستشره على مآلته فقال
لها بلهجة طارح مداعب أشرفة أنت أينما الفتاة ! غلب
نعم يا سيدي إلى الموت ، فمشى إلى المائدة وسار كبير من
أكياس الحلوى ولعل لها ، هالك قصيدتين يديعتين للشاعر العظيم
« بنسداد » فخلدتهما ، فلم تفهم ما يريد ، وقالت وما أصعب
بهما ! قال : قد اتخذتهما « ليز » كما تحدث عيرها من قصائد
الشعره المخبيرين أكسماً للحوى وأوعية للفظا حديهما واجلسي
خارج الباب فذلك سيجبر منها من أبواب الحلوى ما تشهين
ولا تودين إلا بعد أن تشعبي ، فملأها وجهها فرحاً وسروراً
وتماثلت الكيسين وعادت أدبهما ، ورجع سيرها إلى روكسان
وقوف بين يدي حاسر رأس وقال لها لقد أسديت عليّ يا
سيدي بربرت هبة نعمة لا أنساها لك مدى الدهر وإلى أخصر
هذه الثقة التي أوليتها وأنت بكل شوق سمعته تردين أن
نصفي ، فحسرت قناعها على وجهها فأضه ضوء القمر
الساطع في الصفحة خللثة وقالت له : شكرًا لك يا ابن عمي .

ذلك قد أحسست إليّ ليلة أمس إحساناً عظيماً بقتلك ذلك الفتى
الواقع الحزني الذي حاول أن يثبت بك وستين بكرامتك فحسبت
لصلك غصنة الأبي الأنوف ، ولم ترم مكانك حتى غسبت يده
أثر الإهانة التي لحقت بك ، أنعرف هذا الفتى يا سيدي ؟ قال
لا يا سيدي قالت : أذكرته دون أن تعرفه سمعته ! قال نعم ،
قالت إنه الفيكوت « فالعير » الذي أراد أحد المعلمين في من
عظماء هذا البلد ، وهو الكونت دي جيش أن يروحي منه على
الرغم من رواج لا أعرف كيف أسميه ! قال رواجاً سميّاً !
فاطرت برأسه حياء وحجلاً وقالت نعم ، فقال ما أظن ما
تقولين ! لقد صحبت الآباء راجعاً عن نفسي كل الزمان في تلك
الحلقة التي انتهت بها والتي انتهت بآنها حياته بعد ما عصب
أنني إنما كنت أفس في سبيك لا في سبيل نفسي وأودع من
عينيك اسميتين لا عن أنفي ، فاستضحكت وأشارت إلى كرسي
عديها فجلس عليه صامتاً ساكناً ينتظر ما تفعل ، وساد السكون
بينهما هبة ، ثم أقبلت عليه وقالت له : كنت أريد أن أقول
لك كلمة أخرى يا سيدي فهل تسمح لي بها ؟ قال نعم أسمع
لك بكل شيء فقولني يا شافين ، قالت : أذكرك تلك الأيام
لما صيت التي قصصناها معاً وعن صغيري في « برجرارك » في تلك
المروج الخضراء على صفاء البحيرة ؟ فانتعشت بعبه وخفق
فبه حقيقاً شديداً وقال نعم يا بنة عمي أيام كنت تأتين هناك
مع أوبك لقضاء فصل الصيف في كل عام قالت إلي أذكر
بك لأوقات الحماية كأنها حاضرة بين يدي وأذكر تلك الأعواد
الشائكة التي كنت تقطعها بيديك من أشجار الغاب وتنتد منها
أسيافاً صغيرة تصبها في الهواء كأنك تبارز أشباحاً خفية برامى
لك ، قال : نعم أذكر ذلك ولا أنسه ، وأذكر أنك كنت

جميع أعود الدولة من حقل ثم تجلس على صفة البحيرة لتحدي
 من جودتها سوراً ذهبية بمرثك الحبيبة ، قلت نعم ما كان
 أجمل تلك الأيام . وما كان أعزها ، وما كان أحلى مذاق
 العيش فيها ، كان حيل لي في ذلك الوقت أنني صاحبة لطلوع
 انطلق عني وأنت تحمي حاشياً وشديداً وتهم ثنائي هتافاً عظيماً
 كل تأثر دُمري في كل ما أشير به عليك وتزل عند جميع دعاي
 وأكادني وأص أي كنت جميلة في ذلك حين أليس كذلك ؟ فإرداد
 خفقت فيه وحش إليه أنه يرى بين شفتيه ظل تلك الكلمة العذبة
 التي ينهف شوقاً إلى ساعدي من معها فرفع رأسه ونظر إليها
 بغيره باسمه عذبة وقال نعم يا سدي كما كنت لآن . قالت
 وكنت كثير انشعب بسبق لأشجار التذكاة والمخاطرة بصلك
 في ذلك محضه عصي فكنت يد أصابك حرج في يدك فرعت
 بيك وعظمت عنيك عطف الأم الرووم على ولعها وأحدثت
 يدك بين يدي هكذا ، ومدت يدها إلى يده فحدثتها إليها فوقع
 نظرها على ذلك حرج الدامي الذي أصابه في معركة قليل فحدثت
 وقالت ما عد يا سبرو ؟ ثم تبسمت وعاتت ألا ترون تسلق
 الأشجار حتى لآن ! فصحك وقال نعم لا أزال أحب اللعب
 حتى الآن . وقد لعبت لعبة أس لعبة شيطانية ضد دباب بله
 سمكت فيها من دم أعدائي فوق ما سمكوا من دمي أصحافاً
 مصعقة . ثم حاول أن يسرد يده فأصكت بها ، وعالت له :
 لا بد أن ندعها لي لآن حتى أرى المخرج وأسرده كما كنت أفعل
 في عهد طفولي وأعالجه بالطريقة التي كنت أعالج بها حروحك
 من قبل . ثم أخرجت مديله من صمغها وعصمت طرفه في
 قديم الماء وضد كبح به المخرج برفق وتؤدة وتقول له هكذا
 كنت أعالج حروحك التي كانت بصلك من تسلق الأشجار

الشائكة في عهد طفولتك الأولى . وهو يرتد بين يديها ويضطرب
 من تأثير ملامحه جسمها لحسنه وهو يروكس .
 بها رحمه لا تكون إلا في قنوب الأمهات . قالت قل لي كم
 كان عدد أعضائك الذين فاقهم في تلك معركة ؟ قال مائة أو
 يزيدون . قالت منه ؟ قال للشجاعة اندخرة ، قل وربما كنت
 لا تعلمين أنها امرأة الثانية التي فاقته فيها من أحبك في بلة وحده .
 قالت من أحبك ؟ لم أفهم ما تريد . قال نعم لأنني كنت أذاع
 عن ذلك الشعر المسكين الذي انتصر لك وردت و مثل محصنة
 أصبح جميل في قصيدته التي هجاء بها فحدها عليه ودس له هؤلاء
 الرذع ليعتوه في جميع الظلام . قالت ما أعظم شكركي لك
 يا ابن عمي . وما أكثر شأن تلك الحمة لي أسديتها لي . حديثي
 حديث الواقعة من مديته إلى منهاها فلا بد أن تكون واقعة
 عربية جداً لم يسطر التاريخ منها . قال سأحدثك عنها فيما بعد .
 أما الآن فحدثني أنت عن ذلك الأمر الذي جنتي من أجد والدي
 لم تحترني على أن تقانعي فيه حتى الآن . وقالت وهي لا ترون
 أحله بيده تمسحها وتستهنها . فما وقد ألقب نظرة على
 ماضيها الجميل وحدها عهد تلك الذكرى القديمة وعندما أن
 الصلة التي يربط صلة وثيقة بحكمه لا تال منها يد الدهر ولا تأخذ
 منها عادات الأمام ، فاسمح لي أن أقصص عليك سرّي وأن
 أقول لك بصراسة إني عاشقة يا سبرو ، فتلاها وجهه وانتعشت
 حبه ومشت رعدة خفيفة في أحراه حسنه وكاد مظهره يتم عما
 في يده لولا تجلده واستمساكه وقال لها ومن هو هذا الإنسان
 السعيد الذي تتمتع بجمعة حبك ؟ قالت به لا يعلم شيئاً من
 أسمره له في قلبي حتى الآن ولم أقصص عليه سريرة نفسي حتى

السبعة ، وسيكون سروره عظيماً جداً حينما يعلم أنه الغدا التي
 فيها وتكون وحداً يا ثالث بصرون ها ، فإني سروره وانتاشه
 وقد ألا استطعت أن تعولي في من هو يا ، وكان قد
 مدسعه لك لنكون أول دهن سسه . هو شب حصول شديد
 واحد ، يعني حياً تلك عليه حواسه ومشاعره ، ولكنه يكتم سره
 في صدره ، قد وكف وصمت على مريره منه . قال
 عرفها من رغباف شفته والكمهوار وجهه وتدلله بطرته كلما
 رأي ، قال . ثم ماداً قالت وهو ركي به تلوح على وجهه
 هالاهم التلوي والتلوي .

فأطرق برأيه حياه وحاول أن يجتذب يده من يدها وكان
 قد انتهت من تصيدها ، هانت له دعوى في لآن فهي لا تراه
 منبهه بالخي ، فتركها وهو يقول في نفسه د أسعدني
 وأعظم هاني ، واستمرت في حديثها فهو وهو فوق ذلك
 شجاع مقدم شريف النفس عابى اهمه ، بأى الصم وأنف الدن ،
 ولا يبس على صبح براد به ، قال مه . قال وهو حندي
 في فضيله شبان الحرس أي فصلتك . سيرانو . فهمهم بين
 شفته لم يبق في الأمر ريب ، قالت أما صورته فهي أحمل
 صورته خلفها قد في تمام ، فصحت عند سماع هذه الكلمة التي
 ذهبت بجميع آساره وأحلامه وتأوه آفة شديدة كادت تخرج فيها
 منه ، فصيحيت لأمره وقالت به ماداً أصديك يا سيرانو
 فترجع إلى نفسه سريعاً وتستجمع من قواه في تلك اللحظة ما
 يجبر أشجع الرجال وأصبرهم عن استجدعه فيها وقال
 لا شيء فقد أحسنت بوح في ينس من تأثير الحسى وبعد ذهب
 الآن كل شيء . وصمت لحظة ثم قال نعم قد ذهب كل شيء
 مسحني مني مصعب إليك . قال لقد أحب هذا الصق حياً

ملك عني عواطفي واستغرق مشاعري ولا عهد لي به إلا منذ
 أيام قلائل كنت أراه فيها خجف إلى قاعه التمثيل . فجلس
 مسروداً وحده فأظفر به من بعد ، وقد جئت لك لأتحدث
 إليك في شأنه . فأطرق هيهة ثم رفع رأسه إليها . وكان
 بصوت ساكن هادئ . ألم تحدثني إليه قبل اليوم ؟ قالت لم
 تتحاطب إلا بالميون ، قال وكيف عرفت جميع هذه الصفات
 التي ذكرت في وما حادته ولا جئت إليه ؟ قالت سمعتها
 منذ أيام تحت أشجار الزبروع في بيدل سكي في مجمع المحائر
 العصوليات لا حراً في لوزنهن وقصوه قد وهن هو
 من مرة الشاب ؟ قالت نعم شبان الحرس ، قال أعترف لك
 يا سبيلني أي قد عجرت عن معرفة اسمه فعولي في من هو ؟
 قالت هو « البارون كرسيت دي بوفيت » قال لا أذكر
 أي سمعت بهذا الاسم قبل اليوم ، قالت به لم سحر العرقه
 إلا في هذا الصباح تحت عياده ، كارتون دي كاستر جيلو
 مصعب هيهة ثم نظر إليها نظره عطف وحو وتدل ها ولكن
 يحيل دلي يا روكسان أنك تطايرين فقلت في هذا أحب مخاطرة
 عظمى لا تدرين ما عاقبه . وثبتت بقى بعصتي في حوزة لا
 تعرضين السبل إلى خلاص سبه . وكانت الوجهه قد فرحت
 من طعامها في هذه اللحظة فصمتت الباب وأطشت برأسها وقالت
 قد مكنت كل شيء يا سيدي فعاد أصعب ؟ فانتصت إليها وقال
 حصلت ذلك ودفرتي ما على لأكبس من الأشعار ، ولا تعودني
 إلا إذا دعوتك . فاضربت وعاد هو إلى إتمام حديثه قد
 أنت . ابنة عمي صاة رفيقه الشعور ذكيه الفؤاد لا يعجزك إلا
 التهور واليروع ولا تأنس فضلك إلا بالذكاء الفارق واللفظة
 النادرة فعاد يكون شأنك عاداً لو أن ذلك الفتى الذي أحسبه

واصله كان بلياً أو غنياً أو صغيراً للذهن أو حاداً ففكر
 قالت : لا يمكن أن يكون كذلك . قال : لا .
 منظر شعرة الذي يطيه في صغره ولحمته منظر شعر أده .
 يدل على بوجه ودكانه ، قال : وما كان جميل الشعر يدع
 الصورة ولكنه بليد الذهن صديق العطر . قال : لا أظن ذلك
 بل يحيل إليّ . ومن لم أحس إليه ولم أسمع حبيته . قال : لا .
 حديثاً ، وأعلمهم سرراً . وأصحهم . قال : وغرهم .
 فقال في نفسه : نعم كل لأفعل حسنه . ثم انهم في بعض
 ما جميلاً . ثم قال : ولكنك قد تصعب لو . ثم قال :
 جاهل أحمق ؟ قالت : قد أموت هماً وكسفاً .
 الذي أعرف عليك . وصعب عليه . وهو يردد به .
 نفسه ويرحمته ما يحيا على شفا عاوية . ثم قال : ولا .
 شأن من شؤونه تريد أن تتحدث إليّ . قال : قد علمت
 دأبهم أمراً أحزني جداً . وأقرب مصححيهم . نعم .
 ساعة واحدة . قال : وما هو ؟ قالت : عشت أن أجد مصيبتكم
 جميعهم من الحاسكيين الحفاد وأهم لا يدور أن يدخل مصدع
 غريب عنهم . فإذا دخل باؤوه وشكوه حتى يخرج
 وربما تملوا عليه الملل فدرءوه وقتلوه . فمطل لمرصه .
 بهم إهم قد يفعلون ذلك وهم ملحق فيما يفعلون . وحده إذا
 كان هذا الواقع عليهم أحد أولئك الأعيان الجهلاء الذين يتصورون
 في ذلك الفقرة من طريق الشفاعات والمصاحبات لا من طريق
 الكفاءة والاستحقاق . قالت : ذلك ما جئتكم من أجله .
 أمجبي موقفك الشريف الذي وقفته به أمس أمامك .
 الواقع الذي حاول أن يبرأ بك . ثم قال :
 واستأقني ثقة لا أكتب لا أزال أعرفه لك طوبى حانك من

الشجاعة والحكمة وعطو أدمه وإزاء الصيم فأثبت إليك أسألك أن
 تتولى كرميتان محماتك .

فصمت سيراو لحظة ذهت نفسه منها كل مدعب وتمت
 له روكسان في صوريين عتقتين قد وقعت إحداهما بحباب
 الأخرى صورة امرأة عاشقة مستهزة تريد أن تسحره في عرض
 من أعراسها الغرامية وتطلب إليه أن يصح يده في تلك اليد التي
 فنته وأنتفت عليه نفسه وإن يكون صديقاً لتلك الفتى الذي
 حرمه سعادته وهنائه وقطع عليه سبل حياته ووقف حقة بينه
 وبين آماله وأماهيه ، وصورة امرأة مسكينة صعيقة من أقرائه
 ودوي رحمة قد نزلت بها نكبة من النكبات العظام فصرخت إليه
 فيها تسأله أن يهبها عليها لفة من بصله وكرمه ، وحنه ومروءته ،
 وهي لا تعلم من شؤن قلبه شيئاً ، ولا تدري أن هذا الذي
 تصرخ إليه فيه إنما هي صفة التي بين جسبه وحياته التي لا يملك
 في يده حياة غيرها .

ثم ما لبث أن رأى الصورة الأولى تتضائل في نظره وتتصاغر
 حتى ثلاثت وأصغلت . وظلت الثانية ثابتة في مكانها ياردة
 واصفة إليه نظرة الصراخة والاحترام وتبسط إليه يد الرحاء
 والأمل ، فالتفت إليها وقد ذهبت من بين أرواده والحة الكرم
 وقال لها بصوت قوي وبان لا تتحله ربة الحزن ولا تمازجه
 صفة اليأس دكوني حطمت يا روكسان لاني سأتولى حمايته
 وما علم أنه قد طلق في بطفه هذه الكلمة بحكم الموت على نفسه .

فألتفت له : شكراً لك يا ابن هي فاعتمد على وعدك ما
 حيث . قال : اعتصمي ما شئت . قالت : ولكن صديقك الذي
 الذي يأخذ بيده في جميع شأنته ومخاطره ، قال : بل أصدق

أصدقائه ، قالت . وحل بينه وبين التمرض لأعطار المازرات
والشاجرات ، قال : إنه لن يبارز قط ، قالت : أقسم لي ؟
قال : لا ، لأنني ما تعودت الكذب ، فخلأ وجهها فرحاً وسروراً
وقالت . الآن يمكن أن أنصرف آمنة مطمئنة شاكرة لك صديقك
الذي لا أنساك قط ، ثم تناولت برقعها فألقته على وجهها وهي
تقول إنك لم تنم لي حديث الواقعة التي جرحت فيها فمضت
عنها قليلاً ، يا العجب ! مائة رجل كانوا صلفاً ؟ إنك كلفه
لكل عزيمة يا ابن العم ، لا تنس أن تقول له أن يكتب إليّ
اليوم كتاباً ! حدثني حديث الواقعة يا صديقي ، مائة رجل ؟
يا للشجاعة النادرة ! إن كرميتان لا يطعم أبي أمية حتى الساعة ،
فكن أول من يحصل إليه هذه البشري ، قل لي كيف استطعت
أن تلقى وحيدك هذا البلد الكبير أو قل لي ذلك فيما بعد ، لأنني
تأخرت كثيراً ، ولا بد لي من الذهاب الآن

ثم هبت ودمت إليه يدها قبضها ، فقالت : إلى اللقاء يا
ابن العم إلي أنظر من كرميتان كتاباً اليوم ، ثم انصرفت . فوقف
على عتبة الباب ، يشهها بظرفاته حتى طابت من عيبه ، ثم عاد
يترجح هماً وحزناً . حتى وصل إلى كرسيه فنهالت عليه وهو
يقول لها تعجب لشجاعتني في تلك المعركة ، وأنا في هذه
الساعة أشجع مني في كل موقف وقفت في حياتي

وكان راجعاً قد أمسح عروج وركبان فأطلق من باب الحجرة
فرأى سيرانو جالساً جلسته تلك فصاح به أمكنتنا الرجوع الآن
يا سيدي ؟ قال : نعم ، فأشار إلى أصدقائه الشعراء فدخلوا
جميعاً ودخل في تلك الساعة قسماً من باب المطعم دكاربون
دي كاستل جالوا قائد فرقة الحرس وهو يهتد بصوت كالرعد :

قد عرفنا كل شيء يا سيرانو ، وإني أعتك من صميم قلبي بذلك
التحج العظيم الذي أحرثته لك أس على أعدائك المائة ، مهض
سيرنو متصصاً وأمعى بين يدي قائده وقاب . شكراً لك يا
سيدي ، فقال مالي أراك شاحاً مصرعاً ؟ وما هذه الميرة
السوداء المنتشرة على وجهك ؟ يحيل إليّ أنك قد لقيت في تلك
المعركة عده عطيماً . قال : نعم يا سيدي ، قد . إن ورائي
ثلاثين جندياً من ثناء فرقتك قد احتسبوا في تلك المعركة الهائلة
هذا المطعم ، وهم يريدون تهتك ولاحتساب باستصارت ، فذهب
إليهم وقابلهم ، ثم قال : لا ، لا بد أن يأتوا هم إليك بأنفسهم
ليهتوك تكرمة لك وإعظماً لشأك ، ثم وقف على عتبة باب
المطعم وصاح بأعلى صوته :

أيها الأصدقاء ، إن البطل لا يستطيع الحضور إليكم لأنه
نصب قليلاً ، فاحصروا أتم إليه ، وما هي إلا هنيهة حتى أنقلب
الجنود الثلاثون برزخون الأرض بحق نائم وصلصة أسحتهم
ويطمطون نائم الحاسكوية ساندبوس - ميل ديوس -
كاتب ديوس - مورديوس - بوكاب ديوس ، ثم دخلوا ،
فصرح راجعاً عند رؤيتهم لما هانه من طول قاعاتهم وصحافة
أحسامهم وكان هم أكلهم أيها نساء جاسكويون ؟ فأجروا
حسباً بصوت واحد . نعم كنا ، ثم اندفع نحو سيرانو يلقونه
ويعانقونه ويهرون بده ويهتفون بيهو البطل ، لنحب جاسكوي ،
ليحب الجيش وهو يمثل في نفسه . ولكنه كان يتشم
في وجوههم ويستعمل تهنتهم له ناشكر والارتياح

وكان خير تلك المعركة قد انتشر في أنحاء باريس جميعها ،
فوجد جمهور عظيم من الناس إلى المطعم يتقدمهم « لربه »

صديق سيرانو وهم يصيرون ليحيا البصل لنحيا فرب ، ثم
دخلوا جميعا يركضون ويندفعون ويخطمون كل شيء بين يديهم
وروحو واقف مكانه يأمل هذا حصر بعرب سرور وارتياح
ويقول واضربا ما هو ذا الفس يتوح اليوم في مطعمي ، حتى
سبح مكال سيرانو قدبرو به يهتونه وينسونه وكلهم سادته
أيها الخج ، أيها الصديق ، أيها الزميل ، فهور في نسمة وعجبا
لكم أيها الناس ! لم يكن في بالكم يسكن صديق ونجوم كدكم
أصغفني ، ووقفت في تلك الساعة مركبة فحمة أمام باب المقعم
وبرل منها ثلاثة من الأشراف فدخلو لحوت ودنو بدعرب
الناس أمامهم دفعا حتى دبو من سيرانو ، فوضع أحدهم يده
في يده وشد عبق بقوة وقاد به أن يوكت ثلثي يا صديقي
مقدار سروري بك وسجاحت ، فانسبت إليه سيرنو غاصبا
وقال له ما أن بصديقك يا سيدي ، لأي ما عرفت على اليوم ،
وقال له لآخر إن بعض السيدات يحطرن في مركبهن أمام
الباب ليهنثن بانفسرك فلو لفصبت عرقتي يهنن لأفصبت
هن ! فقل له وكيف نسبح نفسك يا سيدي أن تقدمي إلى
عربك قبل أن تقدم نفسك لي ؟ وقدم إليه ثلاث أكاس من خمر
وقال له اشرب معي يا سيدي خب نأنت وشعاعث ، فانسبت
إليه وقال له يحل لي يا سيدي أن أشجع معي ، ذلك قدما
إلي شيئا قبل أن تسم ما رأيي فيه ، ثم دفع الكأس عه بقوة
فهرقه ، وجده أحد مراسي الصحف ، وقد نمت نسمة
قدما ونسره عرطاسا وقال به فسن عي حديث وفست أيها
الفراس انبطل لأشره في حردني فصر إليه شرا وقال نه
لاني م أقابل من أحلت يا سيدي - ولا من أجل حردنت بل من
أجل صديقي لير ، فتعلم ليريه من حشوته وحفائه وكان

سأله ع معربة من عديده من ثوبه ، وقال له هسأ ما الذي
أصابت سيرنو ؟ وما هذه حشوته التي تستقبل بها أصداقك
الذرة لك ؟ وعجوبت ؟ هسأ له لا تصدق كل ما تراه
يا سيدي ليس في في العالم صديق سواك

وهذه القصة إذا ساد السكون وانقطعت الصوضاء وانفجرت
خمسور صديق مقربين حاشين مستكينين ، وإذا الكوت دي
حشأ له في العرجي المقعم هد أقبل يحمر أديابه ويسند أفقه إلى
كبد نسمة عديده وحيلة ووراءه كثير من الأشراف ورجل
أعيتن سني نوسه لناعه فوقف وبأدي بن سيرانو فالتفت سيرانو
فرآه عدهش وقال في نسمة لعله جاء أيضا لتهنني ، وثن فعل
لكون أعجونه لأعجيب ، ثم أحياه وهو والف مكانه لا
يتحرك ، ولا يجتمل ، ها أن ذا يا سيدي ، قادم أقدم إليك
تهنني ، وأبعث أن حسب القائد العام فرشل دي حسيون ،
قد أمرني أن أبعث تهنئة لك وثناء عيتن وعجونه يث وغبطة
بعينك العظيمة الذي قصت به ليلة أمس وأصفت به في سجل
شجاعته الشرسية صفحة من أشرف الصفحات وأجده ، ولقد
كان في شئ من صحة الخبر ، لولا أن أقسم به بعض الصباط
الذين صحبوك بيه أمس إلى ، باب بيل ، أنهم شاهدوا الحادثة
بأعينهم ، فرفع سيرنو نظره إلى الكورنك مهدوء وسكون ،
وقاد به لا شئت أن للمرشال قدما واسعة في القلوب الحربية
وأسيبها ومثله من بعدد أقدار الرجال فلعنه شكرني ، فدهش
الناس حوربه حشأ حشأ ، ودار عقلم بويه حتى كاد ينمجر
غيطا وحما ، إلا أنه دسك وتصد وهس في أدبه ، يا هس
لا يتيقن مطلقا ، قل به كلمة شجمل من هذه ردا على بحية
وستقبل النصيحة كشها ، فصص سيرانو هيهه ثم قال بصوت
حاشب دعي يا بويه فإني لا أطيع أن أشكر رجلا جاء

تفتني وانتصاري عليه ، فقال له : يحيل إليّ أنك متأمّل يا صديقي ،
فانتقص سيرنو ، وقال أنا لا ، أنتن أبي أنأم آدم أحد
مهما مرح بي اعم وأقصي ، أو أسمع بدو من أعدائي أن
يشمت في ويري بيبه مضر نوسي وشفتي ؟ مضر قليلاً مضر
تري ، وكان الكونت قد جلس على كرسية لمده به حله العظمة
والكبرياء ، فالتفت إلى سيرنو - وقال له سمعة الساحر الغاري .

إن تاريخك ، مسيو سيرنو حافل بحدوث والوقوع ويحيل إليّ
أبي رأسك في فرقة هؤلاء الخاسكيوين الشاهدين أيس كذلك ؟
فصح خاسكيوين جميعاً نعم هو في فرقتنا وما ذلك الفخر
العظيم ، فالتفت الكونت إليهم وقب نظرة في وجوههم ، وهم
وقوف بجانب قائلهم ، كاريون دي كاستل حانو ، وقال
أكل هؤلاء الذين نوح عليهم عمائل العظمة الكدية خاسكيوين ؟

فهذه كاريون يسيرنو ، وقال له تحصل أبي بطل الباس
بتصميم مرثي بلتيانه عني إلى حصرة القلعة العظيم - فمشى سيرنو
عبر الكونت حطوبين وأخذ يمدّم إليه العرفة بموشع بديع درجته
في الحان وحسنه الياء عليهم وتثويه نصيبهم والإشادة بذكورهم
حتى أنه ، فأعجب الكونت ببدايته وحضور ذهنه وقال في
نفسه إن اصصاع شاعر مجيد كهذا الشاعر مصورة عظمى من
يصطنعه ، وليس من الرأي أن نعت مثله من أيدي ، ثم سنده

منه وقال له : أنجب أن تكون في يا سيرنو ؟ فانتقص وقال
لا يا سيدي ولا لأبي يساب ، قال إن خافي الكردينا - ريشليه
كثير لإعجابك بث وما أدركت ونجب أن يردك ، فإن شئت قدمتك
إليه ، ولقد قيل في ذلك نظم مد عامين روية تحليلة جميلة
لم توفق يد تشبه حتى اليوم - فلو أشئت ذهبت بها إليه وودعتها
له لعرفت لك فصلك هي وأحسن حراك عليها كما أحسن من

قل إلى عيرت من الكتك والشعراء ، فهمس بربيه في أذن
سيرنو فله آت لروايتك : أجريين ، أن نحن فليهلك ذلك ،
فهم ينتصف ليه سيرنو . وقال للكونت نعمه سحر المهكم
أحق ما نقول يا سيدي ؟ قال : نعم والرحل كما تصمون أديت
بارع رشح القدم في القفد الأدبي ، وسيطر في رويتك هذه نظر
الدقة البصير ووعا أجرى فيها قلم تهلبيه وتفتحه فجاءت آية
الآيات في حسبي وحماي ، فاكشهر وجه سيرنو وتقصّد حبيبه
عزفاً ، وقال للكونت : ذلك مسجّل يا سيدي ، وزد دمي بجمد
في عروقي عندما أعيل أن إنساناً في عام يحدث معه تغيير حرف
واحد من قصيدة من قصائدي ، وما أن في حاجه إلى الاستعانة على
أدبي بأحد من الناس كأنما من كان ، قد ولكنك تعلم أنه إذ
أعجبه بيت من الشعر دفع ثمنه غالباً ، قال : نعم أعلم ذلك ،
ولكنه لا يستطيع أن يبدل فيه ثماً مثل الذي بدلته ، لأبي إنما
أسكب فيه دم عبي حاراً ودم القلب أعلى قيمة من القصة والذهب ،
قال : وإلك أبي النض يا سيرانو ، قال : نعم ، وقد كان حديراً
بك أن تفهم ذلك من قبل

وهنا دخل رجل يحمل على يديه قعانت كثيرة فقرة كان قد
وجدها في ميدان المعركة عد ، باب بيل : من آثار الفارين والمنهريين
فألقاها بين يدي سيرنو ، وقال له : هي أسلاب المعركة التي
تركته احتقاراً لها وردء بها قد حشنها إليك ، لا لأب تستحق
صينتك والتعديت ، بل لأنها دليل قطع على جين أعدائك وذل لهم ،
فصاحت جمهور طويلاً وحلوا يهنون قبعت اغاريين ! وقال

(١) ما يذكر من معآثر الكردينا ، ريشليه أن مثلاً ، لجمع الصبي العدمي
: الأكاديمية : ، والله أكبر عون في حصرة للأدب والأدباء .

سيرانو ، وهو يصر خصمه إلى وجه الكوت بسه شعري من هو ذلك الحبل المتدل الذي جرد مثل هذه حش السور ليحارب به شاهراً مسكيناً ؟ ما أصبه الآن إلا خزيين نادماً يتنقى أن لو اعرجب لأرض تحت قنبيه فهو في أعماق أند لأبدين ، فصاح المجهور من كل دحية - لأشك في ذلك - فارتعد الكوت عجزاً وارتعد وجهه وصاح بصوت أجش كهمهم الرعد ماذا تفعلون ؟ أأ الذي جرد هذا الجيش السهل كنه تفعلون لأنني أردت تأديب ذلك الرجل النوقح السيء - ولا يبري تأديب ماعل دله مثله إلا سفلة أديب - فقهقه سيرنو صديكاً وأخذ ينمغ القبعات عند سيقه ، ثم دفعها تحت عديم الكوت ، وقال به ود يمكنني يا سيدي أن أكتشف بريد هذه القبة - إلى أصدؤك

فتار الكوت من مكانه غاصاً ونظر إلى سيرانو بصورة ملهبة ببعث الشر من حوشها ، وقال به هل قرأت في الرجل الذوق كيثوث ؟ قال نعم قرأته وأنا حاسر برأس أعجأاً بذلك البطل الشريف ، فل أتذكر من قصصه قصة تطو حين هو ثوبه ؟ دعني سيرنو وقال نعم في الدب الثالث عشر ، قال ما رأيت عيس نخود مباحه بك أنظر حين أو عثرص سيبها ؟ فقطع سيرانو لما أراد ود - ما كنت أفس أن عذائي طوح حين هو ثوبه يذهب مع كل ربع ، فاب - بعد أدرعها الطويلة لتدور من جسر على مقدمها وتهدف به في أفوه العصفه ، فاب أو الكوكب العذلي ، فصاح الكوت مركتي وحدي ، فاستمر الأشراف سعيدة أمرة وصوب يدهم كصوب

(١) رجل عذابي يهمل الكاتب الإسباني للشهر ٥ بحول حرفائش ٥ فبالا لغت قنابه تنسكه اسمه هذا الاسم التي ألحها به ٦ وكان ميسراً للشاعر الإنكليزي ٧ شكسبير ٨ وجلب البلاحيين طوئية أهد أبواب تلك القصة

ويشدهم كأنهم بعض الحدم ، وما هي إلا لحظات حتى حصرت المركبة مخرج الكوت وخرج مخروجه جميع الأشراف والبلاد ، من حصر منهم معه ومن حصر قبل ذلك لا يجوز سيرنو ولا يلبون منه ولا يرمون أنظارهم إليه مصافة للكوت ومداخنة ، فمشى وراهم سيرنو يشيهم إلى الباب وهو يقول لهم ماذا دعاكم يا أصدؤاني ؟ ما لكم تعرضون عني وتعرضون عني ؟ ما نكم لا تودعون البطل الذي جثم الساعة لتنهته وتكرمه ؟ وما زال يشيهم بأمان هذه الكلمات حتى ركبوا جميعاً مركبتهم وانصرفوا

فعاد إلى مكانه لأقول وهتف - لبريه - فليابه فاستنداه منه واحتضنه إلى صدره وقال به - ألم أقل لك أيها الصديق إنه ليس لي في العالم صديق سواك ؟

نفس الشاعر

نكس لبريه رأسه ملياً ثم نظر إلى سيرنو نظرة حربية مكثبة وقال به - قل لي أيها الصديق ماذا أعددت نفسك من الوسائل عداً للخلاص من هذه الهوة العميقة التي غلفت بنفسك فيها ؟ وسمع لي أن أقول لك إنني قد جئت هنا لا أدرى كيف يتكلمت بده خارج للارستان ، أليس كل ما تستطيع اللود عن نفسك في سلوك هذه الخطة المسراة أن تقول كل يوم - إنك تحب أن تعيش حراً مستقلاً في حياتك لا يسطر عليك أي مسيطر من القيود والتقييد ؟ فليكن لك ما تريد ، ولكن هل تستطيع أن تفكر أنك مضاف منظر ؟ إنني لا أحبب إليك شيئاً سوى أن تعرف لي بذلك ، فاستم سيرانو وقال له - إن كان هذا هو كل ما يرضيك فلي اعترف لك به ، فتهلل لبريه فرحاً وقال له - آه لقد اعترفت أيها الصديق

فلزمك الحجة التي لا قبل لك بدفعها ، قال اني لا أنكر يا
لبره اني محال متطرف كما تقول ولكن في سبيل اللأ والفكرة .
والمتطرف قبيح في كل شيء إلا في هذا السبيل . قال ولكنك
في حاجة إلى شيء من حسن السياسة وسعة الصدر ولين الجانب
لتستطيع أن تنص إلى المجد الذي تحبه وتنشقه . فاستوى ميرانو
في مكانه جالساً وقد ظلت حبه سبحانه سوداء من الملم واستحالت
صورته إلى صورة مريسة عيفة وقال ماذا تريد مني يا لبره
وما هي الحجة التي تحب أن ترسمها لي لأفعد من طريقها إلى
المجد الذي تتحدث عنه وترغم اني أنضمه وأصير إليه ؟

أتريد أن أحمده في حياتي على عيري وأد أصح رمان نفسي في
يد عظيم من العظمة أو بيل من اللأ يعظمي ويحيي موثة
عيشي ويحمل عني هوم الحياة وأثقالها فيكون مثلي مثل شجرة
والليلاب لا عمل لها في حياتها سوى أن تلتف بأحد أطوار
تلقق قشرته وتغصص مادة حياته بدلاً من أن تنهد في حياتها على
نفسها ؟ ذلك ما لا يكون

أتريد أن أحمل نفسي على عاتقي كما يحمل الدلال سلمته
وأدور بها في الأسواق منادياً عليها من مكهم أيها الأعباء
والأثرياء والورراء والظماء وأصحاب الحناء والسلطان يتابع حناً
بلمتها وصميرها وعواصمها ومشاعرها بلقمة عيش وخرقة مده ؟

أتريد أن أنصب نفسي سحرة في الأندية الخاصة والمجتمعات
العامة ، ألعب كما يلعب القرد . وأنطق كما تنطق البعاء ،
وأتلو كما تلوو الخرفاء ، رحاء أن أحد الصائفة من عبي أمير ،
أو أرى اجتماعاً على شفتي وزير ؟

أتريد أن تستحيل ظمئي إلى قوس من كثرة الاعتناء ، وأن
تتهدد أحيائي من كثرة الإطراء والإعطاء وأن أختص عوق
ركتي قطعة صميكة من كثرة السجود والخني بين يدي العضاء ؟

أتريد أن يكون لي لسانك ساد كادب أمدح به ذلك الذي
اصطحي واحبني . ولسان أمدح به عيونه وسنناته ، وأن يكون
لي وجهان وجه راض عنه لأنه يمدح عني وعيبي ، وجه
ساعط عليه لأنه يستعيني ويترقي ؟

أريد أن أصي حياتي كله واعياً وسد دائرة وحدة أئب
فيها وأظفر وأشغول نفسي ليوهم الناس أني طويل وما أن
طويل أو أمد لي بوقاً صححاً أضح به يوههم السامعون أني
جهوري الصوت وما أنا إلا نافع لي بوي ؟

أتريد أن أسير سعيه شعري في عالم تأخرع العضاء والكبر
بدلاً من التجاذيف التي أغتها نأسي ، وبشعور « المواقف »
العابيات بدلاً من الأشرعة التي أسجد بيدي . وبسيدات
الأميرات العاشقات بدلاً من الريح الحاررية التي يسخرها لله في ؟
أريد أن أحمل حياتي الأجيبة حب رحمة المفرطين والتافدين .
والرصين والساحطين ، فإن شامو رموي يد غياه السوء ،
وإن شاموا هووا يني إلى أعماق الجحيم ؟

ذلك ما لا يكون ، الموت أهون علي من ذلك .

أريد أن أعشر حرّاً مستعلاً لا أحثي أحداً ولا أهد شيئاً ،
لا أصي بهند خرائد التجارة الساقطة ، ولا بفرحي أن تشر
الصصف الكيد سبي بالأحرف الصالحة في أكبر أهداها .

ولا أبالي أتداول الناس قصالدي وتلارسوها ورنيت نغماتها في أرجاء المسارح ، أم بقيت في كسر خزائني أقرأها بنفسي لنفسي وأتغنى بها في ساعات وحشتي وخطوتي ؟

أريد أن أعيش حراً ، أضحكك كما أشاء وأبكي كما أريد ، وأحتفظ بنظري سليماً وصوتي رناناً ، وخطواتي منتظمة ، ورأسي مرتفعاً ، وقولي صريحاً ، أنظم الشعر في الساعة التي أختارها ، وفي الشأن الذي أريده فإن أعجبتني ما ورد عليّ منه فذاك ، وإلا تركته غير آسف عليه وأخذت في نظم غيره بدلاً من أن أتوسل إلى الطابعين أن ينشروه ، والأدباء أن يقرظوه ، والممثلين أن يمثلوه ، والعظماء أن ينوهوا به ويرفعوا من شأنه .

أحب أن لا أنظم من الشعر إلا ما يجود به خاطري ، وأن لا أنظم إلا بالطريقة التي أريدها أنا ، لا التي يريدونها الناس لي ، وأن لا أمتنع نظري إلا بمنظر الأزهار التي أغرسها بيدي في حديقتي . فإن قدر الله لي منزلة في الحياة فلن أكون مديناً بها لأحد غيري ، ولن يكون فخرها عائداً إلا عليّ وحدي ولا أسمح لأحد من الناس كائناً من كان أن يرفعني بل لا بد لي أن أرفع نفسي بنفسي .

أريد أن أعيش حراً طلبياً أفاضل من أشاء ، وأجادل من أشاء ، وأنتقد من أشاء ، وأن أقول كلمتي الخير والشر للاخبار والأشرار في وجوههم ، لا متعلقاً أولئك ، ولا خائشاً هؤلاء . إن العبد المقيد بقيود الإحسان والنعم لا يمكن أن يكون حراً طلبياً . فليعني الناس من أيادهم وصنائعهم لأنني لا أحب أن أكون عبداً لهم ، ولا أسيراً في أيديهم .

وآخر ما أقول لك أي أفضل أن أعيش ممقوتاً مرفولاً عند الناس على أن أعيش دليلاً مستعبداً لهم ولا أحب أن أرتفع ارتفاع الريزفون والسرور إذا كانت اليد التي ترفعني غير يدي ، وحسبي من الرفعة والشرف أن أدال منها نصيبي الذي قسم لي قدر ما تسمح به قوتي وموهبي لا أريد على ذلك شيئاً ، فقال له ليربه : عش بنفسك وحيداً كما شئت ، ولكن لا تكن عدواً للجميع .

قال ربما أكون معانياً في ذلك . ولكن ما دعاني إلى المغالاة في المعاداة إلا معاداةكم معشر النكسين والمتعلمين في المصادقة والموالاة . ونصعكم في احتداب الخلان والأصدقاء . وما بغض إليّ التواد والتحاب إلا بعضي لتلك الابتسامات الباردة الثقيلة التي تفرج عنها شفاهكم كلما قابلتم صديقاً أو عدواً ، شريفاً أو وضيعاً . كريماً أو لثيماً . حتى أصبحت لا أحب شيئاً في العالم حيي لبغض الناس أباي . ولا أكره شيئاً كرهني لحبهم لي وتوددهم إلي .

هذا هو عيبي الوحيد الذي لا أعرف لنفسي عيياً سواه ولكنه عيب يعجبي جداً ويبد لي كثيراً . وإنك لا تستطيع أن تدرك مقدار ما أجد من اللذة والعبطة في نفسي عندما أسير في طريقي فأراه مملوءاً بنظرات البغض ملتهباً بنيران الحقد وأرى نفسي محاطاً بنطاق محكم من قلوب الساحطين والناقمين .

أما الشئام التي أسممها وللمعات التي تصوب إلي فهي أشبه الأشياء عندي بذلك البرد المتساقط الذي يتناثر من الجو على رداي ثم ينزلق عنه إلى الأرض فأدوسه بقدمي .

بأن الصدقة النبوية تشبه تلك التي يسمى ورائها الناس أشبه
شيء بالياقة الإيطالية اليه التي تنهدل حول العنق فيهدل العنق
معها . فهي وإن كانت بنة مريحة إلا أنها رخوة مهلهلة ليست
هذا مسكة ولا قوام .

أما العذراء فهي الدرع الفولاذية الصلبة التي تمور بالحلم
تحتفظ كبدنه وقوته وتمعه عن أن تصعب أو أن حور . وكل
عدو حدث هو حقيقة حديده في تلك الدرع القوة المتنة

فقال لبريه إني لم أرك في حياتي راصباً عن المعص مثل
اليوم ، وإن عصي تخدني بأن كآرته من الكراوت المصلى قد
نزلت بك فأتارت هذه الخواطر في تفكك

فصعرت سريره وحيث صورته وهذاب تلك الزوجة التي
كانت ثائرة في معه وقال ماذا تقول يا لبريه ؟ قال أطش
أنك قد عرفت منها علما فابتها أب لا تحك . فأنت نادم على
الحب راض عن بعض ، فكسر رأسه وصمت صمتاً طويلاً
لا يقول فيه شيئاً ، ففهم لبريه كل شيء .

الحركة النفسية

وفي هذه اللحظة دخل المظلم البارون كرسيان بحتال في
حالتة الخيلة وروحه الشائق البديع ورأى أثناء فرقة محسوس
فتقدم نحوهم فلم يباؤا به وحاول أن يندخلهم ويتحب إليهم
كما هو شأن أبناء لفرقة الواحدة عندما يجتمعون في مكان واحد
فاصموا عنه وتسلوا من حواره فلم ير بداً من أن يتبد مكاناً
قصياً ويجلس فيه وحده ، فم يقفهم ذلك منه حتى أرادوا

إزعاجه وإفلاقه وكان من شأنهم كما حدث ، وكناس عنهم
أهم لا يحول أن يخل فرقتهم غريب عنهم عصبيه لأنهم
واحتفاظاً بجماعتهم ، والحويون في قرب يظفرون دائماً إلى
الشماليين بين المص والارءاء ويسمون ترفهم ونعومتهم صعباً
وحناً . فتش أحدهم إلى سيرانو وقال له وهو يعمر كرستيان
بعبه قد كنت وعدتنا يا سيدي مد هبة أن تعص علينا حديث
الواقع التي انتصرت فيها ليله أمس على أعدائك الشماليين الحياء
فحدثنا ذلك لحدث الآن ليكن درساً تديبياً لهد الفتي الشمالي
الثالث . وأشار إلى كرستيان فانتصرت كرستيان عصياً والتفت إلى
المكلم وقال له ماذا تقول ؟ وكان سيرانو مشغلاً بمحاولة
صديقه لبريه ، وكان يعصي إليه بشأن مع روكسان فلم ينهر
بشيء مما حوله فحركة الفتي ومشى إلى كرستيان فوقف أمامه
وقال له عندي نصيحة لك أي السيد أحب أن أخدعها إليك
لنتفح بها في مستقبل حياتك معنا ، فألقى عليه كرستيان نظرة
ارءاء واحتقار وأشاح بوجهه عنه فقال له الفتي : أترى هذا
الرجل ذا الألف الكبير والسحنة المعجمة الجالس هناك ، إن هبنا
كلمة لا يجوز لأحد الطفق لها أمامه مطلقاً كما لا يجوز التعلق
بكلمة الحل في بيت المشرق وأحب أن لا يهزلك الدم بها صماً
عيناك . فصعب كرستيان لأمره ورفع رأسه إليه وقال أي
كلمة تريد ؟ قال انظر إلى وجهي ففهم معاهاً طاني لا أستطيع
النطق بها ! ثم وضع أصبعه على أنفه ، وهو يلتفت ويتسحر ،
فقال له أترى كلمة الأذ فقاطعه الفتي ، وقال صه إياك
أن تتدعها فسمعها فيكون فيها هلاكك فلم يرفع كرستيان
طرفه إليه أنفه وكبرياء فتقدم نحوه فتي آخر وقال له ولا بد لك
أن تعلم أيضاً أن أحداً من الناس لا يحدث صه عناوة هذا

الرجل أو عايشته إلا إذا كان من ربه أن يلاقي جمعه قبل نهاية
أجله ، ثم وقف به آخر وقت به . احب حذر كله من أن تعلق
على مسمع منه هذه الكلمة أو ما يشبهها لا تصرفاً ولا تلميحاً
ولا كذبة ، ولا تعريضاً ، فقد فشل في الأسبوع الماضي رجلاً
أحبب لأنه ظنه يتحالف هزماً به وسجيرة . وقتل آخر منذ
يومين لأنه أخرج متدليه من جيبيه وأدناه من أنفه .

وهكذا ظلوا يتقدمون عزم واحداً بعد آخر يدورونه ويحسون
في أدنه بكلدت مختلفة ويشيرون بين يديه بإشارات عرية هزلاً
عليه وإلهافاً له ، وهو صامت ساكن لا يرفع طرفه إليهم حتى
يرم هم ، فتنهض من مكانه هبوة وسكون ومشي إلى الكاريون
دي كاستل ، قائد الفرقة ، وهو جالس على كرسيه فوق بين
يديه وقال له : ماذا يصنع الإنسان يا سيدي القائد إذا رمت به
يد المفادير بين جماعة من الخويين الوقحة ، وهم لا يزالون
يشاكسونه ويأوتونه ويستثيرون خطه وحيلته بعدتهم ووقاحتهم ؟
فأجابته القائد بساعة هير مختل به . ولا تكترث برمي هم
على أنه ، وإن كان شاكياً فهو شجاع مثلهم ، فاعني كرميتان
بين يديه ، وقال سأفعل ما أشرت به يا سيدي ، وعاد إلى
مكانه الأول .

وكان سيرانو قد فرغ من حديثه مع لبريه واعتدل في حبه
فخرج إليه اخوه وأحاطوا به وقالوا : حديث يا
سيرانو ، فأنجبه إليهم وأشأ بقص عليهم قصته ويقول

تقدمت نحوهم وحدي منفرداً ، وكان القمر يلعب في قه
السماء لمعان القطعة النضبة في زمال الصحراء ، ثم لم يلبث أن

عشبهه سبحانه ذكاء فص الظلام حاداً مدحماً لا يستطيع لمرة
أن يرى فيه أبعد من ... لقطاطيه كرميتان وقال : «أنفه» مدحش
القوم وحضر وجه سيرنو وبهات في نفسه ثم صرح بصوت
كهرجيم الرعد قائلاً : من هذا الرجل ؟ وهم : «مخجوم عليه
لغنته» به فقال له أحد اخوه : هو رجل شمالي دخل فرقنا
صباح هذا اليوم فجمد سيرانو في مكانه دهلاً وعر غاصره
كدمج النصر حدثت روكسان هناك صبيح هذا اليوم وما
اسمه ؟ قال : يرغم أن اسمه البرون كرمسان دي بوفيت .
فتصمصع سيرانو وتحدث وشعر أن عبه تنصرت من بين حبيبه .
وقال آه ، إنه هو . ثم سحبت صورته إلى صورة مرعه
جمعه وحملت أطرافه ترتجف وتتحاف شديداً فتهدت من كرمي
مكانه وصمت صمتاً غريباً لا حسن فيه ولا حركة ثم أبعد
بعود إلى عبه شيئاً فشيئاً حتى هذا دقائق نظرة على اخوه الخفيين
به وقال هم ماذا كنت أقول لكم ؟ آه لقد تذكرت . كنت أقول
إن الظلام في تلك الساعة كان حاداً جداً حتى إن المرء لا يستطيع
أن ينظر إلى أبعد مما تحت قدميه . وتوقف عن عدم كلامه لأنه
تذكر مقاطعة كرميتان إياه عند وصوله إلى هذه الكلمة فوالت
من مكانه وثبه النسر الخدش وهجم عليه هجمة ما كان عند خاضرت
ريب في أنها تعمل في طياتها فوت الأحمر ، وهو يطمطمع نتهجته
الخاسكويه مورديوس ميل ديوس ، ولكنه لم يبلغ مكانه حتى
جمد أمامه جمود التثاقل فوق قاعدته وحل يرغر رفيراً متناً
ثم تراجع هبوة وسكون إلى مكانه الأول والقوم يتبعونه بأنظارهم
ويصيحون لأمره ويعبون في أنفسهم ماله يقدم ، ثم يعجم
وما الذي يبدو به فيرجع بعد اندفاعه ، وما هي إلا هبة حتى
هدأ وسكن وعاد إلى حديثه عزم . كنت أعلم أنني مقدم على

حطرت من أعظم لأحطار وأبني إلى حارب في الحقيقة رجلاً
 عصم حده والسلفان لو شاء أن يسحقني فقدمه كذا سحق السائر
 النحلة يدارجه في طريقه لئلا يفلت من لو شاء أن يصعدي بين
 قذاطعه كرسيتان ، وقال « مسخرة » فاهتر سيرانو في كرميه
 عنه ويسرة وعلا دمه في رأسه عبيد الله في مراحله ، ولكنه
 لم يتوقف بل استمر في حديثه يقول بين شذيقه ما حان بينه
 وبين ذلك حائل . لأنه صهر الكادريال ، والكادريال هو كل
 شيء في غرب . وموت في ساحة صعب كنت أقول فيها لتعني
 وهذا صهر إد كرسيتان كأنه يحاطه - إنك قد عرصب نفسك
 أبها الرجل مسكين بنهورك وحسوك للهلاك الذي لا يدرك منه ،
 ووصفت أصعبك بين الشجرة والحطب ، وليس بكثير على رجل
 قدس مستبد كهذا « رجل أن يرغم قذاطعه كرسيتان وقال
 « أفك » فتعصب سيرانو ، وكأنه لم يسمع شيئاً وقال « زد ذلك
 على ما يريد . ولكنني لمجدت واستعسكت ، ولم أعبأ به
 إلا عبراب حبيبها . وقت في نفسي سر أبي الحاسكوني
 لخر ومصر في سيدك قدماً لا تحتفل بشيء . ما يترص صديقك
 وتم بواحيك الذي حملت عليه كما يفعل آخر الشريف ، وينا
 أن أنكر في ذلك أد لمت شيئاً من أولئك الأشقياء بيء في في
 هذا الظلام الخلاك المدهم صبرة قوية . فما هو إلا أن لمتني
 حتى رغبت منه بأسرع من صرة السيف فألمسني عليه ، ولكنني
 لم أثبت أن وجدت نفسي في الحال وجهاً لوجه . قذاطعه كرسيتان
 وقال « لو أنما لأفك » فرأى سيرانو رليراً جليماً ووصح يده
 على مبعص سبه وصباح « يا لصوعن السماء ورجوعها »
 هصر القوم وأيقرو « انشرو وأتلوا إليه أعانهم مد . بعض فلم
 يفعل شيئاً ، بل استمر في حديثه يقول .

وحدثت نفسي أمام مائة من العوام الساطنين تم ثيابهم البالية
 وأريائهم القبيحة عن حمارتهم وسفالتهم وتضاعف من أرداهم
 القلوة ورائح كريهة تملأ قذاطعه كرسيتان وقال « أفك »
 فاصحرت شفته عن مثل ما تفرج عنه شفتا الليث ، ولكنه لم
 يلتفت إليه واستمر يقول تملأ أخو وتزق النفس ، فلم أتردد
 لحظة واحدة في الهجوم عليهم ففتكت ثائبي عنهم ، ثم اتهمتهم
 بثلاث ، وإذا بأحدهم يصبوب إلي سهماً ... قذاطعه كرسيتان ،
 وقال « أنصأ » فلم يستطع على ذلك صبراً ذهب من مكانه هبوب
 العاصمة وصرخ صرخة عظيمة « خروجو » من هذا جميعكم
 ودعوني مع هذا الرجل وحدي .

فغروا من وجهه جميعاً يستنفون الباب ويترأصون ويهيس
 كل منهم في أدن صاحبه . إنها ولبة الأسد ما في ذلك ريب ،
 ورجو بقلب كفيه حزناً وأسماً ويقول . وألسنا عبيد أبي
 الفتي المسكين ، ما أحسبها إلا لحمة الطرف حتى أراك قطعاً
 متناثرة على مائدتي .

فلما خلا المكان سيرانو وصاحبه ظلا يتناطران ساعة في
 صمت وسكون لا يفوهان بحرف واحد وكرسيتان ينتظر وقوع
 الكارثة ويتأهب لها تأهب الحريء المقدم ، ثم ما لبث أن رأى
 سيرانو يتقدم نحوه رويداً رويداً حتى وقف أمامه ووضع يده
 على خاتمه فارتمد كرسيتان ارتعاداً خفيفاً ، وينا هو ينتظر عاصفة
 من الشر تهب عليه إذ سمعه يتأدبه منمة لطيفة هادئة ويقول
 « سيدي كرسيتان ! فرفع طرفه إليه فرآه باسماً متلطفاً صعب
 لأمره وقال له : ماذا تريد يا سيدي ؟ قال « أريد أن أعانقت
 وأقبلك أبها الصديق لئلا ألقى ، فظل كرسيتان يظر إليه نظراً

حائراً متصعباً لا يفهم من أمره شيئاً ، فقال سيراو : تماد
إليّ ، وقلني طري أخوها ، وقد بعثني برسالة إليك فاستمعها .
فرددت خبره كرسيد ولم يفهم ما يريد وقال له : أخو من
يا سيدي ؟ قال : أخو الفتاة التي نحبها ، قال : أي فتاة تريد ؟
قال : روكا ، قال : أنت أخوها ؟ وظل يلف نظره في
وجهه كأنه يفتش عن وجه الشبه بين الآخرين فلا يجده ، فعرض
سيراو لغرضه وقال : أخوها تقريباً ، أي ابن عمه . فتألفاً
وجه كرسيدان سروراً وقال : هل حدثتكَ عني ؟ قال : نعم .
قال : وهل أخبرتك أنها تحبني ؟ قال : نعم . فاردد سروره
واغتباطه وقال له : ما أحسن هذه البشري التي حتى بها يا
سيدي وما أعظم شكركي لك ، فابتسم سيراو وقال : ما أعزبت
عندك القوموس وما أسرع نصائبها . فقال : اعف عني يا سيدي
فقد سألت إليك ، قال : وما رأيت في تلك لأهيات التي رميتني
بها بد هبة ! قال : إني أسرتها جميعها وأسئ تحت قدميك
معتدراً عنها معتمداً على كرمك ورحمتك . قال : لأن أستطيع
أن أقول لك إنها أعزبت في ثيابها تحبك جداً شديداً وشرعاً ،
وتضمر لك في قلبها من الوجد مثل ما تضمرها ، وقد كلمني
أن أقول لك إنها تتعجب منك اليوم كثيراً . قال : وأساءه ، ذلك
ما لا أستطيعه ، قال : وم ؟ قال : لأني رحلت عاجلاً من جميع
المواهب ولم يزل لا أمسك حبة من حبي الذي غير حلية الصمت ،
فإن عطلت منها هلكك وتضعت ، قال : عجباً لك . ألا
تستطيع أن تكلم كثيراً ؟ قال : لا ، لأنني عني سيدي قال
ينك معاً جداً وحسنت من الذكاء أمث تعرف مقدار نفسك ،
على أن أسوءك في مدبعتي ومدبعتي بيد على أنك لم تحرم
فصحة شجاعة والذكاء ، قال : أستطيع أحياناً أن أكون شجاعاً

إذا كان الحديث بيني وبين رجل ، أما المرأة فإني أصعب الناس
منة بين يديها . قال : ولكنك جميل ، واحتمل قوة يستمد
حتها اللسان فصاحته وبيانه ، قال : لا أنكر أن نظراتي تأثراً
خاصاً على النساء ، وأني ما مررت بين إلا استشرت بجمالي
إعجابي ودعشتي ولكي أحوب حياءً وخجلاً إذا جلست
إليهن أو جمع الحديث بيني وبينهن ، ورعاً استطلعت في بعض
الأحيان أن أتحدث إليهن في بعض الشؤون العامة التي لا تتحاشى
فيها أحد أحياناً حتى إذا وصلنا إلى حديث الحب كان الموت
أهون عليّ من أن أنطق بحرف واحد فيه ، قال : إني لأعجب
لأمرك جداً يا كرسيدان ، ويجعل إليّ أنني لو كان لي مثل حظك
في الجمال لأحسنت الكلام في الحب ، قال : ويجعل إليّ أن
أبداً أنني لو كان لي مثل حظك في الفصاحة لاستطلعت الكلام
فيه ، قال : إني أستطيع إذا جلست إلى النساء أن أستثير بجمالي
إعجابي ودعشتي ، قال : وليني أستطيع إذا جلست إليهن أن
أسترحي بياني أساعهن .

وحسنت كرسيدان لحظة ثم قال : لقد حدثوني عنها أب فتاة
ذكية متفوقة تشفق في الرجال الذكاء والفطنة قبل أن تشفق
فيهم الحسن والجمال ، فإذا يكون شأني معها إذا كتبت إليها
كتاباً فقرأته فلم تزين سلطوره إلا عياً وركاكة وصعباً واضعرباً ؟
فقال وهو يصمد نظره في وجهه ويصوبه ويصعب بجماله ووصافته .
يجعل إليّ يا كرسيدان أنك لو أعزبتني بجمالك أو لو أنني أعزبت
لساني لتألف منا إنسان تام المواهب والمزايا ، قال : نعم ما في
ذلك ريب ، قال : ألا تتمنى أن تكون ذلك الإنسان ؟ قال :
نعم أتتمنى أن أكونه ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟ قال :
إذ في استطاعتي أن أصح حيث روح الفصاحة وأنت في صدرك

سحره ، فدا أنت أجمل الناس وأذكاهم مآ ، قال . لا أستطيع
أن أتصور ذلك إلا إذا رعبت أنك من الساحرين ، قال هل
تتميز عن حظ ما يلقي إليك من الحبل والكلمات وإن لم تفهم
معناه ؟ قال : لا ، فإن ذاكرتي موية جداً ، ولكنها كذاكرة
البقاء تنقل ولا تعقل شيئاً ، وأظن أنني قد فهمت عرضك الآن ،
وإني لأعجب أشد العجب من استعمالك لهذا الأمر للاهتمام
للصديق ومن إغاحتك في تلمس الوسائل للوصول إليه هذا الإغلاخ
كله كأنه شأن من شؤونك الخاصة التي تمنحك قال سأفصح
إليك بسر المسألة فاستمع لما أقول :

إن روكسان ابنة عمي وصديقتي ورفيقة صباي وعمرتي
ليس في العالم من صديق ولا ميسر سواي ويهمني جداً أن أراها
سعيدة في حياتها هانئة في عيشها لا يكدر عليها مكدر من عواذي
الدهر ونكبات الأيام ، ولا أطمح أني أخاف عليها ، أخوف
كله أن تحمل بها في هذا الحب الذي اختارته لنفسها نكبة من
النكبات العظام ، أو طاجعة من الفواجع : إسام تقضي عليها
وهي آتالها ، وما أحسنت تنميها إلا ما أتمناه أو تنصرط في
بصك إلا المطلب الذي أصبره لها ، خصوصاً وأن الصفة التي
يحبها مستحول طبعاً إلى عشرة زوجة طويلة لا يقطع حبها
إلا الموت ، لذلك أردت أن تصانف بدأ واحدة على إعادها
وترفيه عيشها وحماية ذلك الحب في قلبها وحراسته من أن تغشاها
خاشية من وساوس اليأس أو خيبة الأمل ، أنت تحسنت وجعلت
وأنا بصاحتي وبياتي ، نسمع صوتي ولكن من هناك ، ونحس
بروحني ولكن في جسمك وتشرب عراطيني ولكن من كاسك ،
وتطرب لنصاتي ولكن من قيثارتك ، أي أنني أتمتع في جسمك
وأسترب يمين حنايا خدحك وأكمن في قرارة بصك فتستحيل

عني لأتنبئ إلى شخص واحد ، أو يصح أن تكل شيء وأصبح
أنا لا شيء ، وما دلت عذوب في الحسنة بوفد عني أن يرى
بجانبها إسماً يجمع في صفة بين موهبي "مصححة" وحمل فليألفه
معي ومنك ذلك لإسار الذي يريد بسده ، ولا نعل إلى
بجانبها بذلك أو يعرف ، وإنما لا تريد عني لا سعدني وهما

هذا هو العرص الذي أرمي إليه ولا أرمي لعرص سواه ،
فارتعب كرميتوب وحب يدك حملي جداً أ سيراو ، ويحبل
بلي أن عقلي يحاول لغزو مهي ذهني وعجلاً فزت لغزح على
أمرأ ما سمعت عنه في حياتي ، قال : أنت معاً كرسيتاب
واسألة بسيطه جداً ، ألم تقل في منذ هيبة ذلك تخاف إن جالسها
أو عدلت إليها أن تمسكت وتحميت صوت عرصك حب في
قلبك ؟ هذا الذي يريد مهي وأن لا أرى إلا ما تريد ، ولا
أرمي إلا إلى هذه عاطفة أحب حبه في قلبها بانيه ، فتتمتع أنت
بقلب الفتاة التي تحبها وتتمتع أن بمساعدة الصديقة التي أعطتها واحمرها
وأحمر من على رحتي وهديتها ، قال وهل يشعر في بعض
أنت سعيد بذلك ؟ فانهض سيرتي انصاصة حقيقة ثم يشعر
كرسيتاب وقال بصوت حافت : سعيد وحسنت لحظة ثم قال
بصوت مهدح مرتعش نعم سأكون سعيداً يا كرسيتاب لأنني
شاعر ، والشاعر مثل معطرته ، عدا ، دائماً أن نسس ثوباً غير
لونه ويرعى في صورة غير مسورة ، فمثل دور المحبوب
وهو عاقل ، ودور الشجاع وهو جاد ودور السعد وهو
شيء . ودور العاشق الوطد وما في فيه ذرة واحدة من الحب
والعزم ، فسمع لي أن أمثل دور العاشق الوطد فهو الدور
الذي يليه في تحفه أكثر من غيره ولكن أنت لسرح نسبي
أظه عليه وأخضر في أرجائه جيئة وذهوبا

كن القلب وأن افكر ، كن الحميم وأنا الروح ، كن الجمال
وأن الطفل ، كن الزهرة وأنا العطر ، كن المين وأنا النور المشرق
مها ، كن القلب وأن حته الكامنة فيه ، فلا تكتب إليها إلا
ما أمله عليك ، ولا تحدثها إلا عما ألفتك زياه وليكن ذلك سرّاً
بيي وبسلك لا تعرفه روكتان ولا يعرفه أحد من الناس

فهذا كرسيتان ورسى عنه واستقر في بصره أن الرجل صادق
فيما يقول ، ولكنه لو استطاع أن يفهم الحقيقة كما يفهمها فيه
الناس لأدرك أن سيرانو عاشق مثله لتلك الفتاة التي يحبها وأنه
ما أشفق لي حبه وساء حفظه فيه وعجز عن أن يعصي إلى حيث
يبدأ ، بصره وسريرة قلبه وحهاً لوجهه أريد أن يتعد منه بوقاً
يسهر في خوفه بأناته ورفرائه لتصل إلى آدابها فتسمع من حيث
لا تراه ولا تشر بمكانه لا يبرحو من وراء ذلك غرضاً ولا غاية
سوى أن يبرحه عن بصره بعض هموم وآلامها بالحاجة والشكوى
كما يبرحه المريض عن بصره آلامه وأوجاعه بتفديد الآلام ،
وتعميق الزهرات

فكان له كرسيتان ولكن في العمل في الكتاب الذي قلت
في ٦٠ تريد أن أرسنه إليها اليوم ؟ مد سيرانو يده إلى صدره
وأخرج تلك الرسالة التي كان يريد أن يمدتها إليها في الصباح
فلم يفعل وأعطاه يدها وقد نه امتع يدها بهذه الرسالة فهي
تألم لا يفسدها غير التوقيع . فهدس كرسيتان وعادته وسأوسه
وهواحه وقال له وهل كتبها من أجلي ؟ وما الذي دعاك
بذلك ؟ هو لم يكتبها من أجلي ولا من أجل أحد من الناس ،
ولكنها معشر البشر لا تخون حيواتنا علناً من أمثال هذه الرسائل
للعامة الخفية . فإن كنت محرومين سعادة الحب وهنائه

ولكننا نحيل أحياناً صوراً وهمية لا وجود لها في الخارج عطاياها
ونتاجها كما يتناسي الحب محبوبه لستطيع بمداد القلم الذي
يشغل به يفتات الحياه وصورها . ولقد أودعت هذه الرسالة
جميع ما يمكن لقلب من أن يصوره في بصره من لواعج الحب
وخوارج الغرام ، ولقد كانت أثنائي وفراقي قبل اليوم طالوة
عائقة في أجزاز الفضا لا تجد لها مستقراً ولا مهبطاً أما الآن فقد
وجدت على بطنك المستقر الذي تعطيه وتسمى إليه ، واستمرأ
روكتان هذه الرسالة بعد ساعة وسرى أب الصورة الحقيقية
لحواسك وشعورك لا ينقصه شيء حتى روح الإخلاص وجوهده ،
قال . ألا تحتاج لتغيير شيء فيها ؟ قال لا ، قال أخاف أن
توقظ بها ، قال كن على ثقة من أب ستعتقد حين تقرأها
أب ما كتبت إلا لها . وأب هي التي أوتيت بها إلى نفس كاتبها

فتناول كرسيتان الرسالة طائراً بفرحاً وبرامى على عنق
سيرانو بصره وكتبه ويصممه إن صدره ويقول آه يا صديقي
الكريم ، ما أعظم شكرك لك واعتائني بصمتك ، وصل على
ذلك هيئة وكان القوم وهوفاً أمام باب المطعم ينتظرون إدب
سيرانو هم دالروح وهم يسمعون صوته الحديث بينه وبين
صاحبه صوته أنه لخلد الصب والحصم الشديد حتى
شعروا بذلك السكون الذي سد بينهم فريمو وخيل إليهم أنه
سكون موت قدفع راحو قلبه صيلاً وأقبل من فجوته قرأى
هذا المظهر قدس وحيل له الوجد الذي خفه أنه يرى مظهر
الموت وأن كرسيتان صريح بين يدي سيرنو . فضل يرتجف
اربعاً شديداً ، همهم القوم في أدبه مد ترى ؟ قال دعوني
فلاني لا أجروا على النظر وأكد أموت حوفاً ورعاً . فدعوا
الياب حسماً ودخو . همهم الحقيقة التي كانوا ينصرونها

ولا يقدرونها في أنفسهم ورأوا أن ذلك الصراع الذي كانوا يتوهمونه بين خصمين متباغضين إنما هو عناق طويل بين صديقين مخلصين ، فدهشوا دهشة عظيمة ، وظل بعضهم يهمس في أذن بعض : إنه يمانقه ويلتزمه كأنه أصدق أصدقائه ، وقال : كاربون دي كاستل : أحمد الله تعالى فإن شيطاننا قد اعتدى ، وصاح آخر : عجباً لك يا سيرانو ! لقد أصبحت مسيحياً تقياً إذا ضربك أحد على أحد منخريك أدت له الآخر ، فلم يغضب سيرانو هذه المرة ولم يكثر بل انشم له وتطلق . كان بين اللداعلين « الرجل المائل » صديق « ليز » فأطمعه هذا الموقف في حلم سيرانو ، وقال في نفسه : لقد فقد الرجل حميته وانطفأت شعلة حماسه وأظن أبي أستطيع أن أتكلم عن أنفه الآن باطمئنان ، ثم أشار إلى ليز فاقتربت منه ، فقال لها : سأريك الآن منطراً من أبداع المناظر وأبهجها وأخذ يدور في أنحاء القاعة ويستنشق الهواء بصوت عال كأنما يشر برائحة الغريبة حتى دنا من سيرانو فلمس كتفه وقال له : ما هذه الرائحة الغريبة يا سيدي ؟ فصمت سيرانو ولم يقل شيئاً ، فأدنى وجهه من وجهه واطال النظر إلى أنفه وقال له : قل لي ما هذه الرائحة الغريبة المنتشرة في هذا الجو ، فلما تستطيع أن تفهمها أكثر مني ؟ فما أتم كلمته حتى لعنه سيرانو على وجهه لطمه هائلة رنت في أرجاء القاعة وقال : رائحة الدعر أيها الجبان ، فصفق القوم تصفيقاً شديداً ، وأخربوا في الضحك جميعاً حتى « ليز » .

الفصل الثالث

حرفة الأدب

منزل روكسان منزل جميل ، أنيق ، تمتد أمام بابه شرفة عالية بديعة ، قائمة على ساريتين ضخمتين تتسلق فوقهما أغصان شجرة ياسمين مغروسة أمام الباب حتى تصل إلى الشرفة فتنتشر في أنحائها ، ويقابل هذا المنزل منزل آخر يشبهه في شكله ورواقه ، ولا يختلف عنه بشيء سوى أن حاققة بابه ملففة بقطعة من نسيج كأنها أصبح مجروحة^(١) مضعدة ، وبين المنزلين ميدان واسع يتوسطه مقعد مستطيل من الرخام جلست عليه وصيفة روكسان وراجنو الشواء يتحدثان ، ففسح راجنو دمعة كانت تفرق في عينيه وقال لها : ولقد حزنت كثيراً لفرارها مع ذلك الضابط الخبيث وبكيت ما شاء الله أن أفعل لأنها كانت سلوة حياتي ، ومعيني على أمري ، وما هي إلا أيام قلائل حتى تكشف الغطاء عن ذلك الإفلاس العظيم الذي كان كامناً في حسابي ، والذي كنت أستره بجدي وجدها وتراكت علي الديون وعجزت عن الوفاء فلم أر بداً من الانتحار فخلوت في حانوتي ليلة أمس وألقيت آخية في عنقي . وما هو إلا أن صعدت على الكرسي

(١) هو منزل كلومير ، وهي سيدة من الأشراف كانت تقام في بيتها الحفلات التي تجمع المتأدين والتأديات وتلقى فيها المحاضرات الأدبية والخطب التلمسية شأن كبير من الشريفات في ذلك العصر ، وقد لفت حلقة الباب بذلك النسيج حتى لا يزعج صوتهما المجتمعين أثناء سماع المحاضرات .

ووضعت قدمي على حافته لأدفعه من تحتي حتى دخل سيرانو فهاه الأمر وتعاظمه وفهم للنظرة الأولى كل شيء ، فابتدر الحبل فقطعه بسيفه وقال : ماذا أصابك أيها المسكين ؟ فنفضت له جملة حالي وبشته همي ؛ فأشفق عليّ وجذبني من يدي حتى جاء بي إلى هنا وقصّ عليّ روكسان قصتي وقال لها : إن راجنو صديقنا وصاحب اليد البيضاء علينا ، وعلى الأدباء جميعاً شعرائهم وكتابهم ، وهو وإن لم يكن من نوابغ الشعراء المجيدين فهو أديب متفنن محسن إلى رجال الشعر والأدب ضنين بهم وبكرامتهم ، فلم أحفل كثيراً بتلك الغمزة التي غمزنيها في حديثه ، وما زال بها حتى استثار عطفها وشفقتها فبكت رحمة بي واستدنتني إليها وواستني ببعض الكلمات الطيبة ثم عهدت إليّ بهذا الشأن الذي أقوم به في منزلها كما تعلمين ؛ فاستعبرت الوصيفة باكية ، وقالت : لقد كان يحيل إليّ يا راجنو أنك سعيد الظالع في أعمالك ، وأنت تربح كثيراً فما الذي دهاك وجرح عليك هذا البلاء ؟ قال : حرفة الأدب يا سيدتي ، فقد كنت أحب رجال الشعر . وكانت « ليز » تحب رجال السيف قلم يزل « مارس » يأكل ما يشاء ، ثم ياقمي ما يتبقى منه إلى « أبولون »^(١) حتى نزل بي ما ترين !

فرثت الوصيفة لحاله وظلت تلاطفه وتواسيه حتى هدأ وسكن ، ثم نهضت من مكانها وانجهت جهة الشرفة وظلت تنادي : سيدتي روكسان أسرعي فقد دنا ميعاد المحاضرة ، فأجابتها سيدتها من داخل البيت : ها أنا ذي آتية فانتظري قليلاً ، فقال لها راجنو : أية محاضرة تريدن ؟ قالت : سيبحضر الساعة إلى منزل « كلومير » وأشارت إلى ذلك المنزل المقابل لمنزل سيدتها - رجل من

(١) مارس : إله الحرب . وأبولون : إله الشعر وليرة من الفنون .

العلماء الناحين اسمه ، الكاندو ، يلقب محاضرة عن الحب ،
وقد دعيت سينثي لاساعده وساعده معها بالطبع ، مصدحت
راجنو . وقال : ما سمعت قبل اليوم أن الحب من العيوب
التي تلقى فيها المحاصرت ، قالت . وهي تبسم بيس في
الشوق ما هو أحق بالمحاصرت من الحب .

وهنا سمع صوت قيثارة آتية من بعيد فالتفتا ورعيا فإذا
سيرار مقبل ووراءه علامات صغيران يحمل كل منهما في يده
قيثارة يرقع عليها ، وهو سهرهم ويمنظ عليها كأنهما طالبان
يبن يميني عوديهما ، ويقرب لهما قد أمرتكما أبها البليد أن
تلك النعمات وأنشد تأييد لا تشبهي فقال له راجنو : يرحم يا سيرارو
مضى كان عهدك بمعرفة الثالث والثاني ! قال : عهدي بها منذ
ذلك اليوم الذي حدثت فيه بين يدي حاصدي الموسيقي العظيم .
وما أنا إلا سميدته وحريج مدرسته ، ثم التفت إلى أحد العلامين
ونزع منه قيثارته واستقبل شرفة روكس وأخذ يغمي هذه
القطعة : قد جئت أسلم على ياسينيك ، وأقدم تحياتي لوردك ،
وألمم بحصوع وخشوع أوراق رديتك البيضاء ، فسمعت روكس
صوته يخرج من الشرفة فرائه ، فقالت : ما أنا دي فادمة يا
سيرارو ، ركزت قد فرغت من رينتها وباسها ، فزلت فحينه
وقالت : ما هذا انظر العريب ! ومن هذان العلامان الصغيران !
قال هما وندان موسيقيتان قد ربحتهما اليوم في رها . ففصحكت ،
وقالت أي رها ؟ قال : لقد جددت اليوم « داسوسي » في
مسألة حوية موضوعها الفرق بين « لا ويل » واشتد يثا اللجاج
ساعده باستعقم وأشار إلى هذين العلامين . وكذا والهم بين
يده . وقال لي : ما أراهم المسألة الآن في مطبخ من الكس
وليكون هذان العلامان صوع أمرك ليله كانه تذهب هما حيث

تشاء وبصياحك ما تريد إلى كان الفور لك فيها . ثم قام إلى حجرة
كتبه فوجع لمساءلة فكان الحق في حاسبي فأخذت انغلامين وسرت
هما بعينيهي . وأغررن بأمر في كل ما أفرجه عندهما من الصروب
والأطمان حتى وصلتا إلى هنا . قالت : وهل أنت راض عنهما ؟
قال : إنه يجيدك بعض الإجابة ، وقد طرقت لعدتهما ساعه .
ثم شتتهما ، ولا أدري ماذا أصبح بهما الآن ! وأحببني
لا أستطيع حماهما حتى مطلع الفجر ، وصعدت هيهة ثم انسم
والثقت إليهما . وقال لهما : أنقذوا مرل مونفلوري الممثل
الطيب ؟ قالوا : نعم . قال : ذهب إليه وقد تحت نافذة محذمه
الذي ينام فيه وصعد حنا طويلا مرعجا مضطرب النعمت
يذهب براحته وسكونه ويملأ صدره عيظا وحما ، ثم عودا
إلي بعد ذلك .

فألقى العلامان بين يديه واصبرا ، فالتفت سيرارو إلى
روكس وقال : قد جئت أسأل سيدتي كما أسألك كل ليلة
ما رأيها في حببها كورسيان ، ألا تراه إنسانا كاملا ؟ غالبا
من العيوب وحدث حتى الآن ؟ قالت : نعم ما لي ذلك ريب
عقدت جميع الله به من فضيلتي الحسن اندهر ، والدكاه سادر ،
وقدما حسنا لإنسب سوه ، عال أتورب أنه ذكي إلى حد
الحد . فاب نعم : بل أذكى من كل من عرفت في حياتي
حتى كنت يا سيرارو : لا تحب سيرارو في نفسه رقباطا عظيما ،
ونكهه بظفر باليرم ولا شفاء وهو رأسه كالزئاب وقاسه .
رعا دلت وأمد بلغ من الذكاء والفطنة تلك المبرة التي
يتكلم فيها امرء نساء غريبة مدعته يظنها السامع لأول وهلة
أب لا شيء وخفيه أب كل شيء ، ولقد يصعب نور ذكائه
أحدا وينرد ذهنه حتى يجعل لي شيء عبي أو عبي ، ولكنه

من عادى الله صنعه يدمر، ومهده تلك احواله الدعة التي
 لم يمتد في حديثه، قال: وهل يحسن الكلام عن الله؟
 قالت: لا ينبغي ان يكلام عنه حتى يخلط تعليلاً ردياً -
 وما رأت في كتابه؟ قالت: إنه يكتسب حسن ما يكتسب، وكان
 يسوده هذه الفكرة، ثم عرفني على بعض عواده، وهـ تحمل كلمة
 التي يقول فيها: حدي من قلبي ما شئت فسمي في منه -
 يكتسب، ألا ترى أنه معنى مدح؟ قال: لا بأس به -
 وسمع هذه الحصة أيضاً وقل لي ما رأيت فيها؟ -
 لا بد لك من أن تحطني قلبي بديك فأعيرني ذلك - لا منه
 فإنني في حاجة إليه لأحسان ما ألتقي في حبيب من الألام والأوجاع،
 فقال: وهو يكذب بهير في نفسه فرحاً إنه يخلص نفسه بنفسه
 أحياناً بعدني وأحياناً يكون غير وفي ولا أدري ماذا يريد نفسه -
 فتمسكت روكسان وقالت: إنك مصغي كبراً ما سبرو و
 أحسث إلا غيوراً، فامض سبرو وحين إليه أنها قد ألت
 بسريره نفسه أصلي دافعاً إليها دافعاً لا يبري -
 قالت له: وكذلك أتم عشر الشعراء لا يطبق أحدكم أن يسمع
 كلمة تاء من ريقه نهياً روعه وعلم أن دعت في حديثها
 م قلت له: واسمع هذه الحصة أيضاً فهي عبة العذاب في
 موتها وموتها. - ولو كان في استطاعتي أن أوسم قلاني على
 صفحات قرطاسي لقرأت كتابي شعبي بدلاً من عبيته -
 رأيتك في هذه أيضاً؟ هل تستطيع أن تحذيه مأخوذاً؟ قال:
 لا أنكر أن حبسه بديعه بولا ركة في بعض أحواله، فريد
 وحده عبطاً وقال له: إنك عبد يا سبرو فسمع هذه
 القصة أيضاً فهي خير من جميع ما مضى - فامضها وقد
 هل سمع لك لاهتمام نأره أن تستهيري كلمته وتعيها في صبرك -

قالت صم - قال ما طبع كتاب من الكتاب في مرة أعظم
 من هذه يا سيدي - قالت: إنه دبعة عظيم ما في ذلك وب
 فاحمر وجهه حملاً كأما حبل إليه أب قد ألت بسريره قلته
 وإياها ما تعبه بكلامها، وفان إنك تعالين يا روكسان
 وهما نكدتك إذ أقيمت الوصفة مسرعة وقالت: قد جد
 نكوت دي جيش، فاصطربت روكسان وفانت لسبرو
 لا أحب أن يراك هذا الرجل عندي فأنت صديق كرسيتين وأخاف
 من رآك ها أن يترك سر هرامي فيعجبني فيه - فادخل الخرب
 ولا تظهر له حتى بصرف لثامه، قال: سامع كل ما يرويك
 روكسان - ودخل المنزل ودخلت الوصفة وتعبه احلم وراه

هذه المرأة

ألت النكوت دي جيش فرأى روكسان ورقة وحدها في
 مكاتبها فامض بين يديها وحياها وقال لها: قد جئتك اليوم يا
 سيدي مودعاً وربما كان الوداع الأخير، قالت: أمسك أنت؟
 قال: نعم قد صدر الأمر إلى الجيش بالسفر إلى رأس -
 بعد بضع ساعات لتتخلصها من يد العدو ويظهر في أن بأ سري
 لم يؤثر عليك أقل تأثير، قالت لا تنس ذلك يا سيدي النكوت -
 قال أما أنا فلاني حزين لمواقف حرباً شديداً ولا أدري ما قد
 صاب بي بعد اليوم؟ هل كتب لي في نوح مقاديره أن أراك مرة
 أخرى - أم هو الفراق الدائم الذي لا لقاء من بعده؟ وأطرق
 برأسه حزناً مكتئباً ثم قال لها: وهل علمت أن الملك قد عهد
 إليّ أمس برياسة أركان حرب الجيش؟ قالت: ما كنت أعلم
 ذلك من قبل، وإيه لبحاح باهو يا سيدي النكوت - لله درك -

قال أي أني أصبحت صاحب سلطان عظيم على الجيش
 فأجبهه بعد التثاقل العدم ، وفي استطاعتي أن أنعم نفسي في
 مدد الحركة من جميع أعدائي وخصوصي خصوصاً ذلك الرجل
 الوقح الخريء ابن عمك سيراو وأل أحاسه حياءاً غير يسير
 على حرمته وأثامه فذعرت روكسان وحقق قلبها حقاً سدياً
 لا حوقاً على سيراو بل على كركسان ، لأنها تهيب من كركسان
 أن فرقة شاد الحرس مسافر مع بقية فرق الجيش فغابت
 به أقدح فرقة شاد الحرس إلى الحرب ؟ قال نعم كما
 نافر جميع الفرق ، فاصبر وجهها وتعاذلت أعصابها ومدت
 يدها إلى المقعد فاعتمدت عليه وهي تقول بصوت حامت منهات
 آه يا كركسان ! صاحب الكونت لأمرها ومأها ما دعا ؟ قالت
 إن هذا الأمر يخبرني جداً خصوصاً علمي أنتصور أن الشخص
 الذي يحيي أمره أكثر من كل إنسان في العالم يتوص تلك المصاعف
 لهلكة التي يعرف عليها طائر الموت ، ولا أعلم هل أراه بعد
 اليوم أم هد ، آخر العهد به فاذر نمره ونهال وجهه شراً وجوراً
 وحيل إليه أها ، لا تكلامها وأنه هو الشخص الذي يشعلها وبهجها
 ونسبي نخشى عليه أن تسم به تلك الكارثة العظيمة فقال لها
 ما كتب أعلم يا روكسان قبل اليوم أنك تصبرين لي في بيتك
 هذا أحب كله ، فصبرت لحظة ثم اتعبت إليه وقالت وهل
 أنت مصمم على الانتقام من سيراو ؟ قال نعم إلا إذا كتب
 تكريمي ذلك ، قالت لا بل لا أريد غير ذلك قال هذا
 ما أعنته ، ثم قال ألا يرل هذا الرجل تخلف إلى مراك
 حتى اليوم ؟ قالت لا ، إنه لا يروني إلا نادراً جداً ، ولينه
 لا يعمل ، ولو لا صلة القرى التي بيني وبينه ما أدت برهاني ،
 فإن قد حدثني عنه أنه مصروف في هذه الأيام إلى مراضة

خندي بيل من حدود الحرس الطاريين ويقولون إنه لا يكاد
 يهارة إليه ولا يهارة ، قالت ومن هو هذا خندي النير ؟
 قال قد نسبت اسمه الآن ، وهو كما وصفوه لي في طویل
 القامة مشرق الوجه أصغر الشعر نوح على عيجه بمخمل المر والشمع
 وتلمع في صمحة وجهه دقة خضبة من الحلال ، ولكنه عني
 ببلد ، ولا أنهم حتى الآن ما هي الصلة الي سيراو ؟

فصبرت روكسان صمماً طويلاً ذهبت صمها فيه كل مذهب ،
 ثم التفت إليه بعت ، وقالت له ، وهي تسم بتسمية عربة لا يفهم
 معناها إلا من فهم سريرة امرأة واضطلع برائزها وسجدها
 أنظرن يا سيدتي الكونت أنك تكون قد اتبعت سبيلك مع إد
 عرضته لنار الحرب التي يحبها وبسببها ، ولا يقترح شيئاً سوى
 أن يصطلي بها ويحوص غمارها ؟ هذه هي المرة الأولى التي رأيتك
 فيها تنظر في أمر من الأمور نظر المرأة والساذجة ! قال آه
 لقد فاني أد أنه إلى ذلك فما العمل ؟ قالت ، عافه عروبه
 من أمية التي يتبناها ، عليك أفضل له من القتل وأنتي له من
 الموت ، فليامر الجيش بأجبهه ولتخلف هو وحده بل تخلف
 معه فرقة جميعها ، فلها كما علمت مؤلفة من أشرار مسردين
 يلعبون مدعيه في أخلاقه وطباعه ويساعدهون في كل جرمة
 وأثامه ، ولكنك حجتك في ذلك إن شئت ، إن باريس في حاجة
 إلى فرقة من الجيش تخلف فيها للدفاع عنها وقت الحاجة ،
 وأنتك قد اختارت لها هذه الفرقة للذبح عنها ، وهكذا يموت
 لرجل هذا وكلمة وتشرق أحناءه غيظاً وحشاً ويعرب عيم
 شهرته عروناً لا طلوع له بعده ، فيصبح بطل الطرق والشوارع ،
 لا يظل الحروب والمصاعف .

فانتهج الكوكب ولعلت أسابير وجهه ووضع يده على كتفه
وقال ما قد دوك يا سيدي ، لقد صدق من قال : ولا يحس
الاتهام من الرجل مثل المرأة .

ثم حنا عليها وقال لها : إذن أنت تحبني يا روكسان ؟
فصرت إليه نظرة باسمة متألقة وأطرقت رأسه ، ولم تقل شيئاً ،
عصر اشتماتها التصير الذي أوداه ، واستنامة المرأة لفظ مشترك
يحتس جميع المعاني ، وصروها من الحب القاتل إلى الحب الضيق ،
ثم قال لها : ذلك ما كنت أعلمه يا روكسان مد معرفتك حتى اليوم
فلم يحصى ظني . ثم أخرج من حبه كتاباً معلقاً مسموئاً مساوياً
فرق الجيش فأمر بقرءه عليها إمراراً حتى غمر بكتاب فرقة شان
أخرى من قصصه عن تقيّة الكتب ووصفه في صدره ، وهو يقول

ما أشد دهوك يا روكسان ، وما أوسع حيلك ! نعم إن مراح
أرجس حربي متوقفة علا منقله ولا يفت في عصمه ، ولا يلق
ألمه بالزعام عبر حرمته ميدان الحرب وتركه في شوارع باريس
يسكن فيها تسكن العاطلين المتلبدين ، ثم نظر إليها باسماً ، وقال
له : أهدأ شأنك دائماً يا روكسان أن تكلمي للناس أمثال هذه
لكالده ؟ فاستغلت وقالت : لا ، بل لا أفضل ذلك لأعد الضرورة

فأطرق برأيه وصمت صمتاً طويلاً ، وقد أحدث شعاع
تسجاج وترتجف كأيما عذبه منه شيء يحاوس أن يقوله لها فلا
يستطيعه ، ثم تشجع ، وقال : نقت لي كلمة أحب أن أقولها
لك يا سيدي فهل تسمعين لي بها ؟ قالت : قل ما تشاء فأنا
مصدقة إليك ، قال : اني أحببتك يا روكسان من عهد صيد
كما تصبين ، وكان كل أملي في حياتي أن أعيش بجانبك عيش
القانع لك من جميع منع الحياة ولذاتها فصالت بيبي وبينك

الحوائل التي سلبها ، وقد كنت أظن أنني ستوتك وعبت
عنك بعرك وتعت يدك أمد الدهر ملك . ثم مدت أن عمت
أنبي وأهم فيما طست ، وأن ذلك الداء القديم لا يرب كأمناً
من أحناء صلوبي فصبح في نظري وجه الغيبه ومر في فمي
مدافها فصحت حائراً قلقاً لا يبدأ لي روع ولا يستقر في مصصح
ولا أندري حتى أركأ وأزى بتسعدك اللامعة لمصبيته وجبرنت
العديه الخمسة هل تصبرين في في قلبك من الحب مثل ما أصبر ؟
أو أب المصاصة والمجاملة ومجاعة نود بالود ورحمة بالتأمل ؟
وما زال هذا اللثك يساوري ليلي وبهاري حتى رأيت لآن بعبي
تلك الرحمة الشديدة التي سرت في أعينك عندما سألتك بها
سفري ، فصمت أنك تحبني وما كشف أسرار الحب ، ولا أهدأ
السر من غليله ومكائنه مواقف الوداع

وما أهد الآد على وشك السر ولا أعلم هل هو فراق وشك
أم هو السر الدائم الذي لا رحمة من بعده ؟ فأسألك أن تزوديني
بقليل من الزاد أستعين به على مشقة السر ووحشه الطريق ،
حتى إذا دنت الساعة الأخيرة تخلت صورته في ذهني فهدت عبي
الأم الموت ، فإن سمحت به فأنسني لي أن أتحدث لليلة عن
السر مع الجيش على أن لا تطع شمس المد حتى أكون قد
استقلت جواذي وخصت به في المكان الذي وصل إليه .

فارتجعت روكسان ، وقالت : ولكن ماذا يقول الناس إذا
رأوا رئيس أركان حرب الجيش قد تحلف على جيشه وبقي في
باريس لفرض من أغراضه للحرية ؟

قال : ذلك ما لم يمتني النظر فيه والحيطة له ، يوجد ما يقرب
من هذا المكان دير في شارع أورليان أسسه رئيس الكابوشان

سرى يا سيني على رأس حيشك . ولكن نعمة الذي يهدي
به في طلباته ومجاهد الذي يأوى إليه في شدته ، واعلم أنت من
تستطيع أن تور مرة الحب والكرامة في بعوس الدار حولك
إلا إذا كانت فرنسا أحب إليك منهم . من من نصحت لي بين
حبيبتك

فاستخرى لكلماها وتصمصح وقاد لها يد أنت حبيبي
يا روكسان ؟ قالت : كيف لا أحب من صميم فؤادي من حص
قاي غطقة الحزن والألم جوعاً ظرواله وإشفاقاً عن حياته ؟
فصاح : واطربه وانرحناه سائر على حكمتك في كل ما تريد
وسافر الساعة طوعاً لأمرك عادكريبي دائماً ولا تسبي .
قالت لا أستطيع أن أسلك فط ، فتأور يدها وقدها وهي
بين يديها وانصرف

وكانت روحينا وصيفة وروكسان عتشة وراء سارية الشرف
تسمع حديثهما وتفهم معره . فما أبعد الكوت إلا قليلاً حتى
بررت من عيشها وهي ترمي في الصحك وتقول ما أشد
حزني لخزلك يا سيني ! فصاحت روكسان وقالت لها اكلمي
كل شيء عن سيردو فإنه لا يتم لي أبداً الدهر حرماناً به
من الحرب فورحته له ، ثم هتفت به فخرج من امره وهو
يقول : ما أكثر الذين يجيئون يا روكسان ! قالت : نعم وكبي
لا أحب إلا واحداً منهم ، ثم قالت له قد ذهبت الليلة إلى هذا
المثل (وأشارت إلى منزل «كلومير» المقابل لمرها) لسماح
الحاصرة التي يلقيها «الكابري» على الحب «» فأدب لي بالدهاب

«الأك أناس» . وله قانون غريب يقضي بأن لا يبقأ أرضه
أحد من الناس سوى رهبانه وقساوته ، وأن وإن لم أكن راهباً
ولا قسيساً ، ولكنني صهر الكورديال ريشيه رئيس الكهنة
الأعظم ، ولا شك أن الذين يخافونه ويحشون صوته لا يستطيعون
أن يرفضوا رويي بديهم بضع ساعات بل ليس في استطاعتهم
أن أردت أن يمتنوا من أن يجثوني تحت كلالهم أو في ثانيا
السور أو فروج أكسابهم لأنها واسعة جداً لا تضيق مثل !
وها أنا ذاهب الآن إلى ذلك القدير المقدس لأمكن فيه بضع
ساعات حتى إذا انتصف الليل لبست قناعي وجئت متكرراً
في جميع الظلام فلا يشعر أحد بمقتلي ، ولا منصرفي .

فاستطير عقل روكسان وجن جنوبها ودمعها من الأمر مالا
تعرف وجه ليلة فيه . ولا طريق انخرج منه ، ثم ما لبثت
أن رجعت إلى نفسها وملكت زمام عواطفها ، وقالت له يبدو
وسكون : إن عجبك وعظمتك يا مولاي يأبين عليك ملك الإباء
كبه ، ولئن استطعت أن تكاتم الناس أمرك فذلك لا تستطيع
أن تكاتم نفسك أو تخادع فيه شمولك .

من فرنسا تطالبك بطرد العدو من أرضها واستنقاذها من يده
القاهرة المسيطرة ، فليكن هذا هو كل ما تفكر فيه ، ولا يشملك
عن شاعر من شهرات نصك ولدانها ، ولا تسمح لأحد من
الناس أن يتحدث عنك ، لا بل لا تسمح لنفسك أن تتحاسبك
على لينة قصبتها لاهياً دائماً في بيت امرأة تحبها و «آراس»
ناكية حزينة تصطرب بين يدي قاهرها اصطراب الحماة الوديمة
في عتاب الصغر لجارح وتصرح صرخات مؤفات أنت أول
يا مولاي من يسبها ويضطرب شعوره بها .

(١) كان من شأن الكثير من القادة المنضين للثورة في فرنسا في أوائل القرن
السابع عشر أن يلقون في سائرهم مجازات أدبية تجري فيها المذكرات السمية =

وإني أنت عينا ، فإذ جاء كرمستان فقتل له بقطري حتى أعود ،
 قال سأفعل ما تريد ، ولكنك لم تحريي كمانك في أي
 موضوع من موضوعي أحب تحيى أن يحدث كرمستان الليلة
 إليك ؟ قالت نعم كل حديثنا بالأسر عن موقف الوداع
 فيمكن حديثنا فيه عن « التفرة الأولى » لا بل عن « الغيرة »
 لا بل عن « الأمل الضائع » لا بل تركه على سجيته لا تحدد
 به موضوعاً خاصاً حتى لا يستعد لحيي أريد أن أحثرت بدبته
 كد حثرت رويته من قبل ، فقل له يحثني عن « الحب »
 وكفى ، ثم حثته وانصرفت ولحمته وصبيته .

وكان كرمستان مقبلاً في ثلث اللحظه فسمع آخر كلامه
 فقل ما للرأي يا صبري ؟ قال ، عدت إلى القول بالذكورة

= والحقبة وقلقي ليهب عند صرته وكانت تلك حيناً أو « المصالحات » وكي
 كانوا يعمرونهم لهم بين مرشيه رجال الفصح ولاد ومفاهيم كثره والكتاب
 من طهارة فرنسا وكانت محادثات التي لقود فيها بسبب حبها صلة التمدد والفتاوى
 والظروف وهو أمر يهيج في كل مجتمع يجمع بين الرجال والنساء فطقت سبع الأيام
 بين هؤلاء النساء لها خاصة في المحادثات والكتابات مشغولة رجسة لشكليات أو
 لمكاتبات في إيجاد عبارات بعبارة حريصة ثلاث النظر إلى انما التي يردن الفصح صبا
 أو يبدوا أخرى فقلد الخرجين يد حامي ودفن ، ثم ما راي يفرق في ذلك حتى
 أصبحت تلك اللفة موضع سفرية لأدي ، والناقدين خصوصاً عندما جاء دور الاختلاف
 الأخلاقي والفتنار القوي في الميقات الاجتماعية وتقبحه نداء لطيفات الفصح نداء
 الصقات التي في شياطين وأمالهم ورفض أن لها الحق في الإكراه حل الأدبيات
 في غرب وبقعها وتسميتها تلك الطائفة من النساء هي التي يصررها ويقتضها
 « دسروس » وفي هذه الرواية كما انتقدوا من قبله كثيرون من الكتاب والروائيين
 كموبي وبولو ومع أن تلك اللفة قد رجت وانتقدت وبرت فيها القرون فلا
 يزال باقيها حتى اليوم بعض آثاره مثل « سيكلاك » و « طلبة النفس »
 و « قسوة الكتاب » و « المصور المرفوع » وأما ذلك من التكتيمات الفائرة في
 جو خيال والساعة في بحر قلاهيته

الدرس الجديد وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى يكون قد
 مرقت وعدنا قبل عودنا ، فصب كرسب هيبه ثم رفع رأسه
 وقال لا ، لا أريد إليه دروساً ولا مذاكرة في أدب
 شوقاً برويتها . فان ولكنك لا تعرف كيف تحدثها ! قل
 دعني وشأني فقد شئت عن الطوق وتحاورت تمتك الس التي
 يحجر فيها امرء عن أن ينطق إلا بما باقه إياه أبوه ونظاره
 هذا . لك تحاور بعصت بحطره عظمي ، قال فليكن ما
 أرد الله فقد استحييت من بعضي بكثرة ما شئت من هذا بدور
 الشئ أحب دور لآلة الموسيقى التي يوقع عليها صاوتها فصحت
 منها بصوت مخففة دون أن تشعر بنفسها ولا يبعث منها ، عن
 التي قد مستعدت من دروسك الماضية ما يسمع في محادثتها
 ومداكرتها وإلا فاصه معها في كل شأن من الشؤون التي أوبدها
 وما أن بقي إلى السرجة التي تصورها لها كلها بصفي وأشترح
 لها جميع عواطلي التي تلحج في صبري ، وما أحبها تطالبي
 بأكثر من ذلك ، قل هل أنت على لفة من بصك ؟ فان
 كيف كان الأمر فقد تحورت الصدة التي بيني وبينها حدة الصراع
 وتوسائل إلى الحب لخاص لثبات الذي تعترض معه العقبات
 وتستحسن هذه البشاش إلى حسنت ، ولئن عجزت عن أن أحذب
 بلاني لمساعدتها بسان القبلات والثناءات .

وهنا سمع صوت روكب ، وهي حاوكة من عرب « كلومير »
 في جميع عظيم من النساء ، ففاد سيرانو كرمستان قد مات
 لأوان فأذن في بالندوب هدير كرسب واستطير عتبه
 وقال بل بق معي يا صديقي ، قل لا ، فقد أصبحت

وابن أنت هن - فرد سجا كرمستان فقل له ستظري حتى أعود ،
قال سأفعل بـ ساء الله ، ولكنك لم تحريحي كمائنك في أي
موضوع من موضوع الحب تخبري أن يحدث كرمستان الليلة
إليك ؟ قالت لقد كان حديثنا بالأمر عن « موقف الودع »
فليكن حديثنا بيده عن « النصرة لأوى » لا بل عن « العير »
لا بل عن « الأمل النضاج » لا ، بل انركه على سجيته لا تحفد
به موضوعاً خاصاً حتى لا يستعد دويي أن أحتر بديده
كك اختبرت رويته من قبل ، هل له حديثي عن « الحب »
ونظني ، ثم سيجت والصرفت وبعثتها وصيبتها .

وكان كرمستان مقللاً في تلك اللحظة سمع آخر كلماتها
فقال ما الرأي يا سيرانو ؟ قال عدنا إلى المنزل للمذاكرة

« والديه والفتي بهما المصبرات وكانت تلك المديسة ثم « الصالون » كما
كانوا يسمونه لقيم بين حواشيها وجانب القليل والأدب وشايف الشراء والكتاب
من طراز فرنسا وكانت المديونات التي تدور فيها تغيب عنها صفة التسلط والعتاق
والعزوف وهو أمر طبيعي في كل مجتمع يجمع بين رجال والبناء ففئات مع الأديان
بين هؤلاء النساء مئة خاصة في « الأخاديد » و« كتابات » مثلاً وفيه التفككات أو
مكائبات في إيجاد مهرب به طريقه نلت فتنظر ان محال التي يردد بصيرتها
أو بهارة أخرى تلتف الرجل إن حاله وروحه ، ثم ما رزى يفر في ذلك حتى
أصبحت تلك الفئة موضوع سفريرة الأديان ، والفائض خصوصاً مع دور الاحتياط
الأخلاقي وتشار الفوضى في « غيبات » لاسهنية وتقليد ساء الطيفيات القدي ساء
الطيفيات العليا في تماثيل وأسائير وروعه أن لم اعني في الإقرار على الأديان
في فرنسا بقدها وتحميها تلك العائشة من النساء هي التي يصورها وينتقد
« دمون رومستان » في هذه الرواية كما انتقدنا من قبله كتيرين من الكتاب وقرائين
كمونير وبولر ومع أن تلك الفئة قد زالت وانقرضت وموت عليها القرون فلا
يراد تأنيها منها حتى اليوم بعض آثارها مثل « ميكت الأكا » و « طلبة النقي »
و « قسوة الكليات » و « البتير » الخواص « وأثناء ذلك من القليلات المارة في
جو الخيال والدمعة في بحر اللاتينية

الدروس الحديد وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى يكون قد
عرجا وعدنا قبل عودنا . فصمت كرمستان هنيهة ثم رفع رأسه
وقال لا لا أريد فيه دروساً ولا مذكرة لاني أدوب
شوقاً لرؤيتها . قد : ولكنك لا تعرف كيف تحدثها ! قال :
دعني وسأني فقد شئت عن الطوف وتبدورت تلك السن التي
يحجر فيها المرء عن أن ينطق إلا بما يراه أبواه ونظاره
فقال إليك تحاضر نفسك محاضرة عظيمة ، قد فسكن ما
أراد انه بعد استحييت من نفسي لكثرة ما مثلت من هذا اللون
الثاني لمحب دور الآلة الموسيقية التي يوقع عليها صديها فسبغت
مها حسنها لطرية دون أن تشعر نفسها وما سمعت منها ، على
أي « سمعت من دروسك المأصبة ما يسمع لي عندئذ
ومد كرتها والإدعة معها في كل شأن من الشؤون التي أريدها .
وما أن سعي إلى الدرجة التي تصورها فأكلها بنفسه وأسأرح
لها جميع حواسي التي خضع في صدري . وما أحسها بناسي
ما كثر من ذلك . هل هل أنت عن ثقة من نفسك ؟ قد
كيفما كان الأمر فقد تجاوزت الهبة التي بيبي وببيها حد المربع
والرسائل إلى الحب انخلاص المشي الذي تقتصر معه شعوت .
وستحيل فيه البساتين إلى حسانات ، ولئن عبرت عن أن أحدثها
بلساني فأحدثها بلسان القبلات والتمنات .

وهنا سمع صوت وركسان ، وهي خارجة من منزل « كومير »
في جمع عظيم من النساء ، فقال سيرانو لكرمستان قد غابت
الأوان فأذن لي بالنداح ، فصر كرمستان واستطير عتقه ،
وقال بل بل معي يا صديقي ، قال لا ، بعد أصبحت

تياً بنفسك عني . وتركه وانصرف .

ولكنه لم يعد إلا قليلاً حتى عاد متسللاً من حيث لا يشعر به أحد واختبأ وراء حائط الحديقة يستمع حديثهما

الفصل

قالت روكسان لكرستيان ، وقد جلسا معاً على المقعد الخشبي في وسط الساحة . لم أذكر من المحاضرة الغرامية التي أقيمت في منزل دكلومير ، إلا عاصمتها ، فلم أسفد منها شيئاً فحدثني أنت عن حب وأطلق لنفسك العنان فيه ما شئت ، وهذا هو الليل قد أضلنا بمكرهه وهولته ، وهذا باريس قد أوتت جميعاً إلى مضجعتها لتحدث فاني مصيبة إليك ، فارتجفت كرسيتيان ارتجاف الطالب الضعيف في موقف الامتحان ، ولكنه لم ير له بداً من أن يتكلم ، فأناني إليها ، وقال لها : أحبك يا روكسان ، وصمت فضلت له : وأنا أحبك أيضاً يا كرسيتيان ثم ماذا ؟ فلم يفتح الله عليه بكلمة أخرى فعاد إلى نفسه الأولى ، وقال لها : أحبك يا روكسان حباً جماً . وسكت ، فقالت له : هذا هو النسيج فوش وطوره لارداد ارتياكه واضطرابه ، وقال آه ما أشد حبي لك يا روكسان ، قالت : ما شككت في ذلك قط ! ولكي أريد أن تقول لي كيف تحبني ؟ قال : أحبك حباً ما أحبه أحد من قبل أحداً ، قالت : سؤر لي حزنك وشعورك ، قال : ليتك تصبرين لي في قلبك من الحب مثل ما أصبر لك ، قالت : إنك تقدم لي من الأمن متيقنه ، وأنا لا أريد إلا ريدته ، قل قل كيف تحبني ؟ قال : أحبك حباً يسير لئاني من انحصار عته لأنه فوق طائفي ، قالت : ولكي أريد أن تعبر لي عنه وإن تلمس

يذك أوتار فاني وتملك عليّ عواصمي وشعوري . قال آه لو استطعت أن ألتصم جيلك الفضي الجميل هجر عبي وانخرقت عنه قليلاً وقالت : كرسيتيان ، إنك قد جئت ، قال : ما أوفي بك لك من يدك أبعد بها غليلي ، فنهضت قائمة وقالت : إنك تصابقي الليلة كثيراً يا سيدي ! وأرادت الذهاب فأمسك بثوبها ، وقال صموا يا روكسان ، فان دني عظيم ، وما زل يصرخ إليهما بنظرته شديدة حتى هدأت وجست ، فقال لها آه لو تعلمين كم أحبك ، قالت : أهد كل ما عندك ؟ وأرادت التهوؤ مرة أخرى ، فأمسك بيده ، وقد طار صراجه والثابت عليه أمره وظل يقول لها : لا ، لا ، لا ، لا ، لا ، فانهضت قائمة وقالت : لا تبتدي ، وقالت له : ذلك خير لي . فاقب به في حضنه وقال : لا تبتدي ، ما قلت لك فاني أردت أن أقول لك : لي لا أحبك فقط بل أحبك وأدين بك ، فتملمعت وقالت : لقد صابك صديري ، قل : أعترف لك بأنني قد أصبحت بيذاً لا أفهم شيئاً . قالت : ذلك ما يحزنني كثيراً فالبلادة عدي والدمعة سواء . عاهدت الآن وجميع شتات دهنك ثم عد إليّ الليلة لأتية ، وبهضت قائمة تنثبث بها وقال : انتصري قليلاً فاني سأفوز لك شيئاً جميلاً ، انتظري يا روكسان فاني أريد أن أقول لك : قد علمته ودانت تريد أن تعرف لي . إنك تحبني وتحبني وتموت رجداً لي ، فالتفت عرفت ذلك كله ولا أريد أن أسمع منه شيئاً ، فاذعب ، شأنك فقد ضقت بك ذرعاً .

ثم تركته ودحت اسرل من حزنه وظل واقفاً مكانه متحرقاً ويتفط ، ويقول : آه ذلك ما كنت أعافه . أين أنت يا سيدي ؟ فبدأ أم كلمته حتى رأى سيرانو مقبلاً عليه يتشم شممة انتهمك ويقول له : أعتذرت بالسماع العظيم الذي أحررتك يا كرسيتيان ،

مخيلتك ، وكان مهدي بك قبل الآن طلق اللسان متدفقاً كالسيل المنهر ، فذعر سيرانو وخاف أن ينكشف الأمر فجذب كرستيان إلى ما تحت الشرفة ووقف هو في مكانه وانثنى إليه وأسر في أذنه قد أصبح الموقف حرجاً جداً فأصمت أنت وسأنتكلم أنا عنك بصوت يشبه صوتك ، ثم أنشأ يحبب روكسان على سوانها مقلداً صوت كرستيان ويقول : ذلك لأن كلماتي تتخط في هذا الظلام الخالك أثناء صعودها باحثة عن أذنك الصغيرة جداً فلا يستقيم مسيرها ، قالت : ولم لا تضطرب كلماتي في هبوطها اضطراب كلماتك في عروجها ؟ قال : لأنها تتحدر إلى قلبي مباشرة وقلبي رحب واسع فلا تفضل طريقها ، على أن كلماتي صاعدة وكلماتك منحدره والتزلزل أسهل من الصعود ، قالت : ما أبدع هذا المعنى ! ويخيل اليّ الآن أن كلماتك قد انتظم مسيرها فانها تصل إلى أذني بأسرع من ذي قبل ، قال : ذلك لأنها ألقت هذه الحركة وحذفها ^(١) ، فصمت لحظة ثم دارت بعينها في الفضاء وقالت : حقيقة إنني أتكلم من علو شامق . قال : إذن فاحترسي فان كلمة واحدة قاسية تلقينها عليّ من موقفك هذا كافية لقتلي ، فاستضحكت وقالت : لا تخف يا كرستيان فاني آتية إليك لأحدثك وجهاً لوجه ، لا تفعلني ، بل ابقي في مكانك ، قالت : لماذا ؟ قال : لأن هذا الموقف جميل جداً يعجبني ويعطرنني ، فلتحدث كما نحن كأننا روحان هائمتان في أجواز الفضاء تفتش كل منهما عن صاحبتها فلا تكاد تعثر بها ، دعينا نتحدث كما نحن وبيننا هذا الموج المتلاطم من الدجّة الخالكة ، لا نربن مني الا سواد معطفي المسبل عليّ

(١) يصور المؤلف في هذه المحادثة لشدة نساء ذلك العصر وتحذرهن في أحاديثهن وحوارهن وتمسكهن بهذا النوع من الكلام المتكلف المتامل الذي قضت عليه الأساليب الحديثة لها بعد .

ولا أرى منك إلا بياض ثوبك الصيفي فأنت تمثلين الكوكب الساطع في سمائه ، وأنا أمثل الظلام المخيم على سطح الغبراء .

إن لهذا الموقف الشعري الجميل في هذه الساعة الساكنة من الليل أعظم الفضل في صفاء ذهني وانتعاش نفسي وبنقطة قلبي وانطلاق لساني من حبسته وجموده ، فكوني كما أنت ، ولا أكن كما أنا ، لا تشعرين مني بغير خفقان قلبي ، ولا أشعر منك بغير أشعة جمالك ، أناجيك كأنني أناجي الله في علياء سمائه وتصغين إلى مناجاتي لإصغاء الملائكة الأبرار إلى أنات البائسين وزفراتهم على ظهر الأرض .

وكان قد غلبه الموقف على أمره واستلهاه حسنهما وجمالها واستغرق في شعوره ووجدانه فتسي أنه يتكلم بلسان غيره فأطلق نفسه عنانها ، وأصبح يتحدث بنغمة غريبة لا هي نغمته ولا هي نغمة كرستيان بل نغمة النفس الواهة المعذبة المتأللة ، فنالت من نفسها منالا عظيماً وقالت : إنك تحدثني الآن يا كرستيان بلهجة غير لهجتك الأولى ، حتى ليخيل إليّ أنك قد تبدلت من نفسك نفساً أخرى غيرها . قال : نعم لأن كلامي قبل الآن لم يكن صادراً من أعماق قلبي لأنني أنما كنت أحدثك بلسان ... وكان يريد أن يقول : « كرستيان ، فاستدرك هفوته وقال : بلسان الدهشة والخيرة والاضطراب الذي يلم بكل من يجرؤ على أن يقف موقفي هذا بين يديك ، أما الآن ففسي هادئة وجأشي ساكن وروحي مطمئنة حتى ليخيل إليّ أنني أناجيك للمرة الأولى في حياتي . قالت : صدقت ويخيل إليّ أنا أيضاً أنك تتكلم بصوت غير صوتك الأول . قال : نعم ، لأنني استطعت في هذا السكون السائد والظلام الخالك ، الذي يحجبني عن العيون أن أكون أنا

نفسى وأن أناجيك من طريقي لا من طريق . ولزاد أن يقول
« قبرى » فشر بهوته وحاول أن يصلحها فلم يستطع فقلتم
وتلجلج فقالت له طريق من ؟ قال . عرواً يا روكسان إن شرد
لبي واضطرب جناني بين يديك ، فقد سحرني وملك على عقلي
هذا الموقف الحديد ، الذي لم ألقه مرة في حياتي . فسمعت لأمره
وقالت : . جليد ؟ قال : نعم جليد ، لانه أول موقف استطعت
فيه أن أكون صريحاً في كلامي ، حراً في أفكارى ، جريحاً في
حديثي . أطلق اللسان لتسمي فهم وتثبت حيث تشاء ، لا يحول
بيننا وبين الغاية التي نريدها حائل ، قالت . وهل لم يكن ذلك
شأنك من قبل ؟ قال . لا ، لأن غيبي من هزلك في وسخريك
منى كان يرعجني جداً ويملأ قلبي رهباً وخوفاً ، فذهنت وقالت .
سحرتني ! ولماذا ؟ قال تسحرني من صفري واندفاعي وتبسطي
في الإفشاء بمكنونات نفسي فقد كان قلبي دائماً متربلاً سريال
عقلي والعقل سريال صاعد لا يطفئ القلب ، وكنت كلما همت
أن أترك السبل لعواطفى أن تفيض وتنساب حيث تشاء أدركني
الحياء والحيل فقلومت واحتشمت ووقفت دون الغاية التي أريدها ،
ولا ألبث أن أنطلق إلى الكوكب الثاني في سماته وأخطو الخطوات
الأولى إليه لتناوله واستمراله من فلكه حتى أشرع بالحيل من
نفسى فأعود أدراجي قائماً من حظي بزهرة صحيرة أجدها في
طريقي من زهرات حديقة السماء فأقتطفها ، قالت إن الزهرة
حبيبة أحياناً ، قال . ولكي لا أريدها البتة ولا ألقب بها ، قالت
إنك ما كلمتني قط يا كرستيان مثل هذه الهمجة البسيطة التي تنكلمني
بها الآن ، قال : هم ، ولئنا نستطيع دائماً أن نختر في مواقف
الحب قوافله الأثنية وحالاتها وأن نترك التأني والتجمل في صلاتنا
وعلاقتنا ونطلق الصناد لأفئسا لتعبر عن مشاعرنا وعواطفنا ،

بالصورة التي تريدها بدلاً من أن تضعها بتدك القيود الضيقة التي
تحبسها في عيس ضيق لا سبيل لها إلى التصلت منه .

فطرح بعيداً عما هذه الكأس الذهبية الصغيرة ، التي تعاض
بها شرابنا قطرة قطرة فلا تكاد تشعر بقدرة ما تتعاضه ولنسمع
مما يل ذلك العذير المزع المتسوق لمجئو على صمته ونكره من
مائه الثقل حتى نرتوي .

البلاهة

قالت ولكي أحب البلاهة يا كرستيان ، فإن إلي أحسن
هذا الليل الساكن هادئ وهذه الموقف الجميل الهيب وهذه
الصحراء العظيمة المرفقة ، وهذه القبة الخوفاء الموصلة بمصباحي
اللامعة ، أن أهبها هذا الشيء الذي يسمونه البلاهة أو أن يكون
حديثي معك بملك الله التي يعكس في المشاق الأكادير في رسالتهم
العزمية ، فتحدثت عما توحيه إليها صائراً ، لا عما توحيه إليها
دواوين الشعراء ورسائل الكتاب . ولهدم تلك الخواصر الأدبية
التي تجمه بين هيبنا ، حتى تتلامس وتتداس وتستهيلا إلى نفس
واحدة ، فإني أحتسب أن عني ظلتا تشتغل رسماً طويلاً به
التحارب الكيسانية أن تبصر عواطفنا وتلاشي في أحوار الغشاء .
وأن يكون فيما نقه كل شيء الغشاء عن كل شيء

قالت ولكي البلاهة حبيبة جداً ، قال وأن أكرهها في
الحب ، وأرى أن من أكبر الخرافات وأعظمها أن تشتغل عن أنفسنا
ومحارج تدنا . ومما يحزن عواطف ، بإدارة هذه المركبة اللطيفة
التي لا طائل تحتها . وأن تكون تلك المحاولات التي لا فائدة

مها هي غاية مقصدها من الحب ومتهى أملنا منه والثمره الأخيرة التي يجنيها من حياتنا .

إما ما اجتمعنا به لرى كيف نتحدث ، بل لتحدث وتناحى ، وما وقف هذا الموقف احليل للمهب ، بين أحضان هذه الطبيعة العذبة ، لشتمل تهديد الله وابتكار لاساليب واختراع دعائي ، ولا يقول كل ما لصاحبه ما أبلغك ، وما أسسى حيالته ، وما أبعد تصوراتك وأمكارك ، ولا لتدرس البلاغة وأصوله وقوانينها ، ولا لتحدثى الشعره والكتب في أساليبهم وساهجهم ، بل يسكب كل ما فيه في نفس صاحبه فرد هما في نفس وحدة تشعان بشعور واحد وتعمان إحساساً واحداً ، حتى لو استطع أن نصل إلى هذه العاية ونحس سكوت لا نتكلم ولا نيس نعرف واحد ، فعلنا .

هذه هي البلاغة وهذه هي حقيقتها ، أما الإغراق في التحيل والمبالغة في الوصف وخلق الصور والأساليب التي لا وجود لها في الخارج ، ولا أساس لها في الدهر ، وابتكار المعاني الغريبة التي تمت شرائها من شملة الذكاء ولا تنفجر من ينبوع القلب فهي وإن كانت جميلة محبوبة تستلهي الحاطر وتستوقف الناظر ، ولكنها ليست من البلاغة في شيء .

يريد أن نترك السبيل لنصينا أن نتحدثنا ونتناجيا كما شأنا وأن لا ننص عبيها بنجواهما وسمرها بده الضوصاء العظيمة التي نثيرها من حولها .

يريد أن تصرق هذا العالم المملوء بالكاديب والأباطيل ، والنصور والتهويل إلى أفق طاهر نقي ، صاف مفرق ، تكشف

فيه ونتردى ويتحدث كل منا إلى صاحبه بلغة تشبه في جسامها وحسها ، وبساطتها وطهارتها ، وركتها وعذوبتها ذلك الألق الجليل الذي نسج فيه ونطير في أجوائه ، فيكون مثقلا مثل الكوكبين المالحين في أجواز الفضاء يتحادثان بلسان الضوء ويتناجيان بلغة الأثير .

قالت : وماذا تقول لي لو أردت أن تحدثني تلك اللغة ؟ قال : ألقى إليك بكل ما ينظر بعالي من الكلمات مبثراً غير منظم ولا مرتب ، كما تتأثر أوراق الزهر من ألصافها فأقول لك مثلاً :

أحبك يا روكسان حب العابد مبيوده ، لا أستطيع أن أصبر منك لحظة واحدة ، أصبحت على وشك الجنون بك وربما أكون قد جنت من حيث لا أدري ، كأن قلبي مبد وكأن اسلك ناقوسه ، وإذا وقع نظري عليك ارتجعت وارتجعت ، فرب اسلك في قلبي رنين الناقوس في المبد ، قد احتملت عليك فوق ما يستطيع أن يحمله البشر ، فما سكوت ولا تأملت ، أحببتك كل شيء ، أحببتك حتى كبرياك ، وأسييت من أجلك حتى شقائي ، يحيل إلي أن أفسس على جناح قصرك أجمل منها من جدران القصور الأخرى ، وأن أروغس الذي يخطر في أبداع رياض الدنيا والأخرة ، لا أستطيع أن أنساك أو أنسى حالة من حالائك أو حركة من حركاتك مهما طال عليهما الزمن ، وأبلك صباح الأحد الماضي ، وأنت خارجة من بيتك وقد غيرت نظام شعرك الذي أعرفه لك ، فأصبح لأمعاً مثاقلاً يدور يوجهك دورة المالة القمر ، قبوري هذا المنظر وارتسم في شبكة صبي ، فأصبحت أراء في كل ما يقع عليه نظري من المنظورات كما يرى الناظر

إلى حموة الشمس هالة يضاه في كل ما يتناوله بصره من الأشياء ،
وسمعتك منذ أيام تضحكين ، فما غرد حائر على فم ، ولا
رنت قطرات الليث على صفحات الماء ، ولا مرت النسيم بين
خمال الأشجار إلا خيل إلي أنني أسمع رنين تلك الصخرة
في كل ما أسمع من هذه الألحان .

وهنا اضطربت روكسان ، واشتد خفق قلبها ، وقالت
بصوت خافت متهدج : « نعم هذا هو الحب »

قال . نعم هو الحب الذي غلب قلبي حتى غلبه وانكده أسيراً
عنده وهو حب شرس خور يتوقد حدة وحاررة ، وأنه على ذلك
متواضع بسيط خال من الأثرة وحب النفس . إني لا أستطيع
أن أخلص لنفسي يا روكسان كما أخلص لك ، إني في سبيل
هاتك أجود بهائي كله ، وإن لم تشعري بذلك ، حسبي من
الدينا أن أسمع من بعيد رنين صمكتك ، فأعلم أنك سعيدة
منبطة ، وأن ما ضحيت به لك من سعادي وهائي كان هو السبب
في مناد عيشك وراحة نفسك ، كل نظرة من نظراتك تثير في
فضيلة جديدة ، كانت كاسية بين أطواء قلبي لا أعتدي إلى مكابها ،
وثبت في نفسي خلق الشجاعة والإقدام ، مم أخاف إن كنت
راضية عني ؟ وم أعتبط إن كنت منسطة علي ؟ وهل الدينا
شيء سواك في إقبالها وإدبارها ؟

قالت : ما أعذب كلامك يا كرسيتان ! إن قلبي يحرق له
حقائقاً شديداً .

قال : رأيت الآن كيف أن الكلمات الصادرة من القلب
لا تكلف ولا تصنع لا يستطيع حائل أن يحول بينها وبين قلب

سامعها ! ألا تسمعين يديك نفسي الحزينة وهي صاعدة إليك في
هذا الصلام الخالد ؟ ألا تسمعين حفاض قلبي وهو يرب في حروب
هذه الليل الهيم ؟ أم ما أحلى هذه الساعة وما أحلى لها ، إنها الساعة
الوحيدة التي دقت فيها حللوه النسر والهاجرة ما كنت أصدق
أن آتف يوماً من الأيام هذا الموقف العظيم بين يديك أتكلم
وتسمعين ، وأثبت ما في نفسي وتعتنين ، ولم يبق في من أرب
في أسياء بعد اليوم ، فليأت الموت إلي فقد بدت جميع آمالي
وآمالي ، ما هي يديك ترجم الآل من تأثير كلامي كما ترجم
الورقة الخضراء بين النسمات المتواحة ، ولقد سمعني الياسمين
الذي تمسكين فقد مئت فيه تلك الرجعة حتى وصلت إلى يدي ،
ثم عني على يد العصف الذي في يده فلكمه في صمت وسكون .

فقالت روكسان : نعم إني أرعف وأكفي ، وما بلغ مروء
مي في حياته ما بلغت عني ، وقد سحرتني حديثك ودمت علي
في حتى أصبح أشعر أنني قد أصبحت ملك بك وألا شأن
لي في أمر نفسي .

قال فليأت الموت إلي إذن فقد بدت من حياتي ما كنت
أرجو وأتمنى وليهي ، إني أنا الذي قدمت إليك بيدي تلك
الكأس التي أسكرتك وأحدثت بليث فلم يبق لي ما أعناه غير
شيء واحد ، قالت : ما هو ؟

وه طلق كرسيتان ، وهو في مكانه تحت أشرفه بعد هد
الصمت الطويل وقال : قبله ، مدح سيرته وقال به بصوت
خافت لقد تسرعت في الصمت ، قال : لا ، إنها الآن داخلة
محسورة ، فلا تهر هذه الفرصة التي لا تواتي في كل حين ،
فقالت روكسان ما د قلت ! فقال كرسيتان : أريد منه ،

فوكزه سيرتو برجله وقال : اسكت يا كرمستان ، سمعت روكسان
كله فقلت به مع من تحدث ؟ وهل كرمستان شخص
مؤك ؟ قد أحدثت مع صبي اسكت يا كرمستان ، فحكك
مها أب أصمت إليك ، وسمعت صوت قلبك وأدبرت من
أجلت دمه من دموعها الغالية ، فلا تطلع فيما وراءك

وهذا رد صوت قيثاري الصلبيين من بعيد فقد سبرنو
ادحي ، الآن يا روكسان فإني أسمع صوت غادم ، ثم عودي إلي
بعد قليل ، فدخلت روكسان عرفتها وأقمت باب ماسها وأصغى
سيرانو إذ التصوت فسمع في آن واحد حين يختلج صخاً مفرحاً
وأخر غمراً ، فكان : يا للعجب ! إن القادم ليس برجل ولا
امرأه ، فلا بد أن يكون قبيحاً ، وما أتم كسبه حتى أغفل قسيس
سيخ وبه مصاح صئيل وجعل يمر بأبواب المنازل بياً باباً وبدي
مصباحه لينبها ، كآله يفتش عن منزل يقصده ، فظلم نحوه
سيرانو وقال له إنك تعبد لنا أيها الشيخ عهد ديوجين ؟
فهل تفتش عن الرجل ؟ قال : لا بل عن المرأة ، يلي أغش عن
مرل السيدة عادلين وروان الشهيرة بروكسان ، فابروى لا كرمستان
وهو يقول في نفسه إن الرجل يصابق في مثل هذه الساعة ،
ولما منه من أمر القبله ، وأمسك يده وأشار به إلى جهة بعيدة ،
وقال به هناك أيها الشيخ هناك ، فسر أمامك ، لا تعطف عنه
ولا يسره حتى تجد مرل الذي تريد ، فمكر له الشيخ فصره
وعاد أدراجه ، فقال كرمستان لسيرانو : لا أستطيع أن أبرح
هنا نكاح ، حتى أأنا القبله التي أريدها ، قال لا تعجب يا

(١) هو قديسوس الروماني الشهير وكان يعمل في يد مصباح له وسار
فقال بعض الناس مرة عن يفتش ! فقال : أكثر من الرجل

صديقني فتواكما سريعاً تلك اللحظة السحرية العجيبة لحظة
الذهول والاستراق التي تتملان فيها بحمرة الحب وتذهلان فيها
عن نفسيكما ، فإذا شتكتما داخبتن وجمعهما كل منهما إلى
صاحتها حتى يتلاصقا ، وصمت لحظة ثم قال في نفسه : ما دامت
تلك اللحظة آتية لا ريب فيها ، فحير لي أن أكون صاحب الفصل
فيها ، ثم قال له : نأدد يا كرمستان فستان منها القبله التي تريدها ،
فإذاها فتحت النافذة وخرجت إلى الشرفة وهي تقول أباقي
أنت يا كرمستان حتى الآن ! هل سيرتو لقد جاء هنا الساعة
كاهن شيع يسأل من مرلك فلم تعجبي ريارته في مثل هذه
الوقت ، فأضلته عن الطريق وأظن أن في يده كتاباً ، فذعرت
روكسان واصطربت بحافة أن يكون الكونت دي جيش قد أحلف
وعده وتعمد من السفر وانجأ في الدير وأن يكون هذا الكائن
رسوله ، ولكنها ما لبثت أن سرت في مصها وأنشأها موقف
الغرام كل شيء عنده وقالت : أظن أننا كنا نتكلم عن ... وثم
لسها فضل سيرانو عن القبله ، ومالك لا تجسر على
النطق بها كآب تحرق شيعتك ، فإذا كان هذا شأنك مع نطقها
فكيف يكون شأنك مع معاه ، لجلدي يا روكسان ، ولا تجرعي
فلقد تحولت مند هبة من الدعابة إلى الاضطراب ، ومنه إلى
الخفغان ، ومنه إلى التهنيد ، ومنه إلى البكاء ، وليس بين النوع

القبله

فارتدت روكسان وقالت لا أسمعك إليها حتى تصعب
لي ، قال هي الميثاق الذي يعطى عن قرب ، والوعد الصادق
الذي لا رية فيه ، والاعتراف بالحققة الواقعة ، والنقطة المرجوة

تحت بناء الحب ، والسر العميق الذي يصل إلى القلب من طريق
الضم ، والنحلة الأبدية التي يقتصر رسمها وتدمج حلاوتها ، واتفاق
المحيطين على معنى واحد ، والطريق المحتمل لاستنشاق رائحة
القلب وتذوق طعم النفس على الشفاة ؟ لما ذوي النحل في صوته ،
ومذاق العسل في حلاوتها ، وصير الأزهاري رائحتها .

فاضطربت روكسان وقالت : حبك يا كروستيان ؟ فقال :
إن القيلة شريفة يا سيدتي ، حتى إن ملكة فرنسا لم تبخل بها على
نبيل من نبلاء الإنكليز وكلاهما شريف عظيم ، قالت : اسكت
ولا تزد قال : أنت الملكة التي أعبدتها ، وأدين لها أكثر مما
دانت فرنسا بملكيتها ، وأنا اللورد بوكينجهام في صدقه وإخلاصه
وأله وحزبه ، قالت : وفي بصلاله أيضاً ، فانتفض سيرانو وشعر
بوخرة الألم في قلبه وقال : نعم في جماله ، ولقد كنت لذلك
ناسياً ، فقالت له : اصعد أيها السيد المجلود لانتفاخ ثلث
الزهرة التي لا نظير لها ، فأخذ سيرانو يبك كروستيان وقال له بصوت
خافت - اصعد وتناول القيلة التي تريدها ، فحبس وتكأ وقال :
ما أشد عجلي وحياتي ، قال : اصعد أيها الحيوان وتناول القيلة
التي لا يستحقها منها غير شفتيك الورديتين ، ثم دفعه بيده فسلق
أعضان الياسمين ، حتى بلغ مكان روكسان على الشرفة فألقت
رأسها ليعمل على عائقه ، فاحتصمها إليه ورسم على شفتيها تلك
القيلة التي لما ذوي النحل في صوته ومذاق العسل في حلاوتها
وعبير الأزهاري في رائحتها ، وسيرانو وأصبح يده على قلبه يتلوى
في مكانه تلوي المسوخ ويتأوه آهات شجيات مضمرات ، ولكنه
ما لبث أن ارتوى وتجمل وبلغ إلى سلوته التي اعتاد أن يلجأ إليها
كلما عظمت آلامه وهوسه ، وأخذ يبري نفسه ويقول :

يا مادبه الحب العظيمة التي أنا صاحبها وحييها ، هيا للذين
يدنونك طعنا ، ويتناولون ثمارك ، ويرتشفون كثوسك ، أما
أنا احبسي ملك هذا القات الذي يتناثر علي من مائدتك دون
روكسان لا تغفل شفتي شفتي كروستيان ، بل تغفل عليه كلمتي
التي ألقيتها في أذنه وسحرته بها

وهنا رن صوت قيثارتى اللاميين للحين محتجين - من مسرح
وأخبر عرن : سألت روكسان ما هذا ؟ فقال لما كروستيان
لعله سيرانو يتمشى في الطريق مع غلاميه الموسيقيين ، فانتفض
سيرانو من تحت الشرفة إلى موقف الغلامين لحدتهما قبيلاً ثم
أشار إليهما بالانصراف وعشى بترجح في شيته كأنه شرب ثل
وينعى بعض الأخطاء كأنه قادم الساعة ، فما وقع نظره على كروستيان
حتى تظهر بالدمعة وقال له أياي أنت هنا يا كروستيان حتى
لأن ؟ فقال له بصوت عال تسمعه روكسان نعم أحدث روكسان
وتحدثني وإلى أين أنت ذاهب ؟ قال لقد مللت هذين الغلامين
وسئمت الحفلة وتمت من طول المسير فمررت على الرواح
إلى المنزل ، فأشرقت عليه روكسان عندما سمعت صوته وقالت
له : تنظري يا سيرانو لوني قادمة إليك ، وأقيمت باب الشرفة ،
وفي هذه اللحظة أقبل الكاهن مصباحه وهو يحدث نفسه ويقول
ما رلت عن رأيي الأول عند المنزل هنا في هذا الميدان

وبعد ظهرت روكسان على عتبة بابها يتبعها كروستيان وورجنو ،
فلما رأت الكاهن دعرت وصطرت فتقدم نحوها وحياتها ومد
يده إليها بكتاب فدفنت له ما هذه ؟ قال : كتاب بعثي به
إليك السيد الصالح اتقي الكوب دي جيش صهر سيدنا ومولانا
صاحب القناسة الكروديان دي ريشيه من دير القديس أناتاس :

ولا بد أن يكون مشتملاً على غرض من الأغراض الشريفة الملقحة
أو مكرمة من المكرمات العليا فاقربها ؛ ففناؤه وقرأت فيه على
مصابيح راجنو وهي صابرة هذه الكلمات ؛

سيفتي .

الطبول تلق وقد أعد الجيش عدته لارحيل ، والجميع يطول
أي في مقدمته ولكنني تخلفت وحسبت أمرك لأنني لم أستطع الصبر
دون أن أتزود منك بذلك الزاد القليل الذي سألتك إليه . فاعتصري
لي دهي قربي ما أدبت إلا في سيفتك وهذا أنا . قد قدم إليك
بعد قليل ، فمهدي لي سبيل رياتك ، إن شئت قد انضم لي
اليوم ابتسماً جميلاً ، ولا أحب أن أفارقك قبل أن أراه مرة
أخرى ينضم لي تلك الابتسامة البديعة المؤثرة

وقد بعثت إليك بكتابي هذا مع قيس أبلي لا يهمهم من شؤون
الحياة شيئاً سوى إقامة الصوت ، ونزعة المحتصرين ومباركة
المزاجين ؛ فلا ينالك من أمره شيء .

دي جيش

وهنا برقت عيده يبارق غريب والتفت إلى الكاهن وقالت
له . اسمع يا أبت نص الكتاب فهو بمثابة أمر صادر إليك ،
وأحدث نقرأ بصوت عال ما لا وجود له إلا في عينتها وتقول .

سيفتي

يجب عليك إطاعة أمر قداسة الكرديمال . وهو بأمرك أن
تزوجي إليه سراً من البارون كرسنيك دي بوفيت ، وأنا وإن
كنت أعظم أنك عبر راضيه عن هذا الزواج ، وأنت لا تحيين

هذا الفتى ، ولا تحيين في مصمت ارتدحاً لما شرته ، لأنني أرى
ذلك أن تخصني لأمر الكاهن الأعظم وتدعي برغته . فالحير
كل خبر فيما بره . ويشير به ؛ فاصبري على قضاء الله وقدره ،
وانتظري حسن المثوبة منه والجزاء الأولي .

وقد بعثت إليك بكاهن من أفضل الكهان وأغصهم وأحفظهم
للأمر . يقوم بعقد هذا الزواج السري بيكما في مراك ، عاقري
عليه كتابي هذا . ويصحب أمري وكولي على ثقة من إحلاصي لك
واحتراحي الدائم لمقامك الكريم .

دي جيش

ثم صوت الكتاب ، وهي تظهر بالأسف وحزن ونفول
آه ما أسوأ حظي وأعظم شقائي ، ثم همست في أذن كرسنيك
قائلة له . ألا ترى أي أحسن قراءة الرسائل ؟ قال . مكنتي دهي
أكدت الموت فرحاً ، أما الكاهن فقد نبأ وجهه وابسطت أسنانه
ومن يقول له . الله من سيد سبيل كريم ما صوب دهي فيه . وفي
حسن مقاصده وشرف أمره . ثم رفع مصباح إلى وجهه سراً
وقال له . لعنت الزوج يا سيفتي ، فامتنع لون سربو وأشاح
بوجهه عنه فتمدح عوه كرسنيك . لا . بل يا سيفتي ،
فادسني المصباح من وجهه فرأى وجهاً جميلاً مشرقاً فظل يهر
رأسه كانهرب . ثم التفت إلى روكسان وقال . يحين لي
سيفتي أن همست في هذا الزواج بيت عظيمه كما تتوهمين ؛
فارتدت ودفق قلبه حقاً شديداً محبة أن يكون قد فهم شيئاً .
ثم ما لبث أن عرفت وجه خيلة في ذلك التفتحت الكتاب لتهمة
وفاس . لقد فاتني يا أبت أن أقرأ عليك الحاشية التي كتبها الكونت
في كتابه . وهي تتعلق بديركم المقدس فاستمعها . وقرأت ما يأتي

« ويأمرك صاحب القداسة أيضاً أن تبرع للذين من ممالك المحاص
عشرة آلاف فرنك ، فالتصوي بأمره وأدخيلها يدا عند الله صالحة »
فتلأ وجه الكاهن واستعير فرحاً وسروراً ، ولم يبق لتلك الزينة
التي خالجه أثر في نفسه ، ولأن لما لا مناص لك يا سيدي
من الإذعان لأمر صاحب القداسة والله يتولاك برعايته ، فالت :
سأذهب لأمرك يا أبت ، ثم خضعت براجو وثمرته أن يمتشي أمامهم
بمصاحبه فصل فدخلوا منزل حبيباً وتراحت روكسان قليلا
قبل دخولها ، فجلست سيراو من يده وأسرت في أذنه قائلة .
لما أنت غائبة هنا حتى يأتي الكونت فامسه من الدخول وداعبه
بكل حيلة وترفق في الأمر ما استطعت حتى يتم عقد الزواج ،
فقال : سأفعل ما يرضيك يا روكسان فكوني مطمئنة ، فتركته
وخرجت بالقوم ونفي هو وحده يصكر في الطريقة التي يسبح بها
الكونت من الدخول إذا جاء .

سباحة في القمر

وما هي إلا هبة حتى رأى شيخ الكونت مغلا من بعيد
فدخل سبعة والتفت فمطعمه وأرسل فبته على حية وتلق شجرة
ابسمين وكس بين أخصابها ، وأقبل الكونت وأصفا على وجهه
هدبا أسود ، وهو يلمس الطريق في هد الظلام الخالك ويعمل :
يب شعري أين ذهب ذلك الكاهن المحوس وماذا صنع بالرسالة التي
بعثته بها ؟ لا بد أن يكون قد بلغها إلى روكسان وانصرف ثأنه ،
ولا بد أنها تنتظري الساعة داخل المنزل .

ونجته جهة الباب ، فمد يده حتى سقط جسم عظيم بين
يديه سقطه هائلة دوت بها جوانب أيدان كأي هو غاطس من عليها

السما فظلمه ، فاد هو رجل متضع مثلم فقدر وتراجع وقال
من هذا ؟ تقدم نحوه سيراو خطوات بطيئة متتافلة ، وقال له
بعملة أشبه بعملة الخلم المسترق : كم الساعة الآن ، أيها الإنسان ؟
فقال له : من أنت ؟ قال : أنا رجل من سكان كوكب القمر
سقطت منه من زمن لا أعلم مقداره ، هل هو يوم أو ساعة
أو دقيقة أو عام أو أعوام ، لأن صدمة السقوط أذهبت عني
صبي علم أتق إلا هذه اللحظة ، ولا أعلم هل سقطت في كوكب
الأرض أم في كوكب آخر غيره ، فقل لي أين أنا . وفي أي يوم .
وفي أي يوم . وفي أي ساعة ؟ علم الكونت أنه يجود أو يمل ،
فأراد ملايته ومدبرته ، فقل له : اسبح يا ضرور أو لا
وسأحبرك فيما بعد عما تريد ، قال : يجبل إلي أنت نفسي مستوح
أو محبولا ، فاعلم أنني لا أحدثك عن حيل بل عن حقيقة
لا ريب فيها ، وأني قد سقطت من كوكب القمر سقوطاً
اصطراهما لم أملك فيه الجدار لنفسي ، فظننت أنخط بين الكوكب
والبحر والندبات والشهب حتى وقعت في هذا المكان الذي
أنجهه ، ولا أعلم أين موقعه من العالم ، ثم رجع نظره إلى وجه
الكونت وصرح صرخة هائلة فرغ من الرجل وتراجع بصع خطوات
وظل سألته : ما ذلك ، ما يالك ! فقال دلي سراد ، جهت وظلمته
على أنني قد سقطت في خط الاستواء بين قبائل الزنوج ، فأسفاه
وأسوء حظاه ، فمسن الكونت وجهه بيده ، وكان قد دخل
عن فبائه فحسره عنه ، وقال له : لا تخف ، هو نقاب أسود
كنت أملكه على وجهي لمعن الأسماك الحاصلة فهذا سير بو
قليلا ، وقد له عمداً يا سيدي ، إذا أنا في عيبيا أو فينا ؟
فقل لي في أي مدينتي أنا ؟ فصرح الكونت ، وقال له : سواه

(١) يشير إلى أن عامة انتقابات سروده في هذين البدين أكثر من غيرها

أكنت في هذه أم في تلك مدعي أمر فان إحدى السيدات تنظروني ، فقال آه ! لقد فهمت الآن ، لا أدان أكون في مديس بلد الوعود والمقالات والأسيد والسيدات فالحمد لله على ذلك . ومد يده إلى ودته وظل يحسبه كأنما يقصص العبد عنه . ثم وقف متأدفاً وأحس رأسه بين يديه . وقال له « اعصرني يا سيدي مقبلي إليك بهذه الملابس الزينة الصغيرة فقد كان سقوطي مع الزوينة الأخيرة فانتشر عار الأمير على ملاسي وملات عياني بمرات الضوء . وعاقبت مدعي بضع ريشات من ريش السر الطائر ، ثم مديده إلى مدته كأنه يتناول ريشة عانة بها وصل يعضها في فمها . فردد عيط الكونت وعظم صجره . وقال له . تبع عن طريقتي يا سيدي ، فاني أريد اللخوب . وحل بدعته أمامه حتى بلغ الباب فترى سيرة على الأرض ومد يده في مدخل الباب وكشف عني وقال له . عطر يا سيدي إلى سائي فقد عصي فيها « الذب لأكثر » عصبه مؤلة لا يراى أثرها بامياً حتى الآن ولقد وقع لي ذلك في الساعة التي كان يصدرني فيها « السمك الزميج » برحه المثلث لأمنة . وما أفلت من محال الذب حتى سقطت فوق حمة العقرب فلدغني في سائي الثانية . واضطرها هو أثرها . ومد سانه يديه أبصاً مستحاج على الكونت انور . ثم قال له « وأؤكد لك يا سيدي أنني لو عصرت أنفي الآن لحرى من سبل دافق يحمر هد مبدد حبيبه . أتدري ماذا ؟ »

لا . قال لأني سقطت بعد ذلك في بحر ، دجرة ، فضلت أنسج فيه حتى أعياى رجيد . ولو لا أن « الذب لأصغر » مد يده إلي فاقبطني في جوت . وعدم أنه لم يفعل ذلك تكرمه من وتفصلاً بل كان يريد أن يعصني نصاً كما عصي أخوه من قبله معمر عن ذلك لأن أسدبه صغيرة جداً كأنها حب الكأس فاستطعت

الإفلات منه وانحدرت إلى « القنطرة » لاحترمتها وعلقت يدي بوتر من أوتارها فانقطع وظل معي حتى الآن وسأريكه إذا أردت ، ومد يده إلى جيبه كأنما يريد أن يخرج به . ثم قال . لا لزوم لذلك الآن ، فقد عرفت حتى أن أولف كتاباً أسبه « سياحة في القمر » أدون فيه هذه الرحلة جميعها وسأرصد فتبه بالشهب الصغيرة التي جعلتها في معطني من غابات السماء .

فاشد جرح الكونت وعد صبره وقال له : ثم ماذا ؟ قال : أغش أنك تريد أن تعرف الآن شيئاً من أخبار سكان ذلك الكوكب الذي عشت فيه حقبة من الزمان . فقاطعه الكونت وقال . لا ، لا أريد أن أعرف شيئاً مدعي أمر ، فان يبي وبين أصحاب هذا المنزل مبعاداً لا بد لي من الوقاه به ، قال ولكنك ولقد عرفت كيف نزلت من السماء لا بد لك أن تعرف كيف صعدت إليها . إني صعدت إليها بطريقة عجيبة جداً أنا الذي اخترعتها واشتركها فلم ألق إلى السر البليدي كما فعل « رجيومونانوس » ولا إلى احسانة اللهاه كما فعل « أركيتاس » وكان دي جيش مولماً بنص النول يعلم الفلك ، ولوع الكثير من الأشراف والنبلاء الذين يراولون بعض القنول تجملات ونهياً دون أن يدركوا من أسرارها شيئاً فقال في نفسه إن الرجل وإن كان مجنوناً فهو واسع الاطلاع غريب الماداة واستهواه حديثه فبدأ يهيب له ويستمع صிரاقو يقول .

ولم أفلد أحداً من الطيارين الذين سبقوني بل خضرت على دلي ست طرق لاحتراق أطباق السموات ، لم تحط على مال أحد من محول علم الفلك وبواعه ، عدهش الكونت وقال . ست طرق ؟ !

(١) اسم كتاب ليجالو دي مجرالك كما ورد في ترجمه حياته .

فأعجب الكونت بذلكاه وضطته وقال له : حيث ذلك
واشد لي بالذهب ، وتأهب للقيام ، فانزعج سيرانو وثبت
مردده وقال له - ولكن فائلك يا سيدي أن تسألني عن الطريقة
التي اخترتها من بين تلك الطرق واعتصمت عليها في هذه الرحلة
القصيرة ؟ قال - قل لي وأسرع . قال - لم أحتج واحدة منها ،
بل اخترت طريقة سابعة هي أعرب الجميع وأعجبها . قال -
قل ما هي وعجل ، قال - أراهن أنك لا تعرفها ولو فكرت
فيها ثلاثة أيام ، مضى صدر الكونت وقال - أعرف لك أي
عاجر عن معرفتها ، فقل لي ما هي فقد صفت بك ذراعاً ؟
وثار من مكانه غاضباً ، فوثب سيرانو واعترض سببه وقال له -
ما هي فاستمعها . ثم مد ذراعيه إلى الأمام وظل يلوح بها في
الهواء كما يفعل السابح على سطح الماء ويعبث هو - هو - هو ،
فدهش الكونت وقال ما هذا ؟ قال - المرح الملائع ، قال -
لا أهمهم ما تريد ، فان اند واخر . قال - لا أهمهم شيئاً فقل
ماذا تريد ؟ قال - بما أي أعلم أن القمر هو السبب في حركة المد
والمرور هذا تحت على صفة الظهر ساعة اند حتى غمرني الماء ،
مستطراً ساعة المخرور ، وما هي إلا لحظة حتى دنا القمر من اللعبة
فجذبها وجذبني معها ولم أرل صاعداً أحترق حجب السماء حجاباً
حتى - وبعد صوته بها طويلاً فقال له الكونت بصحبر شديد -
حتى ماذا ؟ وكان سيرانو قد صمغ جبهه القوم وهم مقلون من
داخل المنزل يعلم أن الأمر قد انتهى . فقال له حتى تحت حصة
القمران . وألقى به رداًه وورع قبضته من رأسه فظهر وجهه وفي
مقلته ذلك الأنف الضخم العظيم ، فانعص الكونت وعال -
سيرانو ا ثم التفت وراه رأى العروسين حقيبتين في ملابس

قال نعم ، هل تعطيني أن تعطيني إلى - حتى أسردا عليك جميعها ؟
قال - نعم أعطك بذلك فتكلم وأوجز ، قال - تعال إذن معي
إلى هذا المقعد لتجلس عليه قليلاً فقد انتقص علي - سرحي الذي
في سائي ، ثم جلوس من رداًه فأجلسه بجانبه وظل يقول له :

أولها - أن أجرد من ثيابي وأدير حول جسمي بصر قارورات
بلورية ملأى بقطر الندى ، ثم أقت تحت الشمس فتند إلى - غيوم
أشعتها فتجلبني إليها ، كما هو شأنها في امتصاص الأميرة والأنداء
حين تشرق عليها .

وثانيها : أن أعود إلى صندوق كبير ، فأفرغه من الهواء
بواسطة حرارة المرايا المضلعة ، ثم أملؤه بالأهوية المتصاعدة وأجلس
فيه فيصعد إلى البلا .

وثالثها - أن أصنع جريدة من الصلب ذات أذرع كثيرة
وأضع في جوفها ياروداً منتهياً ثم أمتطيها ، فكلما مرع البارود
اللطفت صاعلة في جو السماء .

ورابعها : أن أملأ - بالونا - بالنفخات ، والنفخات كما تعلم
يطلب الملا دائماً فأركبه يصعد بي حيث أشاء .

وخامسها : أن أمدن نفسي بفتح الثور ، فإذا دنا كوكب
الجبية ، أي القمر من الأرض ، وهو كما تعلم مولع بامتصاص
هذا الذهب امتصني منه .

وسادسها . أن أركب لوحاً من الحديد ، وأمسك بيدي قطعة
من المغناطيس وألقها في الهواء ، والمغناطيس كما تعلم يجذب
الحديد ، فإذا سقطت تلتفتها ، وقطعتها مرة أخرى وهكذا حتى

عربهما ، وأمامهما الشجر ووراءهما القيس والحلم ، ههم
كل شيء صباح ماذا أرى ؟ يجل إليّ أي قد جت ، وأحد
يلور يصيه ههنا وههنا كالداهل المخبون ثم مشى نحو روكان
فانحنى بين يديها وقال قد حولك يا سيلبي ! إنك من أمهر الماكرات ،
ثم التفت إلى سيراو وقال له :

أقدم إليك شقي أيها المصنوع العظيم هل تتوكلت وبوغت ،
وسيكون مولدت الخليل أعظم مؤلف ناصع للمجتمع ، ولا تس
أن ترصع ذنبه بثلث الشهب الدامية التي صدرها في مصطك من
عابت السماء ، قال ، سأعمل إن شاء الله يا سيلبي وسأقدم الكتاب
إليك تذكراً لهذه المهرلة البديعة ، فأعرض عنه والتفت إلى
القيس وقال متهمكماً ، لقد أدبت الرسالة أيها الشيخ أحسن تأدية
فلك الشكر على ذلك ، فلم يهمهم القيس عرصه وقال له ، لعلك
راض عني يا مولاي ؟ قال ، نعم كل الرضا ، ثم أحد بحطر في
تلك الساحة خطوات واسعة سريعة ثم وقف ورفع رأسه نظمة
وخيلاه ، وقد لبس وجهه تلك السحنة العسكرية القاسية ، ونظر
إلى روكان نظرة جامدة عجيبة وقال ما بصوت قاس شديد

ودعني روجت يا سيلبي ، فدمعت وأصر لومها وقالت لماذا ؟
قال ، لأن فرقة الحرس منافر الآن مع ضبة فرق الجيش ،
وأخرج من ثيابه قميصه ذلك الكتاب الذي كان قد وصله عن يمينه
الكتب سد ساعة وودى كروستيان بصوت هائل رنان ، طياه
ووقف بين يديه فقال له خذ هذا الكتاب وسلمه بعكك إلى
قاله مرفئت ، فالت روكان ، ولكنك كنت وعدني أن تتحلف
هذه الفرقة ... فطاعها وقال لها : قد غيرت رأيي عندما علمت
أنك إنما كنت تكيدني لي لا لأب عكك سيراو ، فصمت وقد
دل من صهها حثلاً شديداً وملأ قلبها حزناً وشجناً ، إنها لم تكذب

تلمس صهها شقة الكأس حتى انتزعت من يدها ، ثم ترامت
بين ذراعي روجها ، وظلت تقبله وتبكي بكاء مرأ ، مصمها
إلى صدره وظل يبكي لكأنه فصاح الكوت - حسيكماً ليفة
الزفاف ولعلها قريبة جداً ، ثم تركها وأصره ليصدر بعض
أوامره إلى الجيش وهو يرمي سيراو بنظرات هائلة لو رمى به
أحد غيره لصحقها ، على أن سيراو كان في شاعر عنه عما كان
يعالجه في أعماق صه من الألم النمص عند رؤية تلك القنلات
الحبيلات المتبادلة بين هذين العاشقين الحبيبين ، وظل يقوب بينه
وبين صه يا له من سيد ! وبيا لي من شقي ! كلان يحبها ،
وكلانا يموت وحداً بها ، ولكنه استطاع لأنه جميل أن يلمسها
ويقبلها ، ولم استطع لأنني دميم أن أنال منها شيئاً في حياتي ، أكثر
من أن أقبل طرف القمص الذي كانت واصمة يدها على طرفه
الأخر من حيث لا تدري ، وهما هو ذا الآن يمسها إلى صدره
مصمة الوداع وينزود منها الراد الذي يصيه على صه الطويل وشفته
اليمنية ، أما أنا فكل رادي صه هذه الدمة التي تفرق في عيني
ولا أستطيع إزالتها غفلة أن تراها .

وهما دقت طبول الجيش مؤذنة بالرحيل فدها صهما سيراو ،
وقال لكروستيان حرك ذلك الآن فهيا بنا ، فلم يثنه كروستيان
إليه واستمر في شأنه ففعل بصدده من يده ويقول هيا بنا فقد دقت
طبول الرحيل ، فقال - أمهلي قليلاً يا سيراو فذلك لا تعظم
ما يصح الفراق بقنوب العاشقين ، قال أهدم ذلك حق العلم
فهيا بنا ، فالتعت إليه ووكسان وغالت إليّ أكل إليك أمره
يا سيراو فعنني ألا يهدد حياته شيء ، قال - سأبتعد إن شاء
الله تعالى ، غالت وحدني أن يكون حيدراً ميقظاً ، قال سأحارب
ذلك ، قالت وأن لا يتألم من البرد والصقيع في ثلث الأشواء

الثلجية الباردة ، قال : سأفعل ما في وسعي . قالت : وأن يكون لي وفياً مخلصاً ، قال : أظنه لا يستطيع أن يكون غير ذلك ، قالت : وأن يكتب لي دائماً ، قال : أما هذه فأعدك بها .

الفصل الرابع

الميدان

بدأ الحجر يرسل أشعته الأولى إلى جوانب الميدان ، وكانت فرقة الحرس نائمة في سمح تل مرتفع يحميها ويحمي موقعها ، وكانت قد حوت على الجحود ثلاثة أيام لم ينزلوا طعاماً ، ولم ينزلوا شيء حتى ماتت حالمهم وشجبت أنوفهم ، وخارت قواهم ، فاستيقظ أحدهم وهو يتصور جوعاً ويقول : أه ما أشد ألمي ، فاستيقظ بعض رفاقه على صوت أنبه وظلوا يتضورون مثله ، فشرع قائدهم بحركتهم ، وكان واقفاً على قمة التل إليه كله يتولى حراسة الموقع بنفسه ، فالتحقوا إليهم وقلب نظره في وجوههم ، ثم قال هم : ناموا يا أولادي فلانهار لا يزال بعيداً ، فقال له أحدهم وكيف بنا بالنوم وقد أفلق الفجر مضاجعنا وحال ميتنا وبين الشمس ، فكس رأسه وصمت ، وقد أصمى بين جبينه نوعاً لا يعلم إلا الله مكانها من أمانها صم .

ولهم لكذلك إذ سمعوا من ناحية العدو بضح طلفات نارياً فثاروا جميعاً وانتدروا سيوفهم صجدوها من شهادتها فصاح بهم : لبريه ، هذلولوا روعكم يا إخواني وإلثا في أماكمكم فإن سيرانو قد عاد من رحلته التي أعاد أن يرخلها سحر كل ليلة وأصل أن الأعداء قد دعوا شبحه من بعيد فأطلقوا عليه مصص المقدوفات وأرحوا أن لا يكون قد أصابه بها شيء ، فكس جانهم وعادوا إلى مصاجعهم ، وما هي إلا هنيهة حتى ظهر سيرانو

على قمة التل مفرح إليه صديقه لبريه متلهماً ، وقال له : هل حرحرت . قال لا ، لأنهم يحضنوني دائماً ، قال . ولكني أحاف عليك إن أخطأوك اليوم أن يصيوك غداً ، قال ومادا أصنع ، وقد وعدتها عه أن يكب إليها كثيراً ، ولا بد لي من الوفاء بعهدي قال إنك لم تخبرني حتى الآن عن الطريقة التي تخذلها للتكر والتواري عن عيون الأعداء وأرصادهم ، قال لقد اعتدت من زمن إلى مسك حفي وراء هذا جبل لا تقاله أنظارهم ولا تحتد إليه حوشرهم ، فإنا أسألكه برفق وحذر حتى أصل إلى الموضع الذي أجد فيه من يتولى توصيل الكتاب إلى روكسان . قال إذن يمكنك أن نأثينا كل ليلة بشيء من القوت يمد به حوصنا ؟ قال ليتني أستطيع ذلك ، بن ليتني أستطيع أن أقوت عصي ، إما حت هنا سحاصر الأعداء في أراس فأصبح محصورين خارجي ، وقد أحاط بنا جيش العدو من كل جانب وأخذ علينا شهاب الأرض فلا سبيل لـ إذ أي شيء حتى إلى القوت . وأحرق برأسه هيبه ، ثم قال ولقد وقفت الليلة أثناء عودتي على حركة في جيش العدو هائلة جدداً ، ويجعل لي أن العدو يجعل في ضيائه أعظم حادثة مرت بنا في هذا الميدان فلما عا الجيش الفرنسي من محال الفروع أو هلك من أوله إلى آخره

عاصر وجه لبريه وقال له قل لي ما ذا رأيت ؟ قال لا أستطيع لأنني كنت على بعد ، فدعي وشائي وأستودعك الله ، قال : إلى أين ؟ قال إلى حبيبي لأكتب إلى روكسان رسالة الصدا ، وبعثت الرسالة الأخيرة . ثم مشى إلى خيمته وبريه يتبعه يظفراته الحزينة الدامعة . ويقول : ورحمته لك أيها الصديق المسكين .

شرت الشمس دايها البيضاء في آفاق السماء ، فاستفظ
 اجساد من نومهم بأنوار من الخور ويرغون ضعفا وإعياء فقدم
 نحوهم قائمتهم وحاول أن يجرهم ويهوي عليهم الأمام ، وهو
 إلى التعزية والتعزير أوحج منهم ، فلم يشعوا له وأحلوا يرمونه
 نظرات السخط والصب ، فأمرهم أن يقتلوا أسلحتهم وأحلوا
 أهبتهم فأعرضوا عنه . ولم يعملوا به وشق بعضهم إلى بعض
 يتهايمون ويتعامرون ومرت غاضلهم وحررت على أرواحهم
 كلمة الثورة : ، وهي الكلمة المائلة التي تأتي دائما في ترتيب
 قاموس الحياة بعد كلمة الخور ، فانتصص القائد واستطير رعبا
 وفزعاً ، وهرج إلى خيمة سيرانو فتهب به . دماء ، فقال له .
 أدرك البؤود يا سيرانو ، فقد نال منهم اليأس أو كاد ، حتى
 طلقوا بكلمة الثورة ، مخيفة ، فخرج إليهم سيرانو وأخذ يحطو
 بينهم خطوات هادئة مطمئة ويسارقهم من حين إلى حين نظرات
 الغلب والتأييد . حتى سكنوا وهدأوا وخصوا أبصارهم شياء
 منه وخيلاً ، ثم أخذ يمارحهم ويداهبهم ويض في مفاكهتهم
 ومطايبتهم حتى سرى عنهم بعض ما بهم . فقال له أحدهم .
 أما في هموم الحياة وآلامها ما يشعلك عن الشكاسة يا سيرانو ؟
 قال . لا ، ولو أن لأمري أن يحار لعمه الميتة التي يريدتها
 لاخرت نفسي أن أموت في ليلة صافية الأديم مثلاًثة السجود
 تحت قبة السماء بأجمل سلاح ، وهو السيف ، وفي أجمل بقعة ،
 وهي الميدان . وأن يكون آخر ما أنطق به كلمة لطيفة يتحرك
 بها فمي في الساعة التي يمس فيها دباب السيف قلبي .

ثم هتب « يايراترايو » فلباه جندي شيخ قد أوقى على السنين

من عمره فقال له أخرج نايت من كيست وعن هؤلاء الأطفال
 الشرحين تك الأعية الحاسكوية التي تذكرهم ببلادهم ومدهد
 تفوتهم ومعني صمم فأخذ الرجل يحسب ويحيد في توقيعه
 وسيرانو معي معه ، فأشرق الخود رؤوسهم ، وقد تغلت بهم
 بلادهم كأنها حاصرة بين أيديهم بروح حياء وودايا وعابايا
 وأحرشها ويرون الرعاة انسر دلالتهم الحراء يسوقون أمامهم
 قفصا بقر والأغصم والقبث في أنوار القصرة حاملات جرائهم
 على رؤوسهم وهي داهبت إلى العذراء أو صارت عنها فأحدث
 اندمهم تحدر عن حدودهم فيسحبونها بأعزاف أردتهم في
 صمت وسكون .

صمت القائد سيرانو ذلك تيج أشجابه وتشتير الأمام
 هذه الذكرى . قال فسكوا ولتأثروا عنهم يتلهون قليلاً من
 آلام الخور التي يكايدونها ، وليت جميع الأمام تنقل من أمعائهم
 إلى قلوبهم فيسرعوا . قال إلى أحاف على حبيبهم أن تنمر
 وتضعص . قال لا خيبك ذلك ، سيدي فإن يكأنهم عن
 وحسب الصغير لا يسبهم واجهم لوطهم الكبير ، وإن أردت
 أن تكون على بينة من ذلك فانظر ماذا أصبح ، ثم أشار بإشارة
 حثية إلى حامل الفضل أن يدق ضله دقة الهجوم ففص ، فتنصص
 الخود من أمامهم وثارو إلى أسحتهم يتقلدونها فقل للقائد
 نظري يا سيدي إلى هؤلاء الأطفال الساكن كيف استحالوا في لحظة
 واحدة من بيوت كودس عندما سمعوا دماء وطهم . ثم التفت
 إليهم فهدأ رؤوسهم وقال لا عمتكم فربا يا أبناء حاسكوب .

وهم لكذلك إذ هتب الحارس القاتم على رأس التل باسم
 الكونت دي جيش رئيس أركان الحرب ، فما سمع الخود اسمه

حق وجعوا وانقصوا واتسروا على وجوههم الآثم والافقياس
 وأخذ بعضهم يقول لبعض ما أتفل ظله ! ما أسمع وجهه !
 إنه غاص النور ، يلبس الثعوب الرقيقة فوق اللوح ويبس
 الحذاء اللامع في ميدان الحرب ، ما أكثر تحمله ! إنه لم ينجح
 في حياته إلا من طريق المدهنة ، سبه أنه صهر ذلك الرجل
 الذي يأكل في اليوم أربع أكلات في الوقت الذي لا يكاد يظفر
 فيه بأكلة واحدة ، في الأرملة الأيام ، فانتهرهم قائدهم « كاريون »
 دي كاستل ، وقد سمع حديثهم وقال لهم :

ولكن لا نسوا أنه جاسكولي مثلكم ، فقال له أحدهم .
 نعم ، ولكنه جاسكولي عاقل ، وما خلق الجاسكولي إلا ليكون
 مجبوراً ، فقد سيرانو مصبني إليكم يا إخواني أن تتجلبوا
 أمامه وتكتبوا في أحادي يوسمكم هومكم والآمكم ولا تسمحوا
 له بالشفاعة بكم ، أما أنا فأحس هناك قليلاً على هذه الصخرة
 لأراي كتاب « دي كارت » حتى ينصرف ذلك الرجل لشأنه .
 فأمرهوا بفتح آثار اللوح من صدورهم واستندوا حلقات
 صغيرة وأخذوا يلعبون الورق ويتباحثون كأنهم لا يشكون
 همأ ولا ألماً ، فدخل الكونت دي جيش متجهب الوجه مكتمل
 الحنين ، وكان قد سمع أكثر حديثهم وغراً على وجوههم ما
 يصمرون له من النقص بين جوانحهم فصاح فيهم - لقد سمعت
 بأذني بعض ما تقولون أيها الأشقياء ، فطلعت أنكم لا تتركون
 فرصة تمر بكم جون أن تتناولوني بالستكم وتناولون مني ،
 قسموني ثائرة مثلاً وأخرى مثلاً ، وتعيون على حسن هنامي
 ونظافة لمبي ، كأنما تزعم أن الجاسكولي لا يكون صحيح السب
 إلا إذا تصملك وتنثت وأصبح من البائسين المفلوكين .

وكان ينكلم ويخود معبود على ألعابهم يشعرون به كأنهم
 لا يسمعون ما يقول ، فقد هم وهو يشير إلى قائدهم ولقد
 كنت أريد أن آمر هاتككم بمديتكم ولكني قد طعمت القائد
 وقال به . وأنت فعلت ذلك يا سيدي ، ادع لأمرنا ، وصغر
 وجه الكونت وقال ولماذا ؟ قال لأني دعيت لتلبية العامة
 صريه رئاسة وهي تعني صاحب السلطان ليطبق على فرقي
 لا يدري فيها منافع ولا أحصع في أمرها لإرادة غيري ،
 وبعد فليس من الرأي أن يحاسب القائد جوده على حب والحسن
 والحرص والصدق ، أو أن يعذب إليهم شيئاً سوى الصدقة والإعانة
 لأمره ونوحيه ، فوجه الكونت وم استطع أن يقول شيئاً ،
 ولكنه نكت إلى حدود ودلهم ، في أحترمكم جميعاً أيها السهفاء
 الثرثارون وأحترم معاصيكم ومعزكم لأني أعرف مكانة نفسي ،
 كما أن بأس جميعاً يعرفون وأعلم أي حدي شريف مقدم
 لا أأني بالمعاصر التي تمرصني في عريفي ، وقد رأيت جميعاً
 موقفني العظيم في « ديون » الليلة الماضية وهجومني بنسي ثلاث
 مرت على رحاب الكونت « دي نكو » حتى أحاطهم إلى اهرجة
 التي تعرفونها

وكان سير لا يزال مكباً على كتابه يقرأ فيه فقال به وهو
 مطرق رأسه لا يرفع وجهه وما رأيك في وشاحك الأبيض يا سيدي ؟
 قد هبش الكونت واصفر وجهه وقد له ومن أين لك علم بذلك ؟
 نعم وقع في بيلة أمس أبي ييسا كنت أخوف في أنحاء المدن لأجمع
 رحاني استعداداً للهجوم الثالث إذ دبح عصيلة صغيرة من فضائل
 جيش العدو تنهقر على مقربة مني فطعمت فيها وانسلخت وراءها
 مدافع يائس مستغل لا أنوي على شيء مما ورأيت ، مما هو
 إلا أن أدركها وأحمت سبيعي في ساقها حتى رأيتني بعد قتل

وسط خطوط جيش العدو الأكبر وإذا الخطر محقق في من كل جانب ، صحت الأسر لا من أجل نصي بل من أجل الجيش الذي أقوده وأدير حركاته وكان الظلام حالكا جليلا على شيء سوى رفاقي الأبيض فأسرعت بإلقائه إلى الأرض لأستطيع أن أتوارى عن عيون الأعداء فيصيح عليهم مكاني . ثم اسللت من بينهم وغادرت صفوفهم أنما مطمئنا ، وما هو إلا أن بلغت مأمنى حتى جمعت رجالي وكثرت عليهم كرة هائلة فكانت الواقعة الثالثة التي أحرروا فيها ذلك النصر العظيم ، فمادا يقولون في هذه الحيلة الغريبة ؟ وكان العدو لا يزال مكين على المهام لا يرضون إليه أنظارهم ، يستمعون القصة وكأنهم لا يسمعونها حتى انتهى منها ، فأمسكوا عن القلب وشخصوا بأنصارهم إلى سيرانو وكبروا مادا يقول . فقال له إن هري الرابع يا سيدي . ما كان يرضى لنفسه ، مهما كان الخطر المحقق به عظيما ، أن يتنارل عن ريشته البيضاء لأعدائه ! فنهال العدو فرحا وانسلطت أساريهم ، وعادوا إلى جنتهم وصوراتهم ، فقال له الكونت ذلك لا يصح ، وإنما الذي يصح أنني قد حققت شي ، واستغيت حياتي لوطي . وسلبت من العدو يوما كان يريد أن يعله من أبام عبده وفجاره ، قال أما الفكرة مديسة جدا لا أرتاب فيها ، ولكن الذي أعلمه أن اخذني ما حقن إلا ليموت ، فمن العار أن يحسر هذا الشرف بأي شيء كان ، وأقسم لك يا سيدي أنني لو كنت حاضرا معك في تلك الساعة ما كان علي أن أرى وشاحك العظيم في يد أعدائك دون أن أقاتل عنه ، حتى أقتله ولو بجاني ، قال قسم صانع لا يهيم له لأنك لم تكن معي ، قال : بل كنت معك يا سيدي . وقاتلت عن وشاحك حتى استقلتته من يد أعدائك وما هو ذا . ومد يده إلى جيبه فاستخرج

مه الوشاح وألقى به بين يديه فأريد وجه الكونت وانغمس عينا وألقى على سره بوعدى الجود نظرد شرراء ملتصقة وكان هم أنتمرون ماذا أصعب لك هذا الوشاح ؟ فاقو لا ، هل سألوك به في الجود تنويع لا يسركم ولا يؤركم وصعد إلى التل وتوحيه به ثلاث مرات في أموء وحرد يعجبون لأمره ولا يرون مادا يريد ثم رب وهو يقول فما وعد نصي كل شيء فسأصفي إليكم سر من أسرار حرب ما كنت أكتبه في صدي حتى حان وقته فاستمعوه :

قد عقب مد أيام مع حاسوس من حواسيس العدو على أن يكون عوما لي على قومه فما أريد . وأن يكون محصيا لي مؤتمرا تأمرني فصيحه سيرانو وقال به ويكتب تصطبج وحالا حاشا يا مولاي . فاب ومن تصطبج ب لم أصطبع خالين فهو بدلي على معاتل قومه وعوراهم ويكمن أسرارهم من حيث لا يلهم على شيء إلا على ما يريد أن يلهم عليه ، أي أنه خدعهم ويصلتهم من حيث يتصور أنه يصحبهم ويصدفهم وقد جمع قائدا العام عليه الخزي صاح أسس ونظر في كرامة الخوع التي برلت ب . فاستمر الرأي على أن يسمر هو دعمه حسنة على رأس مرتين من فرق الجيش إلى أولس و ليطلب منفسا المؤونة والذخيرة صاهر من حيث لا يشعر بحسب مكانه وترك أهمية الجيش عذفا للهجوم الدم ، فقال به كاربون : أظاف أن يطم العدو بذلك . فبكون الخطب عصبيا . فاب قد علم فملا وهو تأهب مد لأمس لهاجما . فهمس سيرنو في أذن لبره ذلك ما حدثك عنه صاح نوم . وسمر الكونت دون بهد يعضو حاسوسهم قد يستفهم خطوطهم ويطلب على صعب نقطة فيه ليهاجموها . فالتفت معه في أن يلهم على

مروا بكم ، واعلموا أنه ما من ميتة في العالم أحر ولا أبرد من هذه الميتة التي ستموتها اليوم : فموتوا جميعاً حياة حاسكونيا وحياة مروا وتلدوا أسحتهم يشحبونها ويصحبونها

الجمعة

والثلاث سيراو مرأى كروستان واقفاً ورده مطرقاً جمداً . وقد انتشرت على وجهه قشرة سوداء من الحزن فتقدم نحوه وقال له أحاطف أنت يا كروستان ؟ قال من حزن لأني سأفارقها فانصص سيراو عند سماع كلمته انفرق ووضع يده على قلبه ورفع يديه إلى السماء ولكنه لم يستطع أن يقول شيئاً ، وصمت هنيهة ثم قال له هون عليك لأمر يا صديقي مرحمة الله أوسع من أن تصيبك ، فقال كنت أريد على الأقل أن أكتب لها كتاب وداع أجده فيه خواطر نفسي ولو عجزت في ساعتي الأخيرة ، قال لقد حدثتني نفسي ليلة لأمس - ولا أعلم كيف كان ذلك - هذا المصير الذي صير إليه لأن رأى هذا اليوم هو آخر أياما على وجه الأرض فكنت يديها عن لسان الكتاب الذي تربيته وسألت به إليها لأن ، قال أريبه ، قال هاهو ذا - وأخرج الكتاب من جيبه فأعطاه إياه ، فأخذ يقرأه حتى وصل إلى سطر من سطوره الأخيرة فتوقف دهلاً مذهولاً وقال حرب جدياً ما هذا الذي أرى ؟ قال هذا ؟ قال نعم صطه يصعد على الورق كأنها دمية فانصط سيراو الكتاب من يده وقال أربي ، وطن تأمل فيها مصعداً مسلحاً ، كأنه يفتش عن النقطة فلا يراها ، فقال له كروستان يا دمية يا سيراو ما في ذلك ريب ولا شك فهل كنت تنكي ؟ فانصص

النقطة التي أريدها وأعطيه الإشارة منها ، مصراً في نفسي أن أخرجهم بالهجوم على أقوى فرقة في الجيش لتستطيع مشاغلهم ومطاولتهم رماً طويلاً حتى يتمكن قائلنا من العودة بجيشه إلى مركزه آمناً سالماً ، ولما كانت مرتكزهم هي أقوى فرق الجيش وأمنها عزمياً ، وأصلها عوداً ، فقد رأيت أن أجعلها هدف ذلك الهجوم ، ولما كنت أعلم أنها ستموت من آخرها ، وقد كنت أعلم ذلك الجاسوس أن يقف وراء هذا القتل ليظهر إشارتي يذهب بها ، وها أنتم أولاء ترون أنني قد أعطيتها إياها تحفة ذلك الوشاح فاستعدوا للموت فقد انقضى كل شيء .

فقال له سيراو : أهذا كل اهتمامك يا سيدي ؟ إنك قد أحسنت إلى من حيث أردت إسماعيل . فالحاسكوني لا يخاف الموت بل يخاف الحياة مع اللذات والنعيم ، قال : ما شككت في شجاعته فقد يا سيراو فون من مقاتل مائة رجل وحده جميعهم لا يبالى بحظر من الأخطار مهما عظم شأنه ، ثم التفت إلى الحود وقال لهم لا أهتمكم أنني كنت أستطيع أن أختار لاستقبال هذه الدائرة فرقة أقل شجاعة من مرتكزكم لو أنني أهتمكم ورحبت بكم وحدثت عشركم وسرتكم ، أن لأن قد استطلعت لعمل واحد أن أؤذي واحداً وأشمي علي . فقال له سيراو وشي آخر يا سيدي قال وها هو ؟ مثني نحوه خطوة وأمر في آذنه أن تتمل روكسدا . هرتعد الكوب ونكس رأسه وتسلل من مكانه دون أن يقول شيئاً

فالتفت سيراو إلى الحود وقال لهم لقد آتيناكم لأصعدوا أن يصعد على شعار حاسكوني ذي الألو - الميتة لوباً دموياً أحمر كان بقعه ليكون أجمل شعار في العالم . فكروا عند ظني وطى

إلا أنه تجلد وتغصت وقام معهم ، قال : وما الذي أنكد ؟
قال ذلك شأن الشعراء دائماً ، لا يتناولون موضوعاً من الموضوعات
المحيرة للكتابة فيه عن لسان غيرهم - حتى يتأثروا به كأنهم أبطاله
وأصحاب الشأن فيه ، ولقد بدأت في كتابه هذا الكتاب وأنت
مائل في ذهني لا تفارقه ، فما زال يمتد في الحال ويظهر في
أجوده حتى تغش لي أمني أن أحرر منظم ولهاق المصروع ،
وأن الذي أصعبه في هي هجوع نفسي وآلامها - فاعمدت من
عيني بالزعم من هذه الدفعة التي براها ، عطر إنه كرسيد
نظرة عربية واحتفظ الكتاب من يده وقال له : دعه مني الآن .
ثم طواه ووضعته في ثناء قبضته وانصرف

جواز المرور

وقامت في هذه اللحظة صيحة في المعسكر ، وسعدت أكراس
مركبة قادمة من بعيد وصائح يصبح من رحاب الخرس بصوت
غبيظ أجش من القادم ؟ فصدت سيرانو وكرسيد إلى الابل ليطروا
ماذا جرى فرأوا مركبة مقفلة خفيفة تحمل شرارة من شاربات
الشرف ويحلب نحاب حوديه علامان حسا الزوي والهدم فما
شدت الحسيح في أمم قادمة من باريس وأن راكبها رسوب من
قبل الملك يحمل أمراً من مؤمره ، فاصطفو صعيص متعابين وسكوا
سكواً غمياً لا حس منه ولا حركة ، حتى وهت لمركته على
سفرة منهم فأنتمو ، بها أعانهم وشخصو بأنصارهم ليطرو
من القادم ، ثم فتح بابها فإذ صفة باهرة الجمال مشرقة الطلعة
قد وثت بها وثبة الخوف من حبيبته فصاح سيرنو وكرسيد
مأ بصوت واحد روكدت ا وكانت كما يقولون - فصدت

إلى الابل بحفة ورشاقة حتى بلغت قمته وقالت : صباح
الخير أيها الأصفياء ، لعلكم جئتم بحير ، فرجع الخنود قيمانهم
وأحرا رؤوسهم وعقدوا حولها نطقاً منهم ومن أنصارهم وظلوا
باهتت لمراها ذاهلين ، وكأني أذكرهم الخجل منها لثلاثة ملايهم
وتشت هيتهم ظلوا يحسبون لحاحم ويعتلون شواربهم ويقولون
النظر في أعينهم ليروا هل لصق بها أو خالطها ما تقدي به صيون
السيدات الخيالات ، ومرت بهم روكدت في مواضعهم واحداً
واحداً بانسانتها اللامعة المتلألئة وكلما تأمل العذبة الجميلة ، حتى
بلغت موقف كرسيد فالتفت بعينها بين درعيه ، فقال لها وهو
داخل مدحوش : ما الذي جاء بك يا روكدت ؟ قلت ، أنت
الذي جئت لي يا زوجي العزيز .

وكان سيرنو وضاعفاً مد رآها وراء إحدى الربوات موقف
الداخل المشنوه ، يردد ويضطرب ويغالب في نفسه ثورة هائلة
تنوش نارها بين أصابعه ، ثم ما لبث أن سمع صوتاً يناديه غائبه
من حشيه وتقدم نحوه وأخى بين يديها فابست له وحالته
مصافحة طويلة وقالت له : لعلك تحير يا ابن عمي ، قال نعم
وأشكر لك تفصلك بزيارتنا وإن كنت أرحو أن تكون ربارة
عصيرة . قالت لماذا ! قال : لأننا في ميدان حرب وأحش
أن يصيك من شرها شيء ، قالت : بل سأفني معكم أطول
ما نظنوا فأعدوا لي مقعداً أجلس عليه ، فالتفت الخنود تلبية
أمرها ولم يبق بينهم حامل طبل أو صاحب مسدوق إلا قنعه
إليها ، صلت وهي تقول : ما أطول الحفاة بين باريس وأراس ،
لقد كنت أظنها أقصر من ذلك ، ولقد مررت في طريقه ببلاد
شملها الخراب والدمار - ورأيت بعيني منظر الخائفين والمأوين
والمثأين والصارخين وما كنت أحسب أن الحرب تنان من الإنسانية

هذا انتال اعظم ، واحق أقول يا أصدقائي إن العاطفة التي جاءت
 إلي هذا أجل وأرق من العاطفة التي جاءت بكم ، فكم بين
 من يأتي ليفيل حبيب ، ومن يأتي ليقول عدوه ، والفتت إلى
 كرميتان وقالت له أليس كذلك يا روجي العزيز ؟ قال له
 فقال ما سيراو ولكن كيف استطعت احتراق خطوط الصو ،
 ونجشم هذه المخاطر كلها ؟

قالت لقد كان ذلك سهلاً جداً يا ابن عمي ، واسمحوا
 لي أيتها الأصدقاء أن أقول لكم ، إن أعداءكم الأسبانيين قوم
 ظفروا أرقاء لم تسمح لهم شهادتهم وشرف بنوعهم ، أن يطلقوا
 النار على امرأة عرلاء ، فالتفت كلما مررت بحارس من حراسهم
 فتحت نافذة مركبي وأشرفت عليه وانسملت في وجهه ابتسامة
 لطيفة فلا يلبث أن يستقبلني بعقلها ويشرح لي عن طريقتي فأصبر
 في سبيل ، فكانت الابتسامة هي « جود المروء » الذي فتح لي جميع
 الأبواب الموصدة أمامي حتى وصلت إلى هنا ، قال : ألم يسألك
 أحد من وجهتك التي تفصديها ؟ قالت : كان إذا سأني أحدهم
 قلت له إني داعية لروية عيشي ، فتقع هذه الكلمة المدة
 الجذابة من نفسه موقع الماء من مهجة الظالم ، الهيمان عيش في
 وجهي ويحيي بإحسان رأسه ويتركني وشأني ، فقطعها كرميتان
 وقال ما ولكسي لست بعشيقك يا سيني بل زوجك ، قالت
 ما أدريبت في ذلك قط يا روجي العزيز ، ولكن كلمة العشيق
 تنال من نفس العاشق المفارق - وكلكم ذلك الرجل - ما لا
 تنال منها كلمة الزوج ساهي واضر لي دمي

وهنا دخل الكونت دني بجيش رئيس أركان حرب الجيش
 فرأى روكسان واقفة موقفاً هنا بين الجحود فدهش دهشة عظيمة

د رآها ، وود منها فضاها وقال لها ما الذي جاء بك إلى هنا
 يا سيني ؟ قالت : جئت لأرى روجي ، لأنني لم ألتحق برويته
 بعد زواجي منه إلا تلك اللحظة القصيرة التي تطلعت فيها ، فأريد
 وجهه غيظاً وقال لها لقد أعطتكم بعمدك هذا حظاً عظيماً وليس
 من الرأي أن تلبي هنا بعد الآن لحظة واحدة ، فاعدي حدثك
 للرجوع من حيث أتيت ، قالت : لماذا ؟ قال : لأن الحركة
 ستلزم بعد ساعة أو ساعتين ، ولا مكان للنساء في ميادين الحرب ،
 فقال كرميتان وسموت في تلك الحركة يا سيني عن آخرنا
 لأن الكونت أراد ذلك ، فذهبت روكسان واصغر وجهها ،
 والتفت إلى الكونت وقالت له أصبح ما يقول يا سيني ؟
 إنك وود تريد أن أصبح أرملة ؟ قال : لا ، وأقسم لك ، قالت
 ألا تعلم أنه إذا فسر لي هذا المصير كان ذلك آخر عهدني بالديار
 ونعيمها واسمح لي غير الشمس أن ترائي بعد اليوم إلا و
 استطاعت أن تحرق ناشئتها صفائح الضبور ؟ قال أقسم لك
 يا سيني أنني ، فقطعته وقالت : كيف كان الأمر محتمل
 أن ألتحق بهذا المكان لأنني أريد أن أموت مع أبيه وطني ، فنهض
 سيراو بصوت عال فقد سقطت بكلمة الأبدان يا سيني فأهتلك ،
 فابتسمت وقالت : ذلك لأنني أمة عاك يا سيراو ، فصاح الجحود
 جيباً بصوت واحد ، مع عاك يا سيني إلى الموت ، قالت :
 شكراً لكم يا أصدقائي ذلك أملي فيكم وفي الدم الحسكي
 الذي يجري في عروقكم ، فتقدم نحوها « كاريون » قائدة الفرقة
 واعني من يديها وقال لها أم وقد أصبحت شريكنا في حفظ
 ومصير فانظري لي أن ألقا إبيك في ملبة واحدة ، قالت وما
 هي ؟ قال أن تقضي يدك القاصصة على هذا المخلين الحريري
 الحميم ، فم تعهم ما يريد ولكنها فتحت يدها فسقط انسبل

على الأرض ، فالتقطه وقال ها إله عرقني يا سيدني ليست لها راية وسيكون مفيدك هذا رايتها التي تتقاتل في ظلها ، واعلمي أن جوذي سيموتون جميعاً دفاعاً عن الراية التي فقتها هم أجل فتاة في فرنسا ، ثم عقد المنديل سان رعمة الطويل وركزه على قمة التل فطلب الريح ثعبت به وظل الخوذة ينظرون إليه نظر السائر إلى بحمة القطب الحاققة في كبد السماء

الرئيسة

فالتفت روكسان إلى الحود باسمة وقالت : ألا تقدمون لي شيئاً من طعامكم وشرايكم أيها الأخوان ، لاني أكاد أموت جوعاً ، فظفر القوم بعضهم إلى بعض ، وقد مئت في وجوههم صبرة الموت ودهمهم من الأمر ما لم يكن يحظر لهم بلال ، فتمرت روكسان بخيرتهم واضطرابهم ، فابتست وقالت أو قوموا بنا جميعاً إلى مطعم « راجو » لتناول عشاء من الطعام ما يريد ، فقال لها أحدهم : إنك تهرئين بنا يا سيدتي ، فأبى نحن من راجو ومطعمه ، قالت : لأن لا أستطيع أن أتصور كيف يكون سروركم واعتباطكم ، إذا عمت أي قد قلت لكم هذا المطعم وصاحبه من باريس إلى هنا .

وتركتهم داهيين مذهولين لكلامها وصعدت إلى التل وصعدت راجو راجو ا هت لنا عشاء ، مما آمنت كلمتها حتى أقبل راجو والبنات الخادمان يحملون على أيديهم سلال الخبز وصناديق اللحم وأقصد اللحم الناصحة ، وثروا القطائر والحلوى ، فتهمة الحود راجو راجو ودبروا به يحويه ويعتقونه ويحاذونه أنواه . فصاح فيهم : دعوني أيها الكساد وادهبوا إلى المركبة

واحملوا الطعام الذي حثاكم به بأنفسكم فحبنا ما حسنا لكم ، فهدروا إلى المركبة وعادوا بما بقي من لحم وخمر وحلوى وفاكهة فحين مقتطين ، وهم يقولون : كيف غفلت عيون الأعداء يا واجو عن هذا الطعام الشهي ؟ قال : لأن عيون روكسان الحبيبة كانت أشهى إليهم منه .

وما هي إلا هبة حتى استدارو وحلفت واسعة وأنشأوا يأكلون ويصفقون وروكان قائمة في حمتهم تقدم هذا كأساً وهذا رغيفاً ولها سكيناً ، ومناعمها تلالاً في عبيها رحمة بهم وإشفاقاً عليهم وسيرانو والغاب ناجة ينظر إليهم نظرة السرور والبطه ويردد بينه وبين نفسه : يا ملاك الرحمة والإحسان ، يا أجل نسمة طاهرة على وجه الأرض ، يا صفاً نقية صافية لم يخلق الله ما مثلاً بين نفوس البشر ، حسبي منك أن أراك ، وأن يمد شعاع من أشعة جمالك إلى قبي المظلم الخالك ، فيضيء ظلمته ويشرف لي جوانبه .

ولهم كذلك إذ سمعوا صوت الكوت ذي جيش مبعلاً من بعيد فقال بعضهم لصن : محال أن يأت هذا الرجل المبعص لقمة واحدة من طعام طيطو صه كل شيء حتى يصرف لشأنه ، وما هي إلا كزرة الضرب أن اختفى كل شيء في ثديا مداعفهم وعروج أكتافهم ووراء صناديقهم ، ثم دخل الكوت وهو يقول : ما هذه المرائحة الجديدة ؟ فقصت الحود ولم يقولوا شيئاً ، ظل يقلب النظر في وجوههم فيرى الحمرة التي سرت فيها من حرارة العشاء ونشوة الشراب فيعجب ما عجباً شديداً ، ثم قال : مالي أراكم متشبهين منهللين وعندي لكم قبل هذه اللحظة تنهاتون جوعاً وتساقطون صمماً وإعياء ! فقال له سيردو

إليها صخرة الموت يا سيلدي ، فأشاح بوجهه عنه وانصت إلى
روكان وقال لها : أياقية أنت هنا حتى الآن يا سيلتي ؟ قالت
نعم ، وما أنا بدرجة هذا المكان حتى أعود بكم أو أموت معكم ،
فأطرق هنيهة ، ثم رفع رأسه وفتح بكاربون قلبه ووقف بين
يديه فقال له : إنك ستدير الحركة المضيلة باليابه عني يا حصرة
القائد . قال وأنت يا سيلدي ؟ قال أما أنا فاني هنا لأدافع عن
روكان بنفسه لأنني لا أستطيع أن أترك امرأة في خطر . فأكره
القوم جميعاً هذه الشهامة الكبرى والعظمة النفسية وهمس بعضهم
في أذن بعض إن الرجل لا يراد بحري في هروغه الدم الحاسكوي ،
فقال لهم سيراو : قد يمكننا أن نقدم إليه شيئاً من طعاما وشرابنا ،
فاندفعوا جميعاً نحوه وعلو إليه أيديهم بما معهم من الطعام والشراب ،
فألقي عليهم نظرة عالية مزعومة وقال لهم : نعم إني أموت جوعاً
وسقياً ولكن الحاسكوي الشريف لا يأكل فضلات طعام غيره .
فصاح سيراو شهامة أخرى أبها الأصغلة لا تنسوها له .
وفتح ليحيى الكونت دي جيش ، وفتح الخرد بيتاه ، فشكروهم
الكونت بزيادة من رأسه ، ثم أنشأ يحطل فيهم خطبة الحرب
ويلقي عليهم الأوامر العسكرية حتى قال لهم ، وهو يشير إلى
مدفع جاثم بين يديه : إنكم ما تعودتم إطلاق المدافع قبل اليوم ،
فأعلموا أن المدفع يتراجع بشدة عند خروج القذيفة منه فكونوا
على بينة من ذلك واحذروه ، فصاح أحدهم بصوت عال
إن مدفع الحاسكويين مثلهم يا سيلدي لا يتراجع قط ، فاستم
له وشكروه وقال لا يحس أمني فيكم يا أبناء وطني ، ثم التفت
إلى روكان وقال لها : تعالي معي يا سيلتي لنشاهدني منظر استعراض
الجيش فأعطته يدها مصفاً ساً إلى قمة التل

وما أبعد إلا قبلاً حتى مضى سيراو إلى كرتيان وقال له

هماً كلمه واحدة أريد أن أقومها لك فامش معي قليلاً ،
فمضى معه فقال له : ربما فانتحيت روكان في شأن الرسائل التي
كانت ترد عليها منك وسعول لك إب كانت تنقلني منك كل
يوم رسالة . فلا بدحشك ذلك ولا تتركك كلاً يتصح لأمر .
قال وهل كنت تكذب إليها كل يوم ؟ قال نعم ، لكنني تهذب
لها عنك قبل سحراً - كما تعلم - أن تكذب لإنها كثيراً فلم أر
بداً من الوفاء ، وما كان يكلفني ذلك أكثر من التعبير عن شعورك
وحال صحتك . وذلك مالا يقتضي العلم به ، فإذا دعشت
في هذا الشأن فلا يمكن لك فيه قوب عبر الذي قلت لك . قال
وكيف كنت تستطيع توصيل هذه الرسائل إليها ، وقد حصرتنا
العدو من كل جانب ودادوا عن كل شيء حتى عن طعاما وشرابنا ؟
قال الأمر بسيط جداً ، كنت أرحح في سحر كل ليلة مسكر
تحت حجب الظلام ، فأكس تارة وأظهر أخرى فقاعد كرتيان
وقال له : وهل هذا بسيط جداً ؟ احسن أقرب بك يا صديقي ،
إني أصبحت أصعب لأمرك كثيراً ، ولئن استطعت أن أهتم
كل شيء فربني لا أستطيع أن أهتم بتدبير هذا الأمر هذه
الاهتمام كله إلى درجة اضطرارة تحياث في سبله ، قال ما في
لأمر عاطرة ولا مجارة ، فقد كان يد لي كثيراً أن أقوم لك
هذه الخدمة ، وأن ألقى ما ألقى من الأخطار في سبيلها . قال
وما الذي كان يصعبك من ذلك ؟ قال : التمثيل فاب أي تمثيل ؟
قال تمثيل عود صحتك وشعورك ، فربني منذ أخذت نصبي بتمثيل
نورك في هذه المسألة المحزنة لم يرل يستهوي التمثيل ويهيم
علي نصبي ، حتى أصبحت أتحب أني صاحبه الدور الذي أمثله ،
وأني أنا ألقى حديث مكتاة هذه الرسائل والعدا ب والتلوع
بكل وسيلة إلى توصيلها إليها ؟ قال : وهل نفع لده التمثيل بمرى

هذه المبالغ كلها؟ قال : نعم ، وكثيراً ما ذرف المثلون دموعاً لم يلفها العاشقون أنفسهم ، ثم التفت فرأى روكسان مقبلة فقال له : لقد فهمت الآن كل شيء ، فكن حكيماً حازماً ، ثم تسلل إلى خيمته وتركه واقفاً مكانه .

حديقة الجمال

قال كرسيتيان لروكسان ، وقد جلسا معاً على بعض المقاعد : هل لك أن تحدثيني يا روكسان : ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ فإني لا أزال أعجب لأمر كل المعجب ، ولا أكاد أصدق أن الحب يحشم صاحبه هذه الأخطار التي جشمتها نفسك في سبيله ، قالت : لقد سحرني وملكت على قلبي رسائلك العذبة الجميلة التي كنت ترسلها إليّ صبيحة كل يوم وتودعها شعور قلبك وهواجس نفسك وتكتبها بتلك اللغة الغريبة المؤثرة التي لو لامست الصخر الأصم لانفجر وتناثرت شظاياه في أجواز الفضاء ، وقد حاولت كثيراً أن أثبت لها وأقاوم تأثيرها على نفسي بكل سبيل فغلبتني على أمري وقادتنني إليك كما تراني ، قال : من أجل بضع رسائل بسيطة .. ؟ فقاطعت وقالت : لا تقل بسيطة ، بل هي الوعي الإلهي الذي ينزل على نفوس الملهمين من البشر ، بل هي القوة الغيبية التي تهيمن على العالم وتحيط به من جميع أقطاره دون أن يدرك أحد مكانها أو يعرف مآناها ، ولقد كان يجتدل إليّ وأنا أقروها ، أنني أرى صورتك فيها كما يرى الناظر صورة البدر من وراء السحب الرقيقة فأهوى إليها بفضي لأقبلها فإذا أنا أقبل السطور والكلمات ، فأطرق كرسيتيان برأسه ، وقد ألم بنفسه من الهمم والكمد ما الله عالم به ، واستمر روكسان في حديثها

تقول : إنني ما أحبيتك يا كرسيتيان حباً صادقاً متغلغلاً في أعماق نفسي إلا منذ تلك الليلة التي رأيتك فيها واقفاً تحت شرفتي تناجيني نجاء عذبة رقيقاً بتلك النغمة الرقيقة المؤثرة ، وتفضي إليّ بذات نفسك كأنك قد ألمستني فؤادك ووضعت يدي على قلبك ، ثم توات عليّ رسائلك بعد ذلك ، فكنت أسمع فيها دائماً تلك النغمة الموسيقية الخلابة ، وكأنك لا تزال واقفاً أمام شرفتي تناجيني فلا أستطيع أن أملك نفسي دون البكاء والحنين ، وأقسم لك لو أن « ينيلوب » وردت عليها من زوجها « عولس » تلك الرسائل التي وردت عليّ منك لما أطاقت صبراً على فراقه ولألفت بنسجها الذي عرفت به في التاريخ وذهبت تفتش عنه بين سمع الأرض وبصرها حتى تلقاه ، فقال ونفسه تنوب حسرة وكمداً : ما كنت أقدر يا روكسان أن تلك الرسائل الصغيرة تبلغ من نفسك هذه المبالغ كلها ، قالت : لقد كان سلطانها على نفسي عظيماً جداً ، وكنت أعيد قراءتها مرات كثيرة حتى تشربها نفسي وتمثلها روحي ، وحتى كان يجتدل إليّ أن كل كلمة من كلماتها ورقة تطير إليّ من أوراق روحك ؟ فما لبثت أن شعرت أنني قد أصبحت ملكاً لك وأسيرة في يدك ، وأن أمر نفسي قد خرج من يدي فلا حول لي فيه ولا حيلة .

فاكتب كرسيتيان وتقبض وجهه وقال لها : أهذا كل ما جاء بك إلى هنا ؟ قالت : نعم ، لأستغفر من ذلك الذنب الذي أذنبته إليك ، فقد أحبيتك لأول عهدي به بالجمالك ورونقك وقسامة وجهك كأن الجمال هو كل فضائلك ومزاياك فأهنتك بذلك إهانة عظمى ، أما الآن فإني أجتو بين يديك - لا يجسي - فإنك لا تلبث أن ترفعني بيديك - بل بروحي التي لا يمكنك أن تغير مكانها منك أبداً . طالبة صفحك وعفوك عن تلك الجريمة

التي اقترعها . وما أحدث نصر عليّ بذلك في هذه الساعة
التي نصف فيها حبساً على أبواب الأندلس نودع فيها الحياة الوداع
الأخير .

دعنا كرمستان وشخص في وجهها ساعة ، ثم قال لها -
هذه شأنك في ناصي . ثم ماذا كان بعد ذلك ؟ قالت : كنت
بعد ذلك أكثر تعلقاً ورويةً وتبديلاً ففكرت ونظرت فافترج في نظري
حدث صورتي خيال حيث فاستحالت إلى صورة واحدة فأحببتها ،
فأنا : والآب ؟ قالت : أما الآن فقد انصرفت بعكس عليك انصمراً
عقباً فأصبحت لا أحب منك سوداً ، ولا أشعر بسلطان لمرها
على فهي . أصغر وجهه أصغرراً شديداً وأطرق برأسه وظل
يعوم به ومن معه . ما أحبني في حياتها لحظة واحدة ،
وامسرت هي في حديثها تقول عليك ذلك الحب الثمين يا
روحي العزيز دون أسعد الناس حالاً في هذه الحياة وأحظاهم
نصفه العيش فيها أولئك الذين منحهم الله صفاً حبيلة شريرة تشبهها
القبور وتشربها العوس وتنفوها الأعلام ، وتقوم هم في كل
موقف ومقام مقام الضحايا الضماني إذ فأنهم أو رلت به كارثة
من كوارث الدهر ، وما لحسن الحسائي إلا مسحة رقيقة تطير
بها برودة الهواء أو هفوة ثلجية تدبها حرارة الشمس ، وما
أحب المحبون قد في الصورة طليعة جنبها وروثها بل جمال
العوس الكامنة في طيها ، ولا أبغض البغض في الصور للندبة
قبحها ودسستها بل فيح النفس المستكنة فيها ، فإذا احتف السوان
عن الكتاب في إحدى الحالتين كان القوز العظيم للجمال القضي
على صاحبه . وبني أعترف لك يا كرمستان بأنني ما أحببتك عد
الصره لأور إلا عندك لأي ما كنت أرى في سماء حياتك كوكباً
فأ سوداً ، وما هي إلا أيام قلائل حتى أجد ذلك الكوكب

تصاعل أمام عيني شيئاً وشيئاً عذاب منك الأشعة الباهرة
التي كانت تتدفق من يديك نصبت لحاشية الصباح حتى أصبحت
لا أراه ولا أشعر به . فارداد اصفرته وصمغاره وظل ينظر
إليها نظراً غريباً حزيناً .

صالت له مالي أراك حزيباً مكتئباً كأنك في شئ من هذا
لاتصارع العظيم الذي تم لصمت عيش ؟ فنظر إليها بظرو ساكنه
حامدة ، ثم قال اسمي يا روكسان . وبني لا أحب هذا الحب
ولا أغتبط به ولا أريد إلا أن تطري بي دائماً بتلك العين التي
نظرت بها إليّ لأول مرة عيني في قالت إلي أعجب لأمرك
كثيراً يا كرمستان ، فإن أحب الذي يؤثره وتعتبط به حب تائه
لا قيمة له ولا ثبات لظله . أما الآن فإني أحبك لصفتك الكريمة
البادرة التي قلما اجتمعت مخلوق سوك ، أحبك لدكاكك الحارق
وعطيتك الباردة وشرف حوطك . ورقة شعورك . وعطف
حسك وسعة حياتك ، وذلك البيان الرائق الصافي الذي يشع
عن جوهر نفسك شعوب المدير الساكن عن لآلئ جوهرة .
أحبك من أجل ذلك كله حباً دائماً واسعاً لا تميت به حروف
الدهر ، ولا تنال منه عادات الأيام ، حتى لو استعجالت صورتك
إلى صورة أخرى عبرها لما نفس حبي يراك مرة واحدة . فارتعد
كرمستان وشعر أن همه قد بدأت تنسرب من بين حبيبه فمد
يده إليها صارعاً وقال الرحمة يا روكسان : قالت بل لو
ذهب جسدك بمحادثة من حوادث القضاء فأصبحت بنح الصورة
ديم الحلقه . فقاطعها وصاح دمع الحلقه ؟ قالت : نعم وأقسم
لك على ذلك يا روكسان العزيز وبيا أحب الناس إليّ ، فظل يرتعد
ويضطرب واضطرباً . حبلى إليها أنه نشوة أحب وسكره المرور
فقلت له . أمجد أنت الآن يا كرمستان ؟ فنظر إليها نظرة عريضة

لا بعزم إلا الله ما يكمن وراءه وقال نعم سعيد جداً ومن هو
أولى بالسعادة هي ، وهي دائماً يريد الاعتراف بقدسه له
إلى أبدياً ؟ قال لم يبق لي ، ومن لم يترك إلا خصب هبته ولا بد
أن يكون هذا آخر اجتماع لنا ، فوداع . قال ألم بعزم
يا أسك عن رحلتك ورحمة الله أوسع من أن يحيط بك ؟ قال
إذ استطاده أمس بعزمها من أن تبت رماً طويلاً في مكان واحد .
فالوداع يا روكسان وداعاً لا لقاء من بعده . وأحد يتعد عنها
شيئاً فليلاً دون أن يصعب منه في شدة أو يعلها هذه الوداع .
فبشت ورمه وهي تنحب لأخوه ويعود ما بت يا كرسيان ؟
فب فليلاً لأقول لك كلمة واحدة ثم اصعب ما شئت إنك لم
لهم غرضي . وأقسم لك أنت لو فهمت لغيت أي أحنث
حباً ما أحبه أحد من بني أدم . قال حسنت يا روكسان وعودي
إلى هؤلاء ويعود منكثير البائسين إليهم يعكرون في مثل ما
أفكر فيه ويودعون الحياة كما أودعها ، فاذهي إليهم واجلسي
بهم فليلاً وعزمهم فيسكنك العذبة الجميلة عن همومهم وآلامها ،
أما أن قد عيب نقصه بعض الشرف وراء عذت إليك بعد قليل .
ثم حتى عن نصرها

المكاشفة

دخل كرسيان على سيراو في حنة شاحبه اللون مكتمر
لحيين فقد له سيراو ما بت يا صديقي ؟ قال إنها حدثني
الآن حديثاً طويلاً عنمت منها أنها لا تحيى بل ما أحتي قط في
يوم من أيام حياتها ، قال من تصور ؟ قال وأقول أيضاً إنها
تحكك أنت ولا غب في الدنيا أحد سواك ، فانقص سيراو انصاحه

شديدة كادت تنظيرها أجراه معه وقال أنا ؟ قال نعم لأنها
اعترفت لي بأنها لا تحبني إلا هي وأنت الذي يكمن بين
أصابعي ، هي تحب حب العايد محمود ، وما جودت من ولا
من أجلك ، وما أشك في أنك تصبر في صفت من حب مثل
ما تصبر لك ، فصرح سيراو ، وقال لا أقسم مدغمه
كرستيان وقال لا تعمل ففقدت تحت عت الدسة التي رأيتها
بسمي في كسب الوداع الذي كنبه بهي ، وما هي بدمعة
الشعر كما تقول بل دمة الحب وركب نكبت عليها عن لساني
كما تزعم ، بل عن لسانيك أنت . وعرف بأنت تحبها

صفت سيراو هبة ذهبت منه في كل مذهب ثم رفع
رأسه وقال نعم يا كرسيان اعترف لك بأني أحبها ، وأقسم
لك أنني ما طمعت فيها قط ، قال نعم أعلم ذلك فودعته
لك ولتلك الآلام الطويل التي قاسبتها في ماضي حياتك ، أما
الآن فهي استطاعتك أن تطمع فيها كما تشاء ، ولا يوجد في
العالم شيء يحول بينك وبينها ، قال لا أستطيع ، لأن من يجعل
وجهاً مثل وجهي لا يطمع في حياة الحب والفرام ، قال : إنها
أقسمت لي أنني لو كنت شبع الحلقة دميم الوجه لما نقص حبها
إياي دمة واحدة ، فابتعث سيراو وقال : أوقالت لك ذلك ؟
قال : نعم ما زالت تقولها حتى أمشي وأصبرتي ، قال : لا
تعمل بقولها فهي فتاة شريرة الأفكار والتصورات ، تقول بلسانها
غير الذي تصبر في أفعال نفسها ، فابن صبرها الجميل كما كتبت
ولأيق أنا لسانيك فناطق بين يديها حتى يقضي الله لنا جميعاً
بقضائه ، قال : ذلك مستحيل بعد الآن ، فإني أشعر في أفعال
نصي يجعل ما أحب إلا أنه سيقضي على حياتي قبل أن يقضي
عليها فتجربة التي نتظري في ساحة القتال ، فادعها إليها واعترف

ثم وضع يده على مقيص سيبه ليجرده من غمده وهرع إلى ساحة القتال وهو يقول : الوداع يا نور السماء .

الفاجسة

حدثت وركسان من سيرانو وقالت ما باله ؟ إني أعجب لأمره كثيراً ولا أدري ما الذي دعه ، مما هو حديث الخطير الذي تريد أن تخبرني ؟ قال لا شيء إنه يهتم بأمره ، الأمور وأبسطها ، فلقد كان يروي لي تلك المحادثة التي دارت بينه وبينه منذ هبته ، قالت نعم نعم وبجمل إلي أنه لم يهتم عرصي أو أنه في شك من أفضيت به إليه ، وأؤكد لك يا صديقي أنني ما كنت له إلا الحقيقة التي اعتقدتها فإني أصبحت بعد اطلاعي على تلك الرسائل البينة التي كان يرسلها إلي كل يوم من ميدان لحرب مفتحة بعقله ودكانه أكثر من اختلائي بحسنه وجماله حتى لو استحال صوره إلى صورة أخرى غيرها أو ذهب بجماله حادث من حوادث الدهر فأصبح ثم سكنت حبه ومجلا ، فقال دميها ؟ قالت نعم هو أصبح كذلك ، قال : وبشع الصورة ؟ قالت نعم ، قال : ومثوه الوجه ؟ قالت نعم ، قال : وصحكة الدس وسحريتهم ؟ قالت إن من كان له مثل عقله ولسانه لا يكون ضحكة الناس وسحريتهم ، وهنا سمعا أول طلاقة من طلاقات الحركة فلم يجذباها واستمر سيرانو في حديثه يقول أنيسته رغم كل شيء ؟ قالت نعم رغم كل شيء ، فلقد هجر جمال نفسه جمال صورته حتى أصبحت لا أراها ولا أشعر بها . فاعتبط سيرانو في نفسه عذاباً عظيماً وعلم أنه قد أشرف على السعادة التي ظل ينتظرها أحرماً طويلاً ولم يبق بينه وبينه إلا كلمة أخرى ينطق بها فإذا هي بين يديه .

لما بكل شيء ، وقال لها إن الرجل الذي أحبته من أجل دكانه وفطنته ودلاقة لسانه وقوة يمينه كادب غاش ، يستحل مواهب الناس وعصائهم لسه ، وليس له فيها من الحظ شيء ، قال : ذلك فوق الاحتمال يا كرسيتان ، قال : لا بد من ذلك فليس من العدل أن أقتل هناك من أجل الطيبة أو الطيبة جعلتي هذه الحلية البسيطة من الجمال ، قال وليس من العدل أن أفجيتك في سعادتك ، لأن الطيبة منحتني شيئاً من القدرة على الصبر عن عواطفها ، قال : لا بد أن تضاعفها في موضوع حبك ، قالت عبرها الحظي أما أنا فخطبتك الحيلة التي تلبسها وتجميلها ، فانزعها عنك وتقدم إليها بأي ثوب تريد ففي لا تبالي بجمال الأتواب ورحلتها ، إني ضقت ذرعاً بهذه النفس الغريبة التي أحملها بين جوانحي ، حتى أصيبت بأمرها إعياء شديداً ولا راحة لي إلا في أحلامها منها ، قال : لك تريد شقائي يا صديقي ، قال : لا بل سعادتك ، فادهب إليها وقص عليها القصة من مبدئها إلى منتهاها واتركها الحيار في أمرها ، فإن اختارتك ، فقد أنصفك ، ولقد كان عقد الزواج الذي جرى بيننا عقداً سرياً لا تجعل به الكنيسة ولا يعبأ به الناس لما أسهل التخلص منه ، وإن اختارني لا أكون هادئاً لها ولا هادئاً ، قال : ستختاروك أنت بلا شك ، قال : أرجو أن يكون ذلك ، وما هي ذي مقيلة فأشرح لها كل شيء ، أما أنا فذاهب إلى نهاية الخط لتأت من الشؤون لا بد لي من قصاته وزجراً عدت إليك بعد قليل ، فارتاب سيرانو في أمره وأمسك يده وقال له ، إني أقرا على جيبك آية اليأس يا كرسيتان فهل تقسم لي أنك لا تقتل نفسك ، قال : نعم ، أقسم لك ألا أقتل نفسي ، ثم التفت فرأى وركسان على مقربة منه فقال لها . سيحدثك سيرانو حديثاً خطيراً فادهي إليه ،

في هذه اللحظة أقبل إليه من ناحية الجدار مسرعاً وأمر
في أذن سيراو هذه الكلمة قد قتل كرسيان ، فاعتصم وقال
وكيف قتل ؟ قال : بأول صدفة من قذائف المدفعة . فاصغر
وجهه وانزعجت مرافقه وعثت على عييه عمامة سوداء . صعدت
روكسان لأمره وقال له ما لك يا سيراو ؟ قال لا شيء .
قالت ألقم حبلتكم . مد كرسيان يده أن تقول لي ؟ صعدت
وأطرق هيبته وحل هو به وبس معه قد غشي كل شيء .
فلا أستطيع أن أقول شيئاً . وبعد كرسيان حديدي وخيبري
فليس لي استطاع أن أضي مساعدتي على اقتصاص شأله . طلبت
روكسان نظري إليه دمه حار وتقول لب شعري ماذا جرى ؟
وسيراو يهز ولا يبرح أنه حتى أقبل جمده من الخود يحملون
على أيديهم شيئاً مسجى يشبه حقة فوسمده ناحية فارتعدت روكسان
وكان معها حديثها كما كان . صعدت نظري إلى ذلك الشيء . بأهنة مذهوشة
وتقول نظري يا سيراو ما هذا الذي أرى ؟ أندري ماذا يعمل
هؤلاء الرجال ؟ فابتدأ إليها وهو دميم وشأنهم يا سيراو واسمي
تقيه حديدي . وحدهم أر جميع شباب دمه استمر فعم يستطع
فأجدهم بكلمة كلاماً مصعرباً متعطلاً ويقول كرسيان أريد أن أقول
لك أنه مد كرسيان أريد أن أقول لك لا أستطيع أن أقول شيئاً
فقد غشي كل شيء . كرسيان أريد أن أقول أنه قد ذكرت
أقسم ناك يا روكسان أنك صدفة صعدت . نعم كان كرسيان
كس قتل هو صداعته وصاحت صرخة عظمى وقال
كان . عيل في أذن ترويه . وفجأة دفقة شديدة وهرعت
في حقة وكشفت المعاء عنها فإذا كرسيان في سكرة الموت .

قالت نفسها عليه وغدا أصابها مثل الخوف وظلت سكي
وتستحب اصحاباً محروماً وتصرح صرخات مؤنة . ثم لمحت في صوته

لحرج الذي يبعث منه الدم ففرقت قميصها واقطعت منه قطعة
وهرعت إلى موضع الماء لتسلطه فصرح كرسيان عبيته في نكت اللوحة
وتأوه أمة طوله فلما به سيراو وأكب عليه وهمس في أذنه
أشتر يا كرسيان فقد نحت لها بكل شيء . وخبرها بيبي وبسنت .
فاختارتك من ذوي وهي لا تحب أحدًا سواك . وعذبت روكسان
وفي يدها القطعة الخفيفة فطلبه فصرح بها فخرج وتقول إنه لا
يرل حياً . وسيلزم جرحه بعد عليل . وسيمش بجاني دهرأ
أليس كذلك يا سيراو ؟ ثم وصفت حدها على حده فشرع
بعودة الموت قسري في جسمه فاصفرت وتحدثت أعضاده
وصعدت ناحية بجاء محروماً مؤثراً وتصرع إليه أن يعيش من أحدها
لأنها في حاجه إليه ولا تستطيع أن تبدأ بالحياة من بعده ثم وصفت
بدها على صدره فصرخت بذلك الكذب الذي كان قد أهداه من
سيراو فأمرت بصرها عليه فوجدته مصوناً ناسها ورأب عليه
عظم من الدم وتلك القفارة من البضع فقالت وارجعنا له
به كان تحدثت بهمة بهذا المصير الذي صار به . واحصه
إن صرعا وظلت تقيه وتلثه فصرح عبيده للمرة الأخيرة ثم أمه .
صاحرو أن تتحرك فلم يستطع . ففهم شفقة كانت فيها نفسه

المفركة

وكانت المفركة قد اختلفت ودرى الجدار فصرح به محروم
وصيحاتهم وقصصه السلاح وأربر الرصاص وشداد القوارب
أن تقدموا ولا تتقهروا أيها الأعداء ابوسل وبرز الصبر
من بين محالكم أعدائكم ابزوا . فهاج روف دس سيراو
فجذب يده من روكسان وكانت آخذة بها ليهجم مع فاحص

فاستوقفت وقالت له : ابقى معي قليلاً يا سيراو . فلقد مات
 كروستيان وليس لي في العلم من يعيش على نكتتي فيه سواك .
 لقد كنت الرجل الوحيد الذي عرفه حق المعرفة وأحسك ما اشتعلت
 عليه نفسه من الفضائل والمزايا قتل لي لم يكن في حياته عظيماً
 قال لي ، قالت : ودنا همة عالية لا نسمو إليها همم الرجال ؟
 قال : لي . قالت : ودنا نفس عذبة صافية كأنها قطرة الندى
 الصافية المترققة في الزهرة الناضرة ؟ قال لي كانت : وشاهراً
 عبقرياً لم طلع الشمس على مثله في عهد من عهودها الحالية ؟
 قال لي : قالت . لقد هوى ذلك الكوكب المير من سمائه وانحدرت
 تلك الشمس المشرقة إلى مغرب من حيث لا رجعة لها ، فوا أسعاه
 عليه ! ثم صرخت صرخة تنقطع لها نياط القلوب وألقت بنفسها
 عليه وظلت تربي وتندب وتلطف فوق جثة جميع ما أودع الله
 حيوها من دموع . فوقف سيراو وجرده سيفه من غبلده وقال
 إنها الآن تيكيني في بكانها على كروستيان فيجب أن أموت . وكان
 رصاص الأعداء يمحده الحاسكويين حصداً فيتناقلون نوافظ
 أوراق الشجر الممطرة أمام الزوابع المائلة وهم لا يتشورون ولا يتحملون
 والكوتس دي جيش في مقدمتهم يصبح بصوت عال . ها هو
 ذا جيش القائد قد اقترب فاصبروا ساعة أخرى ثم النصر قمرسا ؛
 فصرح سيراو : الودع يا روكسان ، ودسفع إلى قمة التل فاستقله
 الكوتس واعتصم طريقه وقاد له قفب مكانك لا تلق يدك
 إلى التهلكة لقد آل أولن الهزيمة أو هلك الخود جميعاً ؛ قال
 إن الحاسكويين لا يتراجعون ولو أضرهم بذلك . فكل أمرهم
 إليّ ودعني وشأني فإني نادم موتوراً أريد أن أنضم لصديقي
 الذي نكلته ، وهنائي الذي فقدته ، فادع أنت إلى روكسان
 ودافع عنها كما وعدتها حتى تبلغ مأمها .

ثم صاح في الخود تشجعوا أيها الأصقباء ولا تنهضوا
 الحامية أمامكم وليست وراءكم فظفروا أيها الأبطال وموتوا
 جميعاً ، هنا في الموت شيء سوى أن تنقلوا مكان اجتماعكم
 من الأرض إلى السماء ، موتوا فلبوت أهول عليكم من أن تفروا
 وطنكم دليلاً في يد أعدائكم . وعددت أصداؤكم ورفدوكم
 ما بقاؤكم في الحياة من بعدكم ؟ رفرت علينا أيها العمم الصغير
 لظرو باسمها وابست في فؤادنا جميعاً روح القوة والشجاعة لسرت
 من آخرنا تحت ظلك الحافق .

نظل الخود ثابطين في أماكنهم ومجبل القصاص يحصلهم حصداً
 حتى وصل جيش العدو إلى قمة التل وصاح قائدهم أنمواس
 بأسلحتكم أيها القوم فستمتون جميعاً إن لم تنسوا ولا يحدى
 عنيكم الموت شيئاً . فأجاب سيراو . لا يسلم إلا لأدلاء نصباء .
 وما هنا جبان ولا دليل ! المعصية لأحيرة أيها الأبطال فما هي
 طرون القائد الأعظم تدبر منا وتقررب . وليس يبكى من العسر
 إلا كربة واحدة .

وكان الأمر كما يقول ، فما هي إلا ساعة أو بعض ساعة
 حتى أشرف جيش القائد العمم وهاجم لأعداء من خلفهم فالتهم
 الجيشان ، وما هي إلا جولة أو حولت حتى تم النصر للراية الفرنسية
 على الراية الإسبانية ، ولكن بعد أن تلاشى الخود الحاسكويين
 في المعصية جميعاً .

المصباح الحكيم

بعد خمسة عشر يوماً

بدر الزهراء بداريس فداء وسع قد عرست في أجناته نضع
أشجار صحمة دسقة قد تآزرت من نوحها أوردتها السابعة الضمير
ووضعت في وسعها مقعد حجري هلاكي الشكل فخر حبس الزاهدات
بعد أداء صلاتهن في محاربهن ، يتشربن في ذلك المدة وسجدين
بأحاديث محمده لا يتغير بعضها من ذكر العالم الديوي وثبوتونه
ولحية وولفانته ، كان ذلك عجيبا للحجري الذي أساء دورهم
لأسوار والحديد لم يستطع أن يقطع الصلة بينهم وبين حياه
التي همجرت وأطرحها وأقسم من يدي الله أن يسبها أب. الدهر
علم برن بين سموعهن بصبص حسبيد من نكث الذكري يسمع
من حب إلى حب ، لأنهن لا يستطعن - معهما بلغن من قوة اليقين
ورسوخ الإيمان وبنت الفرقة - أي يتنزعن الطبيعية من بين جنوسهن
كما يرفض قبحهن عن دؤوسهن ، وأردتهن عن اكتشافهن ،
ويرمسن - وراء تلك الأسوار والحديدان ، كما أرادتهن منهن ذلك
الشرائع النظرية التي لا صلة بينها وبين حقائق الحياة وصراتها

فقدت لأخت ، مارت ، للأخت «كبير» لقد رأيتك اليوم
واقفة أمام امرأة مرتين ، ورأيت في يدك مثلًا تحاولين أن تمشطيه
به شمره ، وأسأف أمرك إلى أرتيته ! قالت : لك لا تستطيعين
أن تعلمي إلا إذا استطعت أن تعلمي عن تلك الأعية العرمية

التي كنت تتعنين بها ليلة أمس في حرفك بصوت خافت شجي
كانك تذكرين بها عهداً قديماً ، فابتسمت الأخت ، مارت ،
وقالت : إنني إن أعيتك من الشكوى إلى الرئيسة عن أعيتك
من الشكوى إلى المسير برسرك عند حضوره ، قالت كأنك
تأين إلا أن نصبح ضحكة الناس وسخريتهم - فسررو رجل
شديد قاس يكره الحركات التسلية المتطرفة ، وينهى عليها بعباً
شديداً ، قالت ولكنه يذهب لي نقده مذهب التهكم البديع
يستغرق فهو إلى الفكاهة أقرب منه إلى الحد ، فقالت الأخت
مارجريت : الحق أقول يا أخوتي ، هي لم أر في حياتي أطرف
عريف من هذا الرجل ، ولا أظن منه لساناً ولا أحسن مجوناً
ولا أظن قلباً ، ولا أنقى سريرة . فقالت لها «كبير» : أصبح
يا أختاه أنه يختلف إلى هذه البئر منذ اثني عشر عاماً ؟ قالت :
بل أكثر من ذلك منذ هجرت ابنة عمه الأخت روكسان العالم
الديوي ، وزلت بكما يزل الطير الخزي وسط الطيور البيضاء
ومرحت سواد رهابتها بسواد حدادها ، وسررو هو الشخص
الوحيد الذي يستطيع أن يعزي نفسها ويمسح دموعها ويمسح
أحزنها الكاسية في أحماق قلبها ، فقالت : مارت : ولكنه وبا
للأسف غير متمسك بوجباته الدينية ، وهو إلى الإلحاد أقرب
منه إلى الإيمان ، فقالت «كبير» : أظن أننا نستطيع أن نجديه
إذا نحن حاولنا منه ذلك .

وهنا أقبلت الرئيسة ، وقد سمعت هذه الكلمة الأخيرة فطلعت
أنس يتكلمن عن سررو ، فقالت : إنني أفس من جسيماً عن معانته
في هذا الأمر فاحتته وشأنه والله يتولى أمره ، قالت «مارت» :
ولكنه مكابر صيد لا يراى يوقع بمحادثتي ومناظرتي كلما رأيته ،
فقد قال لي يوم السبت الماضي عند حضوره : إنه أكل بالأمس

لحمًا ودمًا فلم أطلق استماع ذلك منه وكلمت أنخصمه . قالت : لا تصليته يا بني لأنه حينما جاءنا في المرة الماضية كان قد مر به يومان لم يلق ليها طعام الخير ، فعدمت قراعات جميعاً ونظروا إلى الرتبة باعثات ملحولات ! فقالت لمن : لا يدهشكن ذلك يا بنياتي ، فيراون رجل قهر معلم لا يملك من متاع الدنيا شيئاً ، فقالت لها « مرجريت » . عجيب جداً ، من أخبرك بذلك ؟ قالت : صديقه « ليريه » ، قالت : ألا يساعد أحد ؟ قالت : لا ، لأنه لا يرى ذلك .

وإنه لذلك إذا أقبلت روكسان من ناحية الدير في لباسها الأسود وبجانبها الكونت دي جيبيش ، وكان قد وصل في مجده الدير إلى العاية القصوى التي لا غاية ورواعها فأصبح القائد العام للجيش الفرنسي وأصبح يدعى « الدوق مارشال دي جرامونت » ، وكان قد أشرف في ذلك الوقت حل من الشبوخة ، فهدأت في نفسه تلك العواطف القديمة القاترة ، عواطف الشرور والشهوات ، فأخذ نفسه بزيارة روكسان في مديرتها من حين إلى حين لتعزية والولاء والتكفير من سيئاته لمناخية إليها .

فلم يزل سائراً معها حتى بلغنا ذلك المقعد فجلسا عليه ، ثم نظر إليها نظرة حزينة مكتبة وقال لها : أهكذا تعيشين دائماً يا روكسان في حزنك هذه لا تفكرين في شأن من شؤون الحياة ولا تأملين حل عهد من عهودك الماضية ؟ قالت : نعم دائماً لا أذكر غيره ولا يمر بخاطري شيء سواه ، قال : وهل غفرت في ذلك الذنب الذي أدبته إليك أم لا تزال في قلبك بقيت من الغيب والموجلة علي ؟ فأغرورت حينها بالمرح وسمعت هتية ثم رفعت نظرها إلى صليب الدير العظيم المائل أمامها وقالت

ما دمت في هذا المكان وما دام هذا مائلاً أمام عيني فأنا أغتصر جميع الذنوب حاضرها وماضيها . قال وارتحلتا لذلك القلق لمسكين ! ما كنت أظن أن صر إنسان في العالم تشتمل على مثل انصعاف التي كانت تشتمل عليها فنه لولا أنك أقسمت على ذلك ، قالت : إنك لو عرفته معرفتي إياه لامتلاأت بكك إعجاباً به وإعظافاً له ، ولكان حزنك عليه عظيماً كحزني ، قال : وهل لا تزالين محصته بكتابه الأخير حتى اليوم ؟ قالت : إنه لا يفارق صدري فخذ كتابه الكتاب المقدس ، قال : أنحيته حتى بعد الموت ؟ قالت : يجمل إليّ أحياناً أنه لم يمض ؟ لأن مكانه في قلبي لا يزل باقياً كما هو ، وكان روحه ترفوف علي وتبجي حينما سرت ، وأني حلت . ولا تزال ترد في أذني حتى تلك الساعة تلك النغمة الخسيلة التي كان يحسنني بها ليلة الشرفة كان لم يمر بها إلا يوم واحد ، قال : وهل يأتي سيرانو لزيارتك أحياناً ؟ قالت : نعم ، بعد إلي دائماً يوم السبت من كل أسبوع في ساعة معينة لا يتأخر عنها ولا يتقدم ، فإذا حضر رأي جالسة أمام مسجني فيجلس على مقربة مني فوق مقعد يمدونه له ويسأ حديثي معي يلهو بالمجون والسحرية بي ويمسحي ويسمي الحركة الدائفة التي لا نهاية لها ، فإذا فرغ من ذلك أخذ يقص علي حوادث الأسرع يوماً فيوماً كأنه حريدة أسبوعية ، وعلم يا سيدي أن ذلك الصديق القديم والأخ الولي هو الشخص الوحيد الذي يستري عني بعض همومي وآلامي ويحمل عني الشيء الكثير من أفعال هذه الحياة وأعبائها ولولاها لمت في عزلي هذه عاماً وكعداً

وهنا فتح باب الدير ودخل « ليريه » فتقدم نحو روكسان صياها فمالت له كيف حال صديقك يا ليريه ؟ قال : في أسوأ حال يا صديقي ، فإن غربة أخلاقه وشلود طماعه وتهوره و

مونه وآثرته وصلابة عوده في حصوماته وده طراته قد نلعه به
 اهللغ الذي كثر أتوفعه به من عهد بعد العقر والعمد . والشقاء
 والبوس . والعصوم الألد . والأعداء الناثرين لشسور اندى
 يكتسب به ليهم وبهرهم لا يهدأون ولا يفترون ، وهو في عنة
 على هذا كله ، لا ينجيه ولا يطره ولا يبلد له غير الانتقاء المرء
 والشهكم هوتم بالأشراف والتبلاء ورجب الدين والأدبه والصحيين
 والشراء وفضل لا يهدمهم إلا يواتهم ولا يهدأ عنهم لحظة
 واحدة ، فبقي على القيس نظرة واحدة بليقها حرصاً على وجه
 جميل . وعلى الشاعر معنى بسيط بسرعة من شعر ممد . وعلى
 السيل شبه خيلاء عشيا في طريقه . وعلى الصحفي بشر إعلان
 حمر في حريته أو خير مكدوس . كأنه موكل بهدية البشر وتوهم
 هوججهم وتنبهب أحلامهم . وكل ما يعتد به على نفسه إن
 لاهه في ذلك لأنهم أنه بقوم ما يعتقده . وينطق بما يعلم . كأنه
 لا يوجد في العالم كله من يعلم ما يعلمه هو .

وما أصل هذه الاجتماعية التي بشاكها وبأورها . وبرهم أنه
 قادر على تفهم معوجها وإصلاح فاسدها تستطيع انصر عليه
 صوبلاً . وسيتل في أن انقاصها منه سيكون هائلاً جداً وأنه
 سيحوت عما قيل شهد ذلك الشيء الذي يسميه الأخيرة الفكرية
 والبعد الصحيح .

هناك روكس . ولكن سبعة الموضع بحبه من هؤلاء جميعاً .
 ها رى بحبه ولكني أحتي بحبه عسراً وحداً هو أشد عليه
 من جميع أعدائه . قالت ومن هو ؟ قال خوج . فبه نقاسي
 من آلامه ما لا يستطيع أن يحتمله بشر . وكثيراً ما قصي لياني
 دوت العدد شاداً مظلمة على بطنه من السف لا يشكو ولا يتبرم .

ولا يسمح لنفسه أن يمد يده إلى غير حاشته إلى أن تيسر له النعمة
 التي يعتقد أنها معجوبة بعرق حينه فلا تنسبها عليه أحد حتى
 دبل حسمه وشحب بوه وعرفت عطشه وأصبح أشبه بهيكل
 منه بالإنسان .

أما الناس فقد أصبح عارياً منه إلا عيلاً . ولقد باع في
 الأسابيع الأخيرة جميع ثيابه ، فلم يبق له منها إلا رداء وحداً
 من الصوف الأسود يتعده بانتقع من حبر إلى حبر . ولا
 أدري ماد يكون شأنه هذا إذا برل به صيف الشتاء القادم فلا
 يجد في غرفته مظلمة الدارة بصيصاً ولا لهماً

فقال الموق : لك تدافع كثيراً يا لبريه في لحرب عليه والبراء
 به . فسيروا وجه عظيم لا يكثر بالآلام أحياء ومصائبها ولا
 منظر إليها مثل العين التي تنظر في إليها . ولقد حاش طول
 حياته حراً مستقلاً في آرائه ومذاهبه غير مبال بما يلاقه في هذه
 السبل من المكاره والآلام ولا برل شأنه في حاصره مثله في
 مصيبه فاعجبوا به كل الإعجاب ولا يسيروا بانالم به والكاء عليه

فدعش لبريه وحش ينظر إلى الموق نظراً حائرأ مضطرباً لأنه
 ما كان يتوقع منه بعد الذي كان بينه وبين سيروا أن يجري لسهه
 بكلمة ثاه عليه أو إعجاب به . فقال له الموق لا تعجب
 يا لبريه . فإني وإن كنت أعلم أنني قد نلت من حباتي كل شيء
 وأنه قد حرم كل شيء . فأنا أعتمد أنه خير مني وأن نفسه تشتمل
 على أفضل من تشتمل عليه نفسي . ويتقي أستطيع أن أستمره
 دني الذي أدسته إليه وأن أصبح يده في يدي فأصافقه الصديق
 للصديق

ثم نصح قائماً وقال : أستودعك الله يا روكسان ، فنهضت
روكسان فتوديعه ومشت معه تسبيحاً إلى الباب فقالت له وهي
تسايده - وكان ديل رداًها يمر معه كثيراً من أوراق الشجر
الحافة المتقاطعة يحدث صوتاً أشبه بالحفيف أقول الحقيقة
عن سيرانو يا سيدي أم أنت تهكم به ؟ قال لا ، بل أقول
الحقيقة التي أعتقدها ، وأقسم لك يا روكسان أنني كثيراً ما غطته
بفني وبن نصبي وتميت أن أكون مثله ، فحدثت وقال
ولكنك عظيم يا مولاي ، قال : إن المرء حينما يصل إلى ذروة
العلمة في الحياة لا بد أن تمر به ملهات مهملات كان ظاهراً وبرئناً
يشعر فيها ببعض الآلام حمية تلذع نفسه وتؤلمها ، وربما لا تلح
في قوتها وتأثيرها مبلغ تبيكت الضمير ، ولكنها على كل حال
ترصبه وتقفه وتستولي على شيء من راحته وسكونه ، وحل
استطاع العظماء أن يكونوا عظماء إلا لأنهم ارتفعوا سلماً ببيت
درجاتها من جنانهم الموتى وأشلانهم ، أو أن يناموا من جوعهم
إلا لأنهم أشهدوا كثيراً من عيون البائسين والمدمعين في سبيل
راحتهم وهنائهم ، أو أن يمضوا في طريقهم رافعي الرؤوس
شاهي الأتوف إلا لأن وراءهم كثيراً من المطرقين الصامتين
الذين لا يفارق أنظارهم الأرض همداً وكنداً .. وربما لا يشعرون
بشيء من تلك الحرائم التي يقترفونها وهم في شدة عزهم وصوراهم
عظمتهم ولكنهم حتى خطوا إلى أنفسهم وأدوا إلى مضاجعهم
ساورهم تلك الآلام الحسية اللادعة التي لا يشعر عظمها الخائفون
والظالمون ، والمرضى والمجورون ، لا تصدقني يا سيدي أن في الدنيا
سعيداً واحداً قد خلت كآسها التي يشربها من قلبي بمصها عليه ،
ولا بد لعظيم وهو صاعد إلى قمة عظمته أن يشعر أن ديل معطفه
المسبل وراءه يمر معه كثيراً من أنات الباكين وصرخات المتألمين

الذين يبى عطشته على أنفاس شقائقهم يسبح في حششته كحششته
الأوران الحافة التي يجرها وراءه ديل معطفك الآن
ثم وقف في مكانه وأطرق برأسه طويلاً فظطرت إليه روكسان
داخلة ووصعت يدها على عاتقه وقالت له أنتالم يا مولاي ؟
قال نعم فما عسى سعداء إلا في أعمار الناس واختيارهم ،
وإن كشف هم من حبيب يعوساً ما كشف لنا منها ، ولمسا بأيديهم
مواقع الألم من أفئتنا لرونو لنا أكثر مما نرتي لهم ، ولرأوا أننا
أولى الناس بالرحمة والإشفاق منهم ، وليتهم يفتون عز هذه
الحقيقة فيعلموا أن السلامة والنجاة وراحة النفس وهودوعها في
القناعة والإنكاف ، فيستريحوا من هموم الأحقاد وآلامها ، فيهم
ما حصلوا ولا اشتغيت بين حوهم بيران فخذ والوحدة عيب
إلا لأنهم ظنوا أننا سعداء ، ولو نظروا إلينا بالعين التي ينظر بها
إلى أنفسنا لتصرعوا إلى الله تعالى أن ينجيهم مما ابتلانا به ويرحمهم
من همومنا وشقائقنا ، ثم مد يده إليها فماصحها وقال أستودعك
الله يا سيدي ، وألصقت وهو مصرف إلى لبريه وكان لا يرل
وقفاً في مكانه ففتت به قلده ، فقال له في كلمة أريد أن أقولها
لث فتعالم معي ، فعشى وراءه فحدثت إليه وقد له نعم ،
صدقتك سيرتو بطل شعاع كما يقول روكسان ، ولكنني فمست
من صريق خاص لا أستطع أن أبوح لك به أن بعض أعدائه قد عزم
على قتله غيلة فذهب إليه وحذره ، وليرسل من الخروج من منزله
ما استطاع ، فإن ذلك مستحيل يا سيدي ، لأنه لا هيب شيئاً
ولا يحذف أحداً ، قال لا تعرقه خطه واحدة صحياته في حطر
عظيم ، قال سأفعل ما أستطيع يا مولاي ، وسأشكر لك فضلك
ما حبيت ، ثم تناول يده فقبها وانصرف .
فما سار إلا قليلاً حتى رأى « راحو » مقلداً عليه ، بولول

ويستغيث فسأله ما باله ؟ فقال : خطب عظيم يا لبريه . قال : أي خطب ؟ قال : قد أصيب صديقنا قال : سيرانو ؟ قال : نعم ، قال : قل كل شيء وأوجز . قال خرجت اليوم من منزلي ذاهباً إليه لزيارته في منزله ، فلما وصلت إلى رأس الشارع الذي يسكنه رأيته خارجاً من المنزل فهرعت إليه لأدركه ، حتى إذا لم يبق بيني وبينه بضعة خطوات ، إذ سقط على رأسه من أحد المنازل المهجورة جذع عظيم ، يميل إليّ أنه لم يسقط عفواً بل تعمده به متعمداً . فصرخ لبريه : يا للندالة والجن ! ثم ماذا ؟ قال : فدنوت منه فرأيت وبأ هول ما رأيته ذلك الصديق الكريم . والرجل العظيم والشاعر الباقية الجليل ملقى على الأرض ، مضرجاً بدمائه ، وقد فتح في رأسه جرح كبير ... قال : وهل مات ؟ قال : لا . ولكن حالته سيئة جداً ، فحملته إلى منزله أو إلى ذلك البحر الضيق الذي يسمونه منزلاً ... قال : وهل يتألم ؟ قال : لا ، لأنه فقد رشده فلم يعد يشعر بشيء ، قال : ألم يزره طبيب ؟ قال : أشفق عليه طبيب من جيرانه فزاره ، قال : وراحمته لك أيها الصديق المسكين ! لا تخبر روكسان الآن بهذا الخبر . ومادا قال الطبيب ؟ قال : لم أفهم من كلامه شيئاً ، فإنه أخذ يردد كلمات كثيرة : حمى التهاب ، أغشية ... الخ آه يا سيدي لو رأيته وقد دارت برأسه الأربطة والضمائد وأصبحت صورته أشبه شيء بصور الموتى في قبورهم ، هيا بنا نذهب إليه فهو وحيد في غرفته وأخاف أن يحاول القيام من فراشه فيسقط ميتاً ، ثم ذهباً يعدوان ويثلهفان .

الخامسة

جلست روكسان أمام منسجها في فناء الدبر تنتظر حضور

سيرانو وكان قد جاء ميعاده الذي يحضر فيه من يوم السبت من كل أسبوع وأخذت تقول : ما أجمل هذا اليوم ! إن الحريف يخفف عني كثيراً من الآمي التي يهيجها الربيع ويستثيرها ، فحمداً لك يا إلهي على ما منحت وصبراً على ما ابتليت ، ولك المنة العظمى في حالي رضاك وسخطك ونعمائك وبأسائك ، ما أعظم شكري لك يا سيرانو ! إنك رسول العناية الإلهية إليّ والعزاء الباقي لي في هذه الحياة بعدما فقدت كل عزاء وسلوى ! فليت الله يتولى جزاءك عني فلاني لا أستطيع أن أقوم بشكرك .

وهنا حضرت راهبتان تحملان بين أيديهما المقعد الذي اعتاد سيرانو أن يجلس عليه عند حضوره ، فوضعتاه وراء مجلس روكسان فشكرتهما وانصرفت ، ثم دقت الساعة الرابعة فأصفت إليها روكسان حتى انتهت دقائقها ثم قالت : إنه سيأتي الآن ، وأخذت تردد نظرها جهة الباب هتية فلم يحضر ، فمدت يدها إلى علبة إبرها وخبوطها ، وظلت تقول بينها وبين نفسها : قد دقت الساعة الرابعة منذ دقائق ولم يحضر ، أين خيوطي ؟ ها قد وجدتها ، هذا يدهشني جداً ! إنها المرة الأولى التي تأخر فيها عن ميعاده منذ خمسة عشر عاماً ، لا بد أن تكون الأخت هـ مارت ، قد أزعجته بنصائحها وعظائنها . أين كستياني ؟ ليت شعري ماذا حدث له ؟ قد أوشك الغلام أن يخيم ألوان الخيوط قائمة فلا أستطيع التمييز بين متشابهاها ، إنه ما تأخر عن زيارتي قبل اليوم ، ولكن لا بد أن يحضر الآن . وهنا سقطت ورقة جافة من الشجر على منسجها فاصفرت وقالت : ورقة ميتة قد انقضى أجلها فهوت إلى مستقرها . بالله لا يمكن لشيء من الأشياء .. إن الأوراق الجافة المتساقطة تزعجني جداً لا يمكن لأي شيء مهما كان أن يحول بينه وبين الحضور .

وما أتت كلمتها حتى وقت راحة على رأس السلم وصاحت
السيد برجرارك فانصتت روكان وقالت ليلخل ، فخل وهو
مصر الوجه يتوكأ على عصاه ويمشي ببطء شديد ، وقد
أستدل قيمته على حبيبه صتوت الضلال المحيطة برأسه ، وكانت
روكان مشتتة بترتيب مسجها ، فلم تلتفت إليه حتى جلس
على مقعده وحياها ، فقالت له بعمرة العاتب دون أن تلتفت إليه
هذه أول مرة تأخرت فيها عن ميعادك منذ خمسة عشر عاماً
يا سيرانو ، فأجابها بصوت قائم مظلم يحاول أن يحميه ضاحكاً
رفناً نعم يا سيني ، يا لمراتب الدهر ، ما كنت أظن أن شيئاً
في العالم حتى الموت ، يستطيع أن يحول بيني وبين الحصول إليك
في ميعادي . آه إلي أكاد أموت .. غيضاً وحنفاً . ما أخري عنت
إلا ضيق قليل . يريد الموت ، جاء لزيارتي في وقت غير مناسب ،
وما كنت أتوقع أن بعد إلي في مثل هذه الساعة ، قالت . وكيف
تخلصت منه ؟ قال . لم أخلص منه حتى الآن ، وكل ما في الأمر
أنني اعتدت عليه وقتلته - إن اليوم يوم السبت وهو الميعاد الذي
يجب حمله فيه أن أقوم برعاية صديق كريم لا يمكن أن يحول
بينني وبين زيارته في هذا الميعاد حائل ، فادعيب الآن وعد إلي
بعد ساعة واحدة ، قالت إداد سبطون انتظاره لك إذا عاد
إليك لأنني لن أسمح لك بالخروج من هنا قبل مساء ، قال
ربما اضطرت للذهاب قبل ذلك ، وأغصص حينه وأطرق برأسه
وكانت الأخت «مارت» مارة في تلك اللحظة فأومأت روكان
إليها برأسها مصصت فقالت لسيرانو وهي لا تزال مشتتة بترتيب
حيوطها إنك لم تخرج مع الأخت «مارت» كما عدتلك يا سيرانو ،
فانصت ورمع رأسه فنهشت «مارت» بعد رؤيته وصرت
فأما وحاولت أن تتكلم فأشار إليها بالنصت فلم تفهم شيئاً ولكنها

صمتت فقال لها بصوت صحم مصحك . اقتربي مني أيتها
الأخت ، مالك تعرصين عني يا ذات العينين الخميلتين ، هاتي
بذلك اللبضاء لأكلها باسم البركة والعبادة لا باسم الحب والفرام ،
واقتربي مني لأخبرك خبراً غريباً جداً ، قالت وهي ترتني له ولحانه
وما هو ؟ قال قد أكلت بالأمس خبثاً ودسماً فما رأيك ؟
فهرت رأسها وظللت تقول بينها وبين نفسها وادرجتهه له ،
إنه يكلب عليّ ورعاً مر به يوم . لم يلق فيها طعام أخبر كما
فعل في المرة السابقة ثم قالت له . أحب أن تزورني في حرفتي
قبل خروجك من هنا صافدم إليك هدية من الحلوى جميلة جداً .
فقالت له روكان اضلر أن تذهب إليها يا سيرانو طلباً تريد
أن تنظرك فقال سيرانو أظن أن عطلاتك الماضية يا مارت
قد أخذت ماغلبها من نصبي ، فقد أصبحت أقرب إلى الإيمان
سني إلى الكفر ، ولذلك أسمح لك أن تصلي الليلة في معبدك من
أجبي ، فنهشت «مارت» وقالت ماذا نقول ؟ أنزل أم نعيد ؟
قال قد طأت وقت المزل ولم يبق أمامي إلا الجدل ، فانصرفت
لثأبها وهي تصحب لأمره كل العجب والمبل هو على روكان
وقال لها وهي لا تزال مكة حل مسجها لبث شعري هل أعيش .
وهل يعيش العالم ، حتى يرى ختام هذه النسيج ؟ قالت كنت
في انتظار مدح هذه الكلمة مني يا سيرانو ، إن سيجي لا يتهي
حتى تنهي ملحك وأصاغلك .

وفي هذه اللحظة هبت ربيع شديدة فضاقت على الأرض
أوراق كثيرة من لأشجار فانصبت روكان وقالت إن نساقد
هذه الأوراق يجزي حدأ . قال أما أنا فعل عكس ذلك لأنه
يعجبني منها كثيراً أنها رغم حزنها على مرقق أغصانها التي تركتها
ورغم فزعها من الضاء الذي يستقبلها على وجه الأرض فهي تساقط

ملك ولا :

يوم خمس - توجت ، عسي ، ملكة على عرب أو ما
هو في معنى ذلك

يوم الجمعة قات السيدة ، دي متجلا ، لكونت دي ميسك
(نعم)

وها ثقت عيانه ، وحسن صوته ، واهتر مرة شديدة .
ثم سقط رأسه على صدره ، وساد من حوله سكوت عسوق ،
دستعرب وروكان سكوتة والفتت ورهه فرأته على هذه لحانه
وم تكن قد نظرت إليه قبل هذه لحظة فارتاعته وهرعت إليه
ورفعت يدها على عاتقه وودته سيراوا فاندفع ورفع رأسه
وحمل يديه يده حوق ففتحه ويصعظها صمطاً شديداً ويقول
لا شيء ، أؤكد لك يا سيدي أن الأمر بسيط جداً ، قالت

هل لي ما ذلك يا سيراو ؟ وما هذه المرة السوداء امتشقة على
وجهك ؟ لا شيء ، إنه لخرح القديم الذي أصبت به في
معركة ، أرس ، لا يرون يعاودني من حين إلى حين ، حتى
الآن ، فتهتت ، وأرسلت نصرها في السماء ، ثم قالت كل
ما له خرح قدم يا سيراو ، غير أن خرحك في جسمك ، وجرخي
هنا دائماً لا يسعمل أداً . وأشارت إلى وجهها . ثم قالت ها
كتاب الوداع لأخبر الذي كتبه إليّ قبل موته عد ثلثت وتقص
وصر ورهه ، ولا ترأ آثار القطرتين قطرة اللع ، وقطرة
ندم طاهره هه فارتعد سيراو وقال كتابه الأخير ؟ وشخص
نصره إلى السماء كأنه يذكر شيئاً بعداً ثم قال ألا تذكرين
يا روكان أنك كنت وعدني موة بإطلاعي على هذا الكتاب ؟
قالت نعم أذكر ذلك ، قال هل لك أن تعي بوعده الآن ؟

برقة وورثافة وتقصي هذه الساحة القصيرة بين الحياة والموت
ماتسة محتالة كأها في حصة رقص أو مجمع شراب . وقالت
إني أسمع من نعمة حرد يا سيراو مهل أنت حرد ؟ قال
لا ، وليس من عادتي أن أعأ إلى الحرب في أي موقف من المواقف
حتى في الموقف الذي يمرر فيه الناس حبيماً ، قالت فلدع
لأوراق تساقط كيف تشاء وأسمعي جريفتك الأسبوعية طاري
في شوق عظيم بهه . قل اسمعي يا سيدي وكان الأهم قد
دان من مالا وعطياً وبدأ الدهور يتعم على عقله عائشاً يقول

يوم السبت أصيب الملك بمرض الحمى على أثر ثنائي أكالات
أكلها من عب اسيت ، فحكّم الطبيب على مرضه بطلعة
مبصع في قلبه لأقره جريمة الاعتداء على صاحب السلالة

يوم الأحد أشعلوا بيلة الطبخة الكبرى في قصر الملك ثلاثاً
وسبى وسبعائة شجرة بيضاء يقولون إن حيوشنا قد انتصرت
على حيوش حد السموي شقز أربعة من السحرة حضوا كلف
السدة ، ديس الصغير

فاحصرت روكان وقالت يا هه الأخبار يا سيراو ؟
فانسر في كلامه يقول :

يوم الإثنين لا شيء سوى أن ، ليدامير ، اسيدت بعثيقها .
فتعلمت روكان وقالت : ما هذا الذي تقول ؟ إنك نرح يا
صديقي ، فلم يلمت إليها وظل يقول :

يوم الثلاثاء - انتقل البلاط كله إلى « غوتيلو » .

يوم الأربعاء قالت السيدة « دي متجلا » لكونت دي

قالت : هاهو ذا ، ومدت يدها إلى صدرها فأخرجت الكتاب
من كيس صغير حريري ملق في عنقها ، وأعطته إياه ، ثم عادت
إلى مقعدها

وكان الليل قد بدأ يرغى سدوله على أكتاف الليل ، فأخذت
روكسان ترتب خيوطها وإلزامها لتصح في علبتها وأخذت ميراث
يقرا الكتاب بصوت عال زئان كأنها هو يحط أو يهتف ويناجي
ويقول :

الوداع يا روكسان ، لاني سأموت عما قليل ، وربما كانت
هذه الليلة آخر ليلي في الحياة

كنت أرجو أن أعيش بجانبك ، لأتولى حراسة سعادتك التي
عاهدت نفسي على أن أحميها لك ما حييت ، فحالت المفادير
بيدي وبين ذلك ، فليت شعري ماذا يكون حالك من بعدي ؟
إني لا أخاف الموت من أجل بل من أهلك وبجمل إلي أنك
ستفهم من بعد موتي أياماً شديدة عليك وعلى صلت الرقيقة
الحساسة ، وهذا كل جزعي من الموت . هودرحته لك أينما
الصديقة المسكينة !

وكانت روكسان تصفي إلى قرائته ، دهلة مدهوشة ، وتقول
بينها وبين نفسها ما أعرب صوته ، وما أضطرب تأثيره ! إنه
يقرا وكأنه يتحدث ويناجي ، وبجمل إلي أن وراء هذه الحصة
الغريبة التي ينظر بها سرا كأنما في أعماق صه ، واستمر هو في
قراءته بقول .

ستتضمن عيناى بعد قليل ، وستنظف تلك النظرات التي

كانت مرآتك الصقيلة التي ترمى فيها صورتك البديعة الساحرة
وترتسم فيها دقائق حيك . وأمرار جملك فمن لك عمارة
تزين بها نفسك بعد أن تملي عيناى بتراب القبر ؟

إن بين حبي كرواً ثميناً من حيك لم أستطع أن أكتشف لك
إلا عن مقدار قليل من جوهره وآلته . وكنت أريد أن أعره
جسمه بين يديك قل موتى ولكن ماذا أصنع وقد أعجبت موت
عنه ولا حيلة لي في قضاء الله وقدره

الوداع يا روكسان ، الوداع يا حبيبي ، الوداع يا حبيبي ،
الوداع يا أعر الناس علي وآثرهم في صبي ، إن قلبي لم يمارك
لحظة واحدة في حياتي وسيبقى ملازماً لك بعد مماتي . فليكن
عرائي حيك أن روعي سترعرف حيك ونجوم حولك في كل مكان
تكونين فيه . مكاناً لم تفتري وكان حجاب الموت المسيل دود
وهم من الأوهام ويأطل من الأباطيل .

وكان قد دخل على الكتاب الذي في يده وعبر كل ما ينبغي
له من الأشياء ولم يبق في خياله سوى أن يناجي المرأة التي يحبها
ويصفي إليها أسرار صه وبودعه الوداع الأخير ، فأعص
عبيه واستغرق في شعوره ووجدانه واستحال صوته إلى صوت
عريب . لا يشه لأصوت في رتته وبعته لأنه صوت الروح
وهناؤها وهنأته لتتصاعده إلى آفاق السماء ، فطلت روكسان
تضطرب وترتعد وتقول بينها وبين نفسها : إنها نعمة عريبة جداً
تذكرني بخلة عظيمة سمعتها في ساعة من ساعات حياتي لاصية
فليت شعري متى كان ذلك ؟

وكان الظلام قد نشر ملاته السوداء على أكتاف الليل فالتصت

إليه وحده نظر فيه فلمحت يياض الكتاب في يده معجبت
له كيف يستطيع القراءة في هذا الظلام الخالك ، فنهضت من
مكانها ومشت نحوه فخلت خطواتها اختلاصاً حتى بلغت فوقفت
بجانبه فراءت عليه مغمضين دوائه لا يزال مستمراً في قراءته
فاشدت دعوها وخوفها ووضعت يدها على كتفه وقالت له : كيف
تستطيع القراءة والظلام حالك وعيناك مغمضتان ؟ فالتفت انتفاضة
شديدة فسقط الكتاب من يده وسقط رأسه على صدره .

وساد بينهما سكون عبق ذهل كل منهما فيه عن نفسه ثم
أعدت روكان لتطبيق شيئاً فثبناً وتقول بينها وبين نفسها :
آه ماذا أرى ! إن الأمر هائل جداً ! إن النعمة التي أسعها منه
الآن هي بعينها النعمة التي كانت ترن في أذني ليلة للشرقة منذ
خمس عشرة عاماً ! لا بد أن يكون هو صاحبها . آه ما أعظم
شقاؤني ! لقد فهمت الآن كل شيء ولبتي ما فهمت شيئاً ، ثم
وقفت أمام سيرانو صامتة مطرقة وحتى استفاق من غيبته فضلعت
نحوه وأعدت يده وقالت له : لا تخف عني شيئاً يا صديقي فقد
علمت الحقيقة المؤلمة التي لا ريب فيها ، لقد كنت أنت الذي
تاجاني ليلة الشرقة وحذنتني عن الحب وكشفت لي عن غيابة القلب
الإنساني ، فقاطعتها وهو يرتجف ويرتعد . وقال : لا ، لا لم
أكن أنا ، قالت : وكان الظلام في تلك الليلة حالكا جداً فلم
أستطع أن أتيناك لأعلم أنك أنت الذي يحذني ويحجيني ، فصاح :
لا ، أقسم لك ، قالت : وكانت تلك الكلمات العذبة الجميلة
التي سحرني وملكت علي شعوري ووجداني كلماتك . فصرح :
لا بل تمنعته ، قالت : وذلك الصوت الموسيقي الذي كان يرن
في أذني رنين القيثارة الإلهية في أذان سكان السماء كان صوتك .
قال : لا . قالت : وذلك الرسائل البليغة المؤثرة التي جشمتني

مشقة السفر من باويس إلى أرامس كانت رسائلك ؟ قال : لا .
قالت : وذلك الكتاب الذي قرأته الآن بلك النعمة العذبة الجميلة
كان كتابك . قال : لا تصدق ذلك يا صديقي فما أذكر أنني
أحييتك في حياتي قط ، قالت : أحييتني ولا تزال تحيي حتى
الآن . قال : ذلك مستحيل لأن مثلي لا يجرؤ على أن يحب مثلك .
قالت : ذلك ما حملك على كتمان أمرك وتجميل هذا الدور المحزون
الأليم . قال وقد بدأ صوته يضعف ويتهيج : إنك وأهمة يسا
روكان ، قالت : ما أنا بأهمة ولا بخدعة . ولم تكتمت أمرك
عني هذه السنين الطوال ما دمت تحيي وما دام هذا الكتاب كتابك
وهذه النعمة دمعتك ؟ قال : ولكن الدم دمه ، قالت : قد اعترفت
من حيث لا تسدري ، فواضحاً لك أيها البائس المسكين
وأفترقت برأسها إطاراً طويلاً لا يعلم إلا الله ماذا كانت تخبئها
نفسها فيه ، وإنيها لكذلك إذ دخل لبريه وراجزو وهما يعجباهما
ويولولان حتى دنوا من سيرانو فقال لبريه : ماذا صنعت بتسلك
أيها المسكين ؟ ولماذا جئت إلى هنا وقد أوصاك الطبيب بملازمة
فراشك لا تبرحه لحظة واحدة ؟ فصاحت روكان : الطبيب !
وماذا ؟ قال لبريه : ألا تعلمين ما حل به يا صديقي حتى الآن ؟
قالت : لا أعلم شيئاً ، فأراد أن يقص عليها القصة فقامعه سيرانو
وقال له : أتدري يا لبريه ليم جئت إلى هنا رغم أوامر الطبيب ؟
قال لا ، قال لأنني على روكان الحريصة الأسبوعية التي أعدت
أن أتوها عليها يوم السبت من كل أسبوع ولا أستطيع أن أخاف
وعندي لها ، ثم التفت إلى روكان وقال لها : إني لم أتم لك
جريدتي الأسبوعية فاسمحي لي بإتمامها . ثم أنشأ يقول : وفي
يوم السبت الثالث والعشرين من شهر مايو سنة ١٦٥٥ ، قتل
المسيو سيرانو دي بروجواك .

وهنا حصر قبته عن رأسه فظهرت الأربعة والقصائد المحيطة به مضرجة بالدم ، فذعرت روكسان وحنت عليه وقالت : ما صنعوا بك يا صديقي ؟ قال : كنت أتمنى طول حياتي أن أموت في ميدان حرب بضربة سيف من يد بطل ، فقصي الله أن أموت في رقاق ضيق يجلع شجرة من يد خادم لأكون قد حرمت كل شيء في حياتي حتى الميتة التي أحياها ، وأطرق برأسه ثانية وظل على ذلك ساعة ، وقد ساد من حوله سكون عميق لا تسع فيه إلا معمعة الأحشاء المتقدة في قلوب الجائنين حوله .

ثم استفاق قليلاً فرفع رأسه وفتح عينيه فرأى راجنو جاثياً تحت قدميه يبكي ويتعجب فقال له : لا تلك يا راجنو وقل لي ما مهنتك اليوم ، فإن لك في كل يوم مهنة جديدة . قال : أنا الآن خادم عند «مولير» ، ولكي سأترك خدمته منذ الغد ، قال : لماذا ؟ قال : لأنه ليس من لصوص الأدب ، وهم عتدي أتبع اللصوص وأسفلهم ، قال وهو يتسم : هل سرق من شرك شيئاً ؟ قال : لا ، بل من شرك أنت ، فقد سطا على روايتك أجبرين ، فأخذ منها موقفاً كاملاً وضمنه روايته الجديدة «إسكابين» التي مثلت ليلة أمس ، قال : لقد أحسن فيما فعل ، وماذا كان وقع ذلك الموقف في نفوس الجماهير ؟ قال : ما زالوا يضحكون حتى رحموا أنفسهم . قال : ذلك كل ما يهمني . فلقد قلدر لي طول عمري أن يكون دوري في رواية الحياة دور الملقن الذي لا يسمه الجمهور شيئاً ، وهو كل شيء ، ثم التفت إلى روكسان وقال لها : أذكرين تلك الليلة التي كنت أحدثك فيها بلسان كرسيتيان ، قالت : نعم أذكرها ولا أذكر شيئاً سواها ، قال : إنها رمز حياتي من أولها إلى آخرها ، صعد كرسيتيان منذ خمسة عشر عاماً إلى شرفك ليتناول القبة التي سمحت له بها

مكافأة له على تلك الكلمات البليغة المؤثرة التي أنا صاحبها ومتبكرها ، واليوم يتمتع «مولير» بنات الجماهير وتهليلهم إعجاباً بتلك القصة الغزلية البديعة التي عطاها قلبي ، وما أنا بأسف على ذلك ولا واجد فكريتيان في جميل فيجب أن ينال هو القبة ومولير شاعر شهير فيجب أن يكون هو صاحب القصة . والتفت حوله فرأى الراهبات داخلات إلى الكنيسة في ملابسهن البيضاء وهن يرتدن صلواتهن على نفقات «الأرض» فأصغى إلى أصواتهن ساعة ، ثم تأوه ملولاً وقال : آه ما كنت أعيا بالحياة ولا أسف على شيء فيها لولا الموسيقى وروكسان . ولئن كان صحيحاً ما يقولون من أن في السماء موسيقى كما في الأرض ، وأن الصديدين اللذين يفرقان في هذه الدار يلتقيان في الدار الآخرة غداً فليس ورائي ما أسف على فراقه . فصاحت روكسان : ابقي في الحياة يا سيرانو فإني أحبك ، قال : ذلك مستحيل إلا إذا استطاعت كلمتك هذه أن تمحو قبحي ودماعتي . كما روا في بعض الأساطير أن أميراً دميم الخلقة سمع مرة من يقول له : إني أحبك ، ففلاشي فيه بتأثير تلك الكلمة وأصبح جميلاً وضيئاً ، ولو أنني عشت بعد اليوم ألف سنة ما أقص ثقل أنفي فبراطاً واحداً ، فهبكت واشتدت شجيجها وقالت : اغفر لي ذنبي يا سيرانو ، فقد كنت السب في جميع ما حل بك في حياتك من المصائب . قال : لا ، بل بالعكس فلقد قضيت حياتي كلها مجروماً لذة عطف المرأة وحنانها حتى إن أمي كما حدثوني لم تكن تستطيع أن ترائي جميلاً كما يرى الأمهات أولادهن المشوهين ، ولو كانت لي أخت أو عمة أو خالة لكان شأني معي ذلك الشأن ، ولم أر يوماً من الأيام في عيون النساء جميعاً جميلات كن أو دميقات غير نظرات المزه والسخرية والتفوق والاشمئزاز ، وأنت المرأة الوحيدة التي

استطاعت أن تتخذني صديقاً واستطعت أن أبلغ من عطفي ورحمتي
إلى ظل ظليل فما أعظم شكري لك ، فقالت : عش يا سيرانو
فلاني أحبك ، بل ما أحببت في حياتي أحداً سواك ، وما لبست
ثوب الحداد خمسة عشر عاماً إلا من أجلك . قال : لا تحاولي
الغمر بكروستيان يا سيدتي واحلري أن يحف حزنك عليه وبكاؤك
على مصرعه فإنه صديقي ، وكل ما أطلبه إليك : أن تصمي إلى
شارات حدادك شارة صغيرة من أجل ليكون حزنك عليّ جزءاً
من حزنك عليه ، فصاحت : آه ما أشقائي لقد أحببت في حياتي
حياً واحداً فقدته مراراً .

وكان كوكب الليل قد أشرق من مظلمه ، فانبطحت أشعته
في فناء الدبر فانمش سيرانو حين رآه وقال : ها هو ذا صديقي
الغيبه ، قد أرسل إليّ أشعته تشعني إليه فشكراً له على ذلك ،
سأصعد الليلة إلى السماء على نضج جميل من تلك الأشعة الغضبية
اللامعة دون أن أحتاج إلى تلك الآلات الزائفة التي سردها على
الكونت دي جيتر ، وسيكون مقامي هناك في ذلك الكوكب
الجميل مع تلك النفوس العظيمة ، التي أحبها وأجلها : ستراط
وأفلاطون وغاليلي وجميع الذين ماتوا ضحايا صدقهم وإخلاصهم .

وهنا انتحب لبريه وقال : وأسفاً عليك أيها الصديق الكريم !
وما أشد ظلمة الحياة من بعدك ! فانتبه إليه سيرانو وقال له :
لا تحزن عليّ كثيراً يا لبريه فلاني ذاهب لللاقاء صديقي كاربون
دي كاستل وسائر أبناء وطني الذين ماتوا ميتة الشرف والفخار
في ميدان أراس وسيكون مجتمعنا هناك جميلاً جداً لا يكرهه
علينا ممثل ثقيل ولا تيبيل جاهل ولا شاب مقروء .

وصمت صمتاً طويلاً كان يعاني فيه عن الآلام مالا يحتمله

يشر . ثم ثار من مكانه هائجاً مضطرباً وجرد سيفه من غمدته
وأخذ يصيح : لا لا ، لا أريد أن أموت على هذا القعد ميتة
العاجز الجبان ، فذعر أصدقائه ، ونهت وابتهوذه ، وحاول
واجبو أن يمسكه فدفعه عنه وأسند ظهره إلى شجرة ضخمة وقال :
دعوني فلاني أريد أن أموت واقعاً . وأخذ ينظر أمامه ويدق النظر
كأنما يرى شيئاً مقبلاً عليه ، ثم قال : تعال أيها الموت تقدم
ولا تخف ، فقد أصبحت رجلاً ضعيفاً خائراً لا قبل لي بمواقبتك
ومقابلتك . تقدم فما أنا بسيرانو دي برجرارك إنما أنا خيال الماضي
وصورته الضئيلة ، فهل بلغ بك الحزن أن تخاف الصور والخيالات ؟
لقد ضعف في يدي ذلك السيف الذي كنت أقاتلك به وأصبح
رأسي ثقيلاً ويدي مفلولتين ، وكان قديم مصوبتان في قالب
من الرصاص . أقبل ولا تخف ، مالي أراك تنظر إلى أنفي نظير الساحر
المازى . أشماته هي أيها الساقط الجبان ، ماذا تقول إنك أقوى
مني . نعم ما أنكرت عليك ذلك ، ولكني على هذا ساقاالك
وأبست . لا لأنني أطمع في أن أنتصر عليك ، بل لأنني أريد أن
أموت ميتة الأبطال من قبل . ثم أخذ يدير عييه ويسره ويقول :
من هؤلاء ! مرجأ بك أيها الرذائل ، لقد عرفتك يا أعدائي
الشماء ، ما أكثر عددكن واقنع وجوهكن ، نعم سأموت ،
ولكن بعد أن شفيت مكن غليلي ومثلت بك أنقع تمثيل . اغربن
من وجهي قمحك الله وقبح صوركن وأرياءكن

وظل يطن بسيفه عيناً وشمالاً ، وأمام ووراء ويقول :
خذ أيها الكاذب ، خذ أيها الطمع ، مت أيها الغدر ، تبأ لك
أيها الساقط ، سحقاً لك أيها الحياة .

وظل يدور حول نفسه ساعة حتى بلغ منه البهت فسقط بين

أذرع لبريه وراجنو ، وظل على ذلك هنيهة ، ثم فتح عينيه وصدق
النظر أمامه طويلاً وقال : تقدم أيها الموت وخذ ما تريد مني ،
أتدري ماذا تستطيع أن تسلبني ! إنك تستطيع أن تسلبني حباتي
وجسمي ، وهذا السيف العزيز عليّ ، وهذه الريشة التي وضعتها
يد النخار في قبعتي بل جميع ما تملك يدي ، ولكن شيئاً واحداً
لا تستطيع أن تسلبني ، وسيرافقني في سفرتي التي انتويتها إلى
السماء حتى أقف بين يدي الله تعالى رافع الرأس عزة وفخاراً ،
وهو ... وهنا عجز عن النطق فحاول أن ينطق الكلمة التي أرادها
فلم يستطع ، فالتحت عليه روكسان وقبلته في جبينه وأرسلت
دمعة حارة على وجهه وقالت : وما هو يا سيرانو ؟ ففتح
عينيه للآخرة الأخيرة فرآها فابتسم وقال : حريتي واستقلالي !
ثم خفق قلبه الخفقة التي لم يحقق بعدها .

وكذلك انقضت حياة هذا الرجل العظيم كما تنقضي حياة
أمثاله من العظماء لم يتمتع يوماً واحداً بروية مجده وعظمته حتى
إذا قضى سمح له التاريخ بعد مئاته بما ضن به عليه في حياته .
أما روكسان فلم يعلم الناس من أمرها بعد ذلك شيئاً سوى أن
مقعداً الذي كانت تقعد عليه أمام منسجها قد أصبح خالياً مقفراً ،
فلم يعرفوا : ألزمت جوف محرابها تدعو الله تعالى ليلها ونهارها
أن يلحقها بصديقتها ؛ أم رقدت بجانبه في مقبرة الدير الرقدة الدائمة ؟

تمت

www.liilas.com/vb3

مع تحيات أبوعلاء سيف الدين